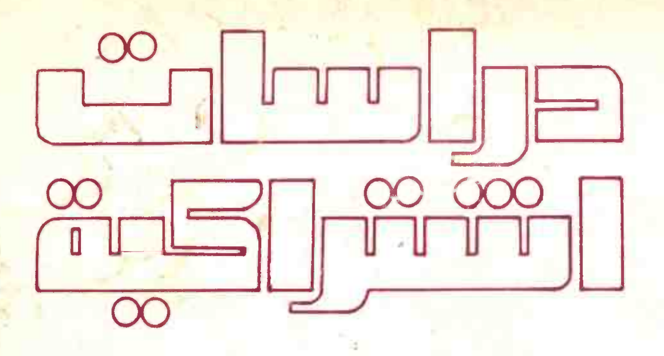




تعالج قضايا فكرية واقتصادية وسياسية في ضوء الاشتراكية العلمية

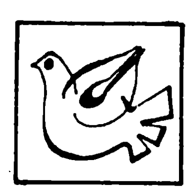


- جنوب السودان : سبل ايقاف الجرح النازف
- نعيش في عالم متغير
- الاتجاهات الرئيسية في العمارة السورية
- لنتحل بالجرأة على التفكير
- مختارات من قصائد



السنة الحادية عشرة

٢ ١٩٨٨



دراسات اشتراكية

تعالج قضايا فكرية واقتصادية وسياسية

في ضوء الاشتراكية العلمية

العدد ٢ (٦٨) السنة الحادية عشرة ١٩٨٨

محتويات العدد

□ الافتتاحية

□ عالم الرأسمال

□ البلدان العربية قضايا وآفاق

□ مشكلات راهنة

□ من نضالات الشعوب

□ أبحاث

□ آراء ومناقشات

□ مقابلات

□ ثقافة وأدب

الاحـزاب الشيوعيـة
تتضـامن مـع انتفاضة
الشعب الفلسطيـني الباسل

اصدرت الاحزاب الشيوعية ، والعمالية في منطقة الشرق الاوسط ، والشرقين الادنى والاوسط والبحر الاحمر ، بياناً تضامنياً مع انتفاضة الشعب الفلسطيني هذا نصه :

ان حزب الشعب الديمقراطي في افغانستان ، وجبهة التحرير الوطني البحرانية ، والحزب التقدمي لشغيلة قبرص (اكيل) والحزب الشيوعي المصري ، والحزب الشيوعي اليوناني ، وحزب توده (ايران) ، والحزب الشيوعي العراقي ، والحزب الشيوعي الاسرائيلي ، والحزب الشيوعي الاردني ، والحـزب الشيوعي الفلسطيني ، والحزب الشيوعي في العربية السعودية ، والحزب الشيوعي السوري ، والحزب الشيوعي التركي ، وحزب الوحدة الشعبية في الجمهورية العربية اليمنية ، وغيرها من الاحزاب الشيوعية والعمالية في منطقة شرق المتوسط ، والشرقين الادنى والاوسط والبحر الاحمر .

ان هذه الاحزاب مجتمعةً تشجب بشدة وسخط،القمعَ الوحشي المتصاعد الذي يقوم به جيش الاحتلال الاسرائلي ضد أبناء الشعب الفلسطيني .

وتكشف الاحداث اليومية عن اعمال العنف اللا انسانية التي يقوم بها الجنود والمستوطنون الاسرائيليون ضد الشعب الفلسطيني .

اننا ندعو شعوب منطقتنا ، جنباً الى جنب مع البشرية جمعاء ، الى المطالبة بالوقف الفوري للاعمال الاجرامية الاسرائيلية في الاراضي الفلسطينية المحتلة ، كما ندعوها الى ان تعبرّ عن،وتشدد ، بكل السبل ، دعمها للانتفاضة البطولية للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع عزة ، والذي يناضل من أجل ضمان حقوقه الوطنية المشروعة ، بما في ذلك حقُه في اقامة دولته المستقلة .

اننا ندعو شعوب منطقتنا الى تعبئة الجهود في مواجهة مشروع الولايات المتحدة الذي حمله وزير خارجيتها شولتز في جولته الاخيرة في المنطقة . ان هذا المشروع الذي يستهدف وأدَ انتفاضةِ الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة ، يشكل نسخةً جديدةً من اتفاقيات كمب ديفيد سيئة الصيت ، ومن مشروع ريغان ، والتي تهدف الى فرض صَفْقات انفرادية مشبوهة في المنطقة ، تنسجم ومصالح امبريالية الولايات المتحدة ، والدوائر الصهيونية الحاكمة ، والرجعية العربية .

ومن الجليّ انه لولا الدعم العسكري والمالي والسياسي الذي تقدمه امبريالية الولايات المتحدة ، لما أمكَنَ لاسرائيل ان تواصل سياسة الاحتلال والاضطهاد ، ولما أمكنها ان تعطل مساعي حل القضية الفلسطينية وتحقيق سلام عادل وشامل في المنطقة .

اننا ندعو شعوب منطقتنا الى ان تُعبىء الجهود من أجل الوصول الى حل عادل ودائم لقضية الشرق الاوسط ، وان الشرط الاساسي لمثل هذا الحل يقوم في انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، وعقد مؤتمر دولي يتمتع بصلاحيات اساسية ، وتشارك فيه الدول دائمة العضوية في مجلس الامن ، وجميع الاطراف المعنية ، بما في ذلك اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني .

ان مثل هذا المؤتمر الدولي هو السبيل الوحيد الذي يمكن ان يَضمن حقَ كل دول لمنطقة في الوجود في اطار حدود آمنة ، مُعتَرَفٍ بها دولياً .

الازمة الاقتصادية : موقف الشيوعيين ○

جرت في براغ ندوة عالمية حول موضوع «الأزمة العامة للرأسمالية : اشتداد عدم الاستقرار الاقتصادي والمالي ونضال الشيوعيين» .

افتتح الندوة سرغي تسوكاسوف ، السكرتير المسؤول لمجلة «قضايا السلم والاشتراكية» . ثم قدمت التقارير التي اعدها فيكتور بيرلو (الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة) ، اميل بيارناسون (الحزب الشيوعي الكندي) هانس غيرزيبين (الحزب الشيوعي الالماني) ستانيسلاف مينشيكوف (الاتحاد السوفيتي) ، فيريتس غازادغ (المجر) ، ايفان كوروليوف (الاتحاد السوفيتي) . وشارك في النقاش : خوسيه ماريا لاناو (الحزب الشيوعي الأرجنتيني) ، دافيد موررايس (الحزب الشيوعي البوليفي) ، انطونيو ريبيرو غرانجا (الحزب الشيوعي البرازيلي) ، بيرت راميلسون (الحزب الشيوعي البريطاني) ، اوني كريشنان (الحزب الشيوعي الهندي) ، ويليم سومرسيت (الحزب الشيوعي الايرلندي) ، الفارو اوفيدو (الحزب الشيوعي الكولومبي) ، فرانسيسكو غامبوا (حزب طليعة الشعب في كوستاريكا) ، رفيق سمهون (الحزب الشيوعي اللبناني) ، مصطفى عزاوي (حزب التقدم والاشتراكية المغربي) ، اوغو كامبوس (الحزب الشيوعي في باراغواي) ، سيمو باتي غي (حزب الاستقلال والعمل السنغالي) ، علي أحمد الطيب (الحزب الشيوعي السوداني) ، خوسيه لافا (الحزب الشيوعي في الفيليبين) ، اوريل فيسياني (الحزب الشيوعي الشيلي) ، فوسيزفي سيميه (الحزب الشيوعي في جنوب افريقيا) .

وننشر أدناه عرضا للنقاش .

○ « قضايا السلم والاشتراكية » ، العدد ٦ / ١٩٨٧

يؤكد عصرنا بصورة مقنعة أن الأزمة العامة للنظام الرأسمالي تواصل تعمقها . فالرأسمالية المعاصرة تختلف الى حد كبير عما كانت عليه في مطلع القرن العشرين وحتى في أواسطه . وعلى خلفية الثورة العلمية التقنية يتجلى بحدة أكبر النزاع بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . وتتفاقم مجموعة المعضلات الاجتماعية بكاملها وأزمة المؤسسات السياسية والازمة في المجال الروحي . ويتجلى بقوة متزايدة ضغط الرجعية وتتزايد النزعات الاستبدادية .

اولى المشاركون في اللقاء تزايد عدم الاستقرار الاقتصادي والمالي للرأسمالية اهتماما رئيسيا . فهو يؤثر الى حد كبير في تعمق النزاع بين العمل ورأس المال والتنافس بين الدول الامبريالية ، وفي التناقض بين الشركات فوق القومية وشكل الدولة الوطني للتنظيم السياسي للمجتمع . وتؤثر عمليات التأزم في ميدان الاقتصاد والمال في علاقات الامبريالية مع البلدان والشعوب النامية ، وفي القضايا العالمية الشاملة التي يتوقف على حلها مستقبل الحضارة البشرية .

دورة جديدة من الأزمة

يتسم الوضع الاقتصادي في المراكز الرئيسية للرأسمالية العالمية بتشابك المراحل الأولية من الركود الجديد في الانتاج ، وبالدرجة الأولى في الولايات المتحدة واليابان ، مع الازمات البنيوية المستمرة في جميع البلدان للرأسماليةالمتطورة صناعيا . فقد بلغ الانتاج الصناعي في الولايات المتحدة الذروة في كانون الثاني (يناير) من العام الماضي ، وبعد ذلك بقي على المستوى نفسه عمليا حتى بداية عام ١٩٨٧ . وفي اليابان تقلص الانتاج السنوي للمنتوجات الصناعية في عام ١٩٨٦ بنسبة ٠,٤ في المئة ، وذلك للمرة الأولى خلال الاحدى عشرة سنة الاخيرة . وتباطأ بصورة خطيرة الانتاج في كل من المانيا الاتحادية وفرنسا .

هل نواجه توقفا في النهوض الاقتصادي العام الدوري الذي بدأ في عام ١٩٨٣ ، ام اعراض ازمة دورية جديدة على الصعيد العالمي ؟ يعتقد ف . بيرلو ، ف . غامبوا و س . مينشيكوف انه يمكن الحديث عن مرحلتها الأولى . فالخاصية الأهم لهذه الازمات تتمثل في انخفاض التوظيفات في رأس المال الاساسي . فقد انخفضت عام ١٩٨٦ في

كل من الولايات المتحدة واليابان ويتوقع ان تتواصل انخفاضها . وثمة علائم افيض في انتاج السلع الاستهلاكية المعمرة ، بالدرجة الأولى السيارات . ولكن لم يحصل حتى الان هبوط عام في الانتاج الصناعي ، فاجمالي الناتج الوطني في البلدان للرأسمالية الصناعية يواصل ارتفاعه بنسبة ٢ - ٢,٥ في المئة (سنويا) .

توقف ف . بيرلو عند خصائص المرحلة الراهنة من الدورة الاقتصادية في الولايات المتحدة . فقد تجاوز دين الحكومة الفيدرالية التريليوني دولار . وتنوء ميزانية الدولة تحت عبء مدفوعات فوائد الديون المتضخمة ، الأمر الذي يؤدي الى التهام رأس المال الذي كان من الممكن استخدامه لأغراض انتاجية . كما ان ديون الشركات ارتفعت بدرجة كبيرة . وخيم الخطر المالي على الكثير من البنوك ومؤسسات الصناعة النفطية والمزارع وصناعة صب الفولاذ وغيرها من فروع الصناعة الثقيلة . وارتفعت أسعار الاسهم بسرعة جعلت وضع البورصة غير مستقر أبدا .

ثمة عوامل تبعد الركود أيضا ، كالارتفاع الحاد في النفقات العسكرية على سبيل المثال . فالعسكرة ، اذ تزعزع الاقتصاد على المدى البعيد ، تعوض جزئيا على المدى القصير التوظيفات ذات الطابع غير العسكري ويمكن أن تكبح لبعض الوقت الركود العام في الانتاج . وتفعل ادارة ريغان كل ما يمكن من أجل حفز الاقتصاد من خلال تخفيض أسعار الفائدة ، والضرائب المفروضة على مداخيل الاحتكارات .

قال غ . غيرزيبين ان الوضع في اقتصاد جمهورية المانيا الاتحادية يتسم بالتناقضات الحادة . فقد بلغ عدد العاطلين عن العمل المسجلين رسميا خلال عام ١٩٨٦ في المتوسط ٢,٢ مليون . وحتى دائرة العمل الفيدرالية تعتبر أن هذا الرقم لايشمل ١,٢ مليون عاطل عن العمل وليس ثمة أماكن عمل أو دراسة لمليون شاب . وتتفاقم ظاهرة اطلقت عليها النقابات اسم الفقر الجديد ، وهي تشمل ٦ ملايين انسان .

استقر الوضع الاقتصادي بعض الشيء نتيجة الهبوط الحاد في أسعار المواد الأولية المستوردة ، وبالدرجة الاولى النفط . فقد ارتفع استيراد النفط في المانيا الاتحادية من الناحية الكمية ، غير أن نفقات شرائه انخفضت الى اكثر من النصف . وللمرة الأولى خلال الفترة الاخيرة ، طرأ في ١٩٨٦ ارتفاع محدود على الأجور الفعلية ، الأمر الذي

يشكل نجاحا لا شك فيه للنقابات . ولكن ينبغي ألا ننسى ان مداخيل السكان الفعلية انخفضت خلال السنوات الست الاخيرة اكثر من ٦,٥ في المئة ، ولم يتم التغلب على هذا التخلف حتى الان .

اعتبر ب . راميلسون البطالة الجماعية والتوظيفات غير الكافية من بين السمات الأكثر اهمية للأزمة في بريطانيا . وقال ان الكثيرين يستغربون عندما يعرفون أن مستوى معيشة الشعب عندنا اليوم هو أدنى مستوى بين بلدان اوربا الغربية الصناعية . وتشمل فئة الفقراء ثلث مجموع السكان القادرين على العمل - أي ٨ ملايين انسان

اما بخصوص التوظيفات فان حجمها بالمقارنة مع اجمالي الناتج الوطني في بريطانيا هو أقل مما في أي بلد رأسمالي كبير آخر . من هنا تأتي الوتائر الضعيفة للنمو الاقتصادي ، حيث تبلغ ١,٥ في المئة سنويا في المتوسط . والمعضلة الأكثر خطورة هي تراجع التصنيع ، أي اختفاء فروع صناعية بكاملها . وللمرة الأولى خلال تاريخ التطور الرأسمالي كله تشهد البلاد عجزا في التجارة الخارجية بالسلع الصناعية .

وأشار ف . غامبوا الى عدم الثقة السائدة بين الاقتصاديين البرجوازيين والمستشارين الماليين . فقد ازداد ، خاصة ، خطر التقلبات الحادة في أسعار الاوراق المالية نتيجة ادخال الكمبيوتر بسرعة وعلى نطاق واسع في عمليات البورصة . ويساهم ذلك في نشوء حالات الفرح غير المبرر تارة والذعر الجماعي تارة اخرى . ولم تعط محاولات التنسيق واعادة التوازن الى اقتصاد المراكز الامبريالية الكبرى الثلاثة النتائج المرجوة . ويمكن أن تكون الأزمة عميقة جدا في الفترة الجديدة التي بدأت .

وأشار المتحدثون الى أن الظاهرات ذات الطابع الدوري تضاف الى الأزمة البنيوية الطويلة الامد والركود في الفروع القاعدية لاقتصاد المراكز الرأسمالية الرئيسية .

واذْ دقق ف . بيرلو مفهوم الأزمة البنيوية العالمية رصد سماتها الأساسية : انخفاض معدل وتائر نمو الانتاج الصناعي ، ضعف وانهيار الفروع التقليدية للصناعة الثقيلة ، عدم التوازن في التجارة الدولية والمدفوعات ، الجنون المالي والمضاربات المفرطة ، الاشكال الجديدة لنهب البلدان النامية وأزمة الديون العالمية ، الميل الى انخفاض مستوى معيشة الطبقة العاملة مع الاثراء الذي لم يسبق له مثيل للنخبة الرأسمالية والجهاز العسكري البيروقراطي ، الأزمات المالية الحادة والاقتصادية العميقة

في عدد من البلدان ، وأخيرا وليس آخرا من حيث الأهمية ـ عسكرة الاقتصاد .

واشار غ . غيرزيبين الى أن صناعة صب الفولاذ وبناء السفن وصناعة البناء في المانيا الاتحادية تعيش أزمة مستمرة ، ففي هذه الفروع تتقلص القدرات الانتاجية وتقفل المؤسسات ويسرح العمال بصورة جماعية ، ويقضي على رأس المال الانتاجي . ففي عام ١٩٧٤ كان يعمل في الميتالورجيا الحديدية ٣٣٤ ألف عامل ، اما الان فان عددهم لا يزيد على ٢٠٧ آلاف ـ أي أقل بنسبة ٤٠ في المئة تقريبا . وستلغى خلال السنتين القادمتين هنا ١٥ ألف فرصة عمل كحد أدنى . وتنوي ترسانات بناء السفن الكبرى تقليص قدراتها الانتاجية بنسبة ٣٠ في المئة ، وستلغى على الآقل ١٠ الاف فرصة عمل من الأربعين الف فرصة الموجودة حاليا . ويرتبط بالميتالورجيا الحديدية وصناعة السفن مصير مناطق صناعية بكاملها في البلاد .

وقال أ . بيارناسون ان الازمة البنيوية في اقتصاد كندا تجلت في الانخفاض المتواصل لمعدل الربح العام . ومن بين عوامل مجابهة هذا الميل ، التضخم النقدي واعادة توزيع المداخيل الجارية بواسطة الدولة لصالح الرأسماليين ، الأمر الذي يحد من الطلب القادر على الدفع لدى السكان وينعكس بصورة سلبية على وتائر نمو الانتاج . وقد ارتفع معدل البطالة من ٤ في المئة في الخمسينات و٥ في المئة في الستينات الى ٩ في المئة في بداية الثمانينات ، وبلغ الان ١٠ ـ ١١ في المئة .

العسكرة والهجوم المعادي للعمال

أوليت اهتماما كبيرا في النقاش مسألة العسكرة وعواقبها الاقتصادية ـ الازمة المالية للدولة ، العجز القياسي في الميزانية ، ديون الدولة التي بلغت ارقاما فلكية . ففي ظروف التباطؤ العام في وتائر النمو الاقتصادي يصعد المجمع الصناعي العسكري الضغط ، ساعيا الى الزيادة المطردة في نفقات التسلح واقرار برامج طويلة الأمد ترمي الى تمهيد الطريق للازدهار المستمر في صناعة الحرب خلال عقود قادمة . وبرنامج «حرب النجوم» اسطع تعبير عن هذا الاتجاه .

وكما أشار المشاركون في النقاش أصبح واضحا بصورة خاصة في السنوات الأخيرة أن النفقات العسكرية المتنامية تشيع عدم الاستقرار في الوضع الاقتصادي

العام . فحالات العجز القياسية في الميزانيات تسبب تقلص توظيفات رؤوس الأموال . وادى التركيز على النفقات العسكرية في عدد من الدول الامبريالية الى تقويض قدرتها التنافسية في الاسواق العالمية وتقليص عدد فرص العمل في الصناعة الوطنية وتفاقم الأزمة البنيوية .

وأشير في الندوة الى انه تجلى في الأزمة الراهنة للمرة الاولى بصورة كاملة سيطرة رأس المال الاحتكاري فوق القومي . فالشركات فوق القومية ، اذ ساهمت في تدويل الانتاج ، حققت في عدد من الحالات اعلى درجات انتاجية العمل ، وتمارس التحولات التقنية التي لا يمكن القيام بها في اطار بلدان منفردة . وفي الوقت نفسه ، بغية تحقيق الأرباح على الصعيد العالمي ، تتجاهل غالبا حاجات ونسب الاقتصادات الوطنية وتلجأ الى الاغلاق الجماعي للمؤسسات والغاء مئات الالوف من فرص العمل ذات الانتاجية العالية . ويعتمد هجوم الاحتكارات على مواقع الشغيلة ، على السياسة الرجعية للدولة البرجوازية ولا سيما بشكلها المحافظ الجديد . فوصفة «اقتصاد التقشف» تؤدي الى انخفاض الأجور والحد من حقوق النقابات وتقليص اعانات الضمان الاجتماعي مع تصعيد النفقات العسكرية وتقليص الضرائب على مداخيل البرجوازية الاحتكارية .

وقدم ف . بيرلو معطيات عن الارتفاع الحاد في درجة استغلال قوة العمل في الولايات المتحدة . فمعدل القيمة الزائدة الذي كان يعادل ١٥٠ في المئة عام ١٩٥٠ ارتفع الى ٢١١ في المئة في عام ١٩٧٠ والى ٣٠٢ في المئة عام ١٩٨٤ . وبلغ معدل الربح في عدد من الحالات مستويات قياسية . وبالمقارنة مع عام ١٩٧٢ بلغ انخفاض الاجور الفعلية ١٤ في المئة وفقا للاحصاءات الرسمية ، وأكثر من ٢٠ في المئة ، استنادا لمعطيات النقابات وتقلصت مخصصات الضمان الاجتماعي ، التي كان يعوضها في حدود معينة في الماضي المستوى الرفيع للاستغلال المباشر لقوة العمل . وتبلغ البطالة في جميع مراحل الدورة الاقتصادية ابعادا كانت في الماضي مميزة لمرحلة الأزمة فقط .

وأشار أ . بيارناسون الى أن محاولات مكافحة التضخم النقدي في كندا في السبعينات بواسطة تنظيم الأجور انزلت ضربة شديدة بالشغيلة ، وأدت الى تقليص السوق الداخلية وزيادة البطالة . اما بعد ان اعطت حكومة المحافظين «الضوء الأخضر» للسياسة النقدوية فقد ازداد الوضع سوءا . فأسعار الفائدة المرتفعة التي عرقلت

التوظيفات ادت الى ازدياد البطالة المطرد .

وأكد و . سومرسيت ان اغلاق مؤسسات الشركات فوق القومية - «تيليكترون» ، «فورد» ، «دانلوب» ، «اثاري» وغيرها في ايرلندا ، و«ميشلين» ، «ايميريل كيميكل انداستريز» ، و«كيرتودس» وغيرها في ايرلندا الشمالية ، الحق ضررا كبيرا بالبلاد . فقد افلس الكثير من الشركات المحلية ، التي كانت تخدم هذه المؤسسات وتقع في حالة تبعية لها . وبلغت البطالة نسبة ١٨ في المئة، اما في ايرلندا الشمالية فوصلت الى ٢٣ في المئة . وينبغي ان نضيف هنا العدد الكبير من العاملين جزئيا ومؤقتا ، ولا سيما النساء والشباب . والكثير من الشباب الايرلنديين لم يعملوا في حياتهم بتاتا . والحل الوحيد الصفيق بصورة سافرة الذي تقترحه الاوساط الحاكمة لمواجهة البطالة الجماعية هو الهجرة .

وأشار غ . غيرزيبين الى أن وضع الطبقة العاملة في المانيا الاتحادية تغير بصورة نوعية في ظروف الأزمة . فالقسم الاساسي من السكان لا يثق بالمستقبل ، ويفقد عدد متزايد من الناس العمل والمهارة والتأهيل المهني . ومن بين الهجمات على حقوق الشغيلة يبرز اثنان بصورة خاصة . الاول - هو قانون «المساعدة على التشغيل» الذي دخل حيز التطبيق عام ١٩٨٥ . ويتلخص جوهره في تطبيق عقود العمل القصيرة الامد على نطاق واسع بما تنطوي عليه من حماية اقل من قبل القانون . والثاني - هو ما يسمى بالمادة ١١٦ التي يتعرض بموجبها اعضاء النقابات للتسريح التعسفي ويحرمون من مخصصات البطالة . والهدف من ذلك استنزاف صناديق الاضراب لدى النقابات والحد من امكانات النضال الاضرابي .

وتحدث ب . راميلسون عن خصائص التكتيك المعادي للعمال الذي يمارسه المحافظون في بريطانيا . فحكومة تاتشر تعتبر تخفيض مستوى التضخم احد اهم انجازاتها . ومع ذلك فان ارتفاع الاسعار في بريطانيا اعلى مما هو عليه في البلدان الرأسمالية الصناعية الأخرى . وبالرغم من البطالة الجماعية فان الاجور الفعلية ترتفع . كيف يمكن تفسير هذه التناقضات ؟ ثمة مجموعة من العوامل تمارس تأثيرها في هذا المجال . فالطبقة العاملة الانجليزية عالية التنظيم وذات تقاليد كفاحية عريقة . ويعرف ارباب العمل ان العمال سوف يناضلون ضد النيل من حقوقهم وتخفيض

معدلات الأجور ولكـن العمـال اذ يحتجون على اغلاق المؤسسات والتسريحات الجماعية يوجدون في وضع غير ملائم . فقد أدركت الطبقة الحاكمة ان من الاسهل بالنسبة لها تركيز الجهود على رفع انتاجية العمل وتقليص عدد اليد العاملة ، مقدمة التنازلات للذين يواصلون العمل .

التبعية المتبادلة بين المراكز والاطراف

جرى التأكيد في الندوة بأن التحليل الكامل لأزمة الرأسمالية يتطلب الكشف عن آلية عدم الاستقرار ليس في المراكز الامبريالية فحسب ، بل وفي الاقتصاد الرأسمالي عموما ، وكذلك عن الترابط بين عمليات التأزم في البلدان الصناعية والاطراف .

قال س . ب . غي ان الطبقة الحاكمة في البلدان الرأسمالية المتطورة اليوم تلجأ الى نوعين من الحلول لمواجهة عدم الاستقرار . فهي تحاول بالدرجة الاولى حشد الموارد الداخلية . وعندما تصطدم خطتها هذه بالعوائق ، تعمد الى نقل الانتاج الى دول «العالم الثالث» . ويسمح استغلال البلدان النامية المتزايد للرأسمالية بتقديم التنازلات في مراكزها . ولكن هذه السياسة ، التي اطلق أحد الاقتصاديين الامريكيين اللاتينيين عليها اسم «تطوير التخلف» ، تصطدم ايضا بالعقبات ، بأزمة الاستعمار الجديد . سواء دار الحديث حول تصدير رؤوس الاموال والسلع والمعرفة التكنولوجية او حول تشديد الضغط السياسي بغية خلق ظروف أكثر أمنا لرأس المال ، فهذان العنصران الرئيسيان لنظام استغلال «العالم الثالث» يواجهان الان مصاعب متزايدة . علما بان اي تغيير في الوضع هنا ينعكس حتما على السياسة في مراكز الامبريالية .

وقال أ . فيسياني ان عواقب الازمات البنيوية والدورية تضاف الى أزمة آليات التبعية والسيطرة والنهب الامبرياليين . فتسرب رؤوس الأموال والتدهور الحاد في ظروف التبادل التجاري ومعضلة الدين الخارجي الحادة الى درجة لا تحتمل تخلق على كل الاصعدة تقريبا وضعا ينذر بالانفجار .

وفي ظروف الازمة ضاعفت الشركات فوق القومية البحث عن اسواق ومناطق نفوذ جديدة ، حيث نقلت الى دول «العالم الثالث» فروع الصناعة التي تتطلب عملا مكثفا وتلوث البيئة . وهي تستخدم سنغافورة وهونغ كونغ وكوريا الجنوبية وتايوان

كواجهات دعائية ونقاط انطلاق للتوسع اللاحق . وفي الوقت نفسه كشفت الأزمة عن حقيقة ان «البلدان الصناعية الجديدة» هي بالنسبة لمراكز الرأسمالية عبارة عن منافسين اضافيين اكثر من كونها اسواق تصريف واسعة محتملة . لذا ، يلاحظ تدفق رأس المال الى البلدان النامية الأكبر والاكثر كثافة سكانية ، كالهند على سبيل المثال . وهذا الاتجاه يكشف عن ميدان جديد للتناقضات .

واشار أ . كريشنان الى أن التأثير السلبي لعمليات التأزم يتجلى أيضا في الانخفاض العام لاسعار المواد الاولية ومصادر الطاقة الذي بدأ منذ مطلع الثمانينات . فتجري اعادة توزيع كبيرة للمداخيل في اطار الرأسمالية العالمية لصالح الدول الصناعية ، وتنمو الارباح المفرطة الاتية من البلدان النامية التي تعاني بحدة عواقب اشتداد الحماية الجمركية في المراكز الرأسمالية . ويؤدي الوضع غير الملائم في التصدير الى تفاقم عجز ميزان المدفوعات في معظم بلدان «العالم الثالث» .

نشأ وضع مأساوي في سوق النفط العالمية ، حيث هبطت الأسعار بصورة كارثية ، وقد كرس رفيق سمهون مداخلته لهذه القضية . فاكد أن الانخفاض الراهن في اسعار النفط ناجم ، بالاضافة الى فعل العوامل الموضوعية (الازمة الاقتصادية ، الانتقال الى التكنولوجيات الموفرة للطاقة) ، ناجم ايضا عن سياسة الامبريالية الامريكية التي تسعى الى التأثير في الوضع في بلدان الاوبيك مستخدمة في ذلك نفوذها الشديد في العربية السعودية ، التي أغرقت خلال سنوات اسواق النفط العالمية بالمعنى الدقيق للكلمة . وبذلك جرى تقويض بنية نظام الاسعار المعمول بها داخل الاوبيك . وادى انخفاض أسعار النفط ما بين مرتين و ثلاث مرات خلال عام ١٩٨٦ الى تفاقم ازمة الدين التي تعانيها المكسيك وفنزويلا ونيجيريا وعدد من الدول الاخرى . وقد حققت الولايات المتحدة ، بوصفها اكبر مستورد للنفط في العالم، فوائد كبيرة من هذه السياسة . كما راهنت واشنطن ، في اطار سياستها الكونية الجديدة ، على ان يؤدي انخفاض أسعار النفط الى تفاقم قضية التجارة الخارجية والاقتصاد في الاتحاد السوفيتي . ولكن عندما انخفضت أسعار النفط دون المستوى الملائم لاستخراجه في الولايات المتحدة نفسها ، أخذت الادارة الامريكية تدعو الى «استعادة استقرار

الاسعار» . وهذا ما يفسر جزئيا التغيير المفاجىء الذي حدث في النصف الثاني من العام الماضي في النهج السابق للعربية السعودية ، حين أقدمت على تقليص استخراج النفط فيها بالاتفاق مع بلدان الأوبيك الأخرى ، وعلى رفع الاسعار العالمية في حدود معينة .

وقد نشأ الوضع الجديد في الاقتصاد العالمي أيضا نتيجة ازمة الدولار . فأكد أ . كوروليوف ان النظام النقدي للرأسمالية يثبت الوضع المسيطر للدول الامبريالية الكبرى واحتكاراتها في الاسواق العالمية . والسمة المميزة لهذا النظام ـ التبعية الشديدة للغاية للولايات المتحدة . وقد وسعت واشنطن نطاق استخدام عملتها في صالح سياسة الكونية الجديدة ، ولتسعير سباق التسلح .

ان الانخفاض الكبير في اسعار الدولار في فترة ١٩٨٥ ـ ١٩٨٧ يرتبط بضعف وتائر نمو الاقتصاد الامريكي وسعي واشنطن الى حفز تصدير سلعها والحد من تدفق السلع الأجنبية . وقد ادى ذلك الى احتدام التنافس الامبريالي وانعكس بصورة سلبية حادة على المواقع التنافسية لالمانيا الاتحادية واليابان وعدد من البلدان الأخرى ، مما سبب تردي وضعها الاقتصادي .

كيف اثر تغير سعر الدولار على البلدان النامية ؟ من جهة ، تنمو ديونها الخارجية ببطء أشد على ما يبدو . ولكن ، بما أن أسعار السلع التصديرية لـ «العالم الثالث» تحدد عادة بالدولار ، فان انخفاض سعر العملة الامريكية يقلص القدرة الشرائية الفعالية لصادراتها ، أي يؤدي في نهاية المطاف الى تفاقم ازمة الديون الخارجية .

وكما أشار أ . اوفيدو تنخفض العملات الوطنية في معظم الحالات مع انخفاض الدولار واحيانا بنسبة اكبر . فعلى سبيل المثال ، ارتفع دين كولومبيا الخارجي بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٦ من ٩ الى ١٣ مليار دولار ، أي بنسبة ٤٤ في المئة ، ولكن بما ان قيمة البيسو مقابل الدولار انخفضت بمقدار ٣٠٠ في المئة خلال هذه الفترة ، فان الدين نفسه بالعملة الكولومبية ارتفع بمقدار ٤,٤ مرات .

وتحدث ف . غامبوا ، أ . كريشنان و أ . بيارناسون و خ . لافا عن التناقض الكبير في علاقة الدولار الامريكي بعملات البلدان النامية . وفي الوقت نفسه تجني

الولايات المتحدة بواسطة سياسة العملات الأرباح على حساب الدول الصناعية الأخرى ويشكل التلاعب بالدولار أحد مصادر تمويل سباق التسلحخ وبرنامج «حرب النجوم» . ولكن بقاء مع الوقت الى فقدانها مواقعها المسيطرة في العالم الرأسمالي ، وتفاقم الأزمة المالية للرأسمالية .

الركود والتفاوت الاقتصادي في «العالم الثالث»

تنذر مؤشرات الركود العالمي بتفاقم معضلات البلدان النامية الاقتصادية المعقدة اساسا . وكما اكد خ . م . لاناو ، لا تسبب الازمات الدورية هنا مصاعب خطيرة ذات طابع آني فحسب ، بل وتساهم أيضا في تعميق الأزمة البنيوية .

اتخذ الركود الاقتصادي في الارجنتين طابعا دراميا . فخلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة لم يطرأ أي نمو على حصة الفرد من الناتج الوطني . وفي عام ١٩٨٤ كان مستوى الانتاج الصناعي ادنى بنسبة ١٠ في المئة مما كان عليه قبل عشر سنوات . ويعيش اكثر من ربع الارجنتينيين دون مستوى الفقر الرسمي . ويعاني ١٣ في المئة من السكان النشطاء اقتصاديا البطالة . وفي ظروف الدين الخارجي الهائل تتسرب الأموال الضرورية للتنمية الاقتصادية الوطنية الى المراكز الدولية الكبرى لرأس المال المالي .

ولفت أ . اوفيدو الانتباه الى الفرق العميق في الوضع الاقتصادي لبعض دول امريكا اللاتينية ففي الارجنتين وبوليفيا وفنزويلا هبط الانتاج ، وفي البرازيل تجاوز النمو الوتائر المتوسطة ، اما في البلدان الاخرى فيجري بوتائر معتدلة جدا . فعلى سبيل المثال ، يتسم انتعاش الاقتصاد في كولومبيا بالتناقض . ويعاني قسم من الفروع الازمة . وبلغت البطالة نسبة ١٥ في المئة ، وهي اعلى نسبة في تاريخ البلاد . فقد ادى ارتفاع اسعار البن في عام ١٩٨٦ الى زيادة عائدات التصدير ، ولكن ٤٠ في المئة منها انفق على تسديد الدين الخارجي . ومنذ نهاية ١٩٨٦ عادت اسعار البن الى الانخفاض مجددا ، الأمر الذي شكل ضربة خطيرة للاقتصاد .

وقال ف . غامبوا ان النشاط الاقتصادي في دول امريكا الوسطى يعتمد بصورة

أساسية على القروض والهبات الامريكية ، حيث تستخدم واشنطن بالمقابل أراضي هذه الدول وتطالبها بالمشاركة في المجابهة مع نيكاراغوا . وباستثناء هذا البلد الذي تحمل مصاعبها طابعا مغايرا ، تعترف جميع الحكومات الأخرى في المنطقة صراحة انها عاجزة عن حل القضايا الناجمة عن الأزمة الاقتصادية .

لا تبقى بلدان امريكا اللاتينية دائما مجرد مراقب سلبي للأزمة . وقد توقف أ . ر . غرانجا عند خصائص الوضع في البرازيل . ففي عام ١٩٨٥ سقطت الدكتاتورية في هذا البلد وتعهد الرئيس الجديد بتنفيذ البرنامج الذي حظي بدعم القوى الديمقراطية الواسع . والمحور الاساسي لهذا البرنامج يتمثل في ازالة عواقب الدين الخارجي وخضوع البلاد لمصالح امبريالية الولايات المتحدة . وقد اعلنت حكومة البرازيل مرارا انها لن تسدد الدين الخارجي بمضاعفة مجاعة الشعب وبؤسه وعلى حساب الديمقراطية والتنمية الاقتصادية .

وفي اطار ما يسمى «خطة كروزادو» اقر في بداية العام الماضي مرسوم يمنع المضاربات المصرفية ويحدد اسعارا ثابتة للسلع الاستهلاكية . وساهم وقف التضخم في نهوض الانتاج ، حيث ارتفع اجمالي الناتج الوطني أكثر من ٨ في المئة . بيد أن كبار رجال الاعمال بالاتفاق مع العناصر اليمينية راهنوا على بلبلة الاقتصاد وخلق نقص مصطنع في السلع ، ودعوا البرجوازية الى «العصيان المدني» . وفي الوقت نفسه مارس صندوق النقد الدولي الضغط مطالبا بتسديد الدين الخارجي . وفي نهاية العام اضطر رئيس الجمهورية الى التراجع ووضع «خطة كروزادو - ٢» التي اعادت البلاد الى الوضع السابق . فارتفعت أسعار سلع الاستهلاك الواسع مرتين ، وانخفضت قيمة العملة الوطنية بصورة حادة . لم يرض رفع الاجور بنسبة ٢٠ في المئة لـ «التعويض» عن ذلك ، الحركة العمالية التي أخذت تناضل ضد التضخم ومن أجل مصالح الشعب ورفض تسديد الدين الخارجي البالغ ١١٠ مليارات دولار .

ان القوى الخارجية لا تزال تحدد بصورة أساسية السياسة الاقتصادية للعديد من دول امريكا اللاتينية . فحكومة ايستنسورو في بوليفيا تعبر ، كما قال د . موررايس ، عن مصالح الطغمة المالية التابعة والامبريالية ، التي صاغها صندوق النقد الدولي

٣/٢

والمستشارون الاقتصاديون من الولايات المتحدة . ويتلخص جوهر نهجه في اعادة البناء العامة لاقتصاد البلاد وتكييفه مع الأزمة الرأسمالية والتقسيم الامبريالي للعمل . وينعكس تسديد الدين الخارجي ومحاولات القضاء على قطاع الدولة بصورة سلبية على صناعة التعدين والفروع الأخرى . وتؤدي التسريحات الجماعية وتقليص الأجور الى انخفاض حاد في مستوى حياة الشغيلة المنخفض أساسا .

وأشار أ . كامبوس الى أن صندوق النقد الدولي يقف حارسا لمصالح البنوك الدولية التي تواصل نهب بلداننا . وقد ساهم هذا النشاط في باراغواي في تعميق الأزمة الاقتصادية . ولا تعمل الصناعة الا بنصف طاقتها الانتاجية ، وانخفض الانتاج الزراعي بصورة حادة ، بينما بلغت البطالة ٢٣ في المئة . واصبح الدين الخارجي كبيرا الى حد أن من المستحيل تسديده .

وفي معرض الحديث عن الوضع في شيلي توقف أ . فيسياني عند النتائج الكارثية للسياسة الاقتصادية التي وضعتها الاحتكارات الاجنبية ويطبقها الطاغية بينوشيت باذعان . ان النهب الامبريالي الذي لم يسبق له مثيل وطفيلية الاوليجاركية المحلية المفرطة هما السبب المباشر لاكبر ازمة في تاريخ البلاد . فقد بلغ الدين الخارجي ٢٣ مليار دولار ، وفاقت مدفوعات خدمته في عام ١٩٨٥ عائدات صادرات السلع . وخلال سنوات الدكتاتورية ضخت أموال من شيلي تفوق اجمالي الناتج الداخلي السنوي بـ ١,٩ - ٢,٦ مرة (وفقا لمصادر مختلفة) . وفي غضون السنوات الاربع الاخيرة جرى تحويل ٥ مليارات دولار للبنوك الاجنبية الدائنة . ويضع رأس المال فوق القومي يده حتى على اموال الضمان الاجتماعي ، ولا يقوم تقريبا بأية توظيفات تتسم ولو بقيمة ضئيلة للاقتصاد .

وانعكست الازمة بصورة خطيرة على البلدان الافريقية . فكما اشار س . ب . غي ادى انخفاض اسعار الخامات والنفط الى تفاقم وضع جميع الدول الواقعة جنوبي الصحراء . وهي بصورة أساسية بلدان زراعية ، بينما انخفضت الاسعار العالمية للخامات الزراعية مع هبوط قيمة الدولار ، علما بان الدين الخارجي لم ينخفض . وقد كان لانخفاض الاسعار العالمية نتيجة سلبية مزدوجة بالنسبة لدول مثل نيجيريا . فخلال الطفرة النفطية في السبعينات

وقعت في تبعية شديدة لاستيراد السلع الزراعية ، اما الان فان نيجيريا تواجه صعوبات اكبر في تأمين حاجاتها من المواد الغذائية نتيجة انخفاض عائدات النفط . ويشير هذا المثل الى قضية بالغة الأهمية بالنسبة لافريقيا ، هي اقتران الدين الخارجي الكبير باشتداد المجاعة .

وتحدث علي احمد الطيب عن تأثير الامبريالية السلبي في اقتصاد السودان . فتطوره الراهن يرتبط ارتباطا مباشرا بشروط القرض المقدم من صندوق النقد الدولي الذي طالب ، على وجه التحديد ، بالتخلي ، في غضون عامين ، عن بناء المشاريع الكبيرة ، والتركيز في القطاع الزراعي على الزراعات التصديرية ، وتقليص الدعم لعدد من السلع الاستهلاكية ، وتسليم المؤسسات المؤممة للقطاع الخاص . واشترط الصندوق أيضا ان يخصص ٤٦ في المئة من عائدات التصدير لتسديد الدين الخارجي وأدت هذه السياسة الى تردي الوضع الاقتصادي بصورة حادة .

وأشار مصطفى عزاوي الى أن نهج «اقتصاد التقشف» الذي فرضه صندوق النقد الدولي والبنك الدولي على المغرب يتحول أيضا الى تقلص نفقات الميزانية وتقلص الدعم للسلع الاستهلاكية ، وتجميد للاجور ، وانخفاض القدرة الشرائية للجماهير الشعبية ، وتقليص للوظيفات الانتاجية . ويسرح العديد من المؤسسات عماله وينتقل الى التشغيل الجزئي . وتزداد الضرائب على الأجور والضرائب غير المباشرة . وارتفع بصورة حادة العجز في التجارة الخارجية .

وقال أ . كريشنان ، اشتد في الاونة الاخيرة تغلغل الشركات فوق القومية في اقتصاد الهند ايضا. وأقدمت الحكومة على اشاعة الليبرالية في حدود معينة في الاستيراد . فتم توقيع حوالي ٢٠٠٠ اتفاقية مع الشركات فوق القومية الامريكية والبريطانية والالمانية الغربية والايطالية وغيرها . ويقترن هذا كله بالهجمات على قطاع الدولة في الاقتصاد ومحاولات تفكيكه .

وهكذا ، اشتد سعي الامبريالية في ظروف الازمة الى حل تناقضاتها الداخلية على حساب بلدان «العالم الثالث» . وتشكل محاولات اركاع هذه الدول اقتصاديا ، جزءا لا يتجزأ من الاستراتيجية الشاملة للاستعمار الجديد .

نضال الشيوعيين

اوليت المهام الملحة لنضال الشيوعيين من أجل تذليل الازمة الاقتصادية وعواقبها اهتماما كبيرا في الندوة . واكد المتحدثون ان المخرج من الازمة مستحيل بدون النضال اليومي من أجل المطالب الاقتصادية الملحة وبدون تصعيد المقاومة ضد هجمات القوى الرجعية والكفاح العنيد من أجل الاصلاحات والتحولات الجذرية .

وتشكل قضية صيانة التشغيل وزيادته قضية رئيسية . فقد تصاعد النضال من اجل اقرار تدابير تشريعية دفاعا عن الشغيلة ضد التسريح والفصل التعسفي ، ويزداد باطراد اقدام العمال على احتلال المؤسسات المعرضة للاغلاق ، وفي البلدان الصناعية قويت المطالبة بتقليص اسبوع العمل مع الحفاظ على الأجور ، وتوسيع نفقات الدولة على الحاجات الاجتماعية والتعليم الشعبي والرعاية الطبية واعادة بناء الهياكل الارتكازية ، وايجاد فرص عمل جديدة في فروع الاقتصاد السلمية . وتقترن التحركات دعما لهذه المطالب بالاعمال الرامية الى وضع حد للتمييز والاستغلال في العلاقات الاقتصادية الدولية ، والحد من نشاط الشركات فوق القومية ، وتوطيد قضية السلام ، ووقف سباق التسلح . وقد كتب لينين :«ان كل نضال اقتصادي يتحول بالضرورة الى نضال سياسي» وعلى الشيوعيين ان «يربطوا بصورة لا تنفصم هذا النضال وذاك بنضال البروليتاريا الطبقي الواحد»[1] .

وتحدث ف . بيرلو عن مقاومة الطبقة العاملة في الولايات المتحدة ، المتنامية لهجوم الاحتكارات . في الاونة الاخيرة حدثت اضرابات كبيرة . وقد حقق عمال شبكة الهاتف انتصارا جزئيا بعد نضال طويل . وحصل عمال الفولاذ ، الذين سرحتهم شركة «يو ـ اس ـ اكس» بصورة تعسفية ، على مساعدة كبرى من النقابات الاخرى في البلاد ، وكذلك من عمال الميتالورجيا في المانيا الاتحادية والمانيا الديمقراطية . وقد استمر النضال ستة اشهر ـ من آب (اغسطس) ١٩٨٦ حتى مطلع شباط (فبراير) ١٩٨٧ . وشاركت المنظمات المحلية للحزب الشيوعي في تنظيم الاعتصامات ولجان

---

(١) ـ لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤ ، ص ١٨٦ (باللغة الروسية) .

العاطلين عن العمل ، وفي حملة النقابات لجمع الاموال والمواد الغذائية للعمال ، واطلعتهم على الوضع من خلال صحافتها ، وقامت بعمل توضيحي بين السكان في المناطق التي تقع فيها المؤسسات المغلقة . وانتزع عمال الفولاذ بعض التنازلات في مسائل التقاعد والضمان وحصلوا موافقة الشركة بدفع مخصصات للمسرحين . وبالرغم من انهم اضطروا للقبول بتقليص الأجور ، الا انهم تمكنوا من الحفاظ ، الى حين ، على القسم الاكبر من فرص العمل التي حاولت «يو - اس - اكس» الغاءها .

ان انجازات من هذا النوع ، وهي ليست قليلة في السنوات الاخيرة ، لا تخفف الا في حدود معينة من الضربات التي توجهها الازمة للشغيلة . ولكن في مجرى هذا النضال تتوطد روحهم الكفاحية وعزمهم على مقاومة هجمات رأس المال . وتنعكس التغييرات في أمزجة الطبقة العاملة الامريكية ايضا في ان «الابواب تنفتح» ، على حد تعبير غاس هول ، لمشاركة الشيوعيين الاوسع في نضال النقابات اليومي ، سواء على الصعيد القاعدي أو القيادي . ويساهم ذلك في تحول الطبقة العاملة نحو الاعمال النشيطة في الميدانين الاقتصادي والسياسي . فعلى سبيل المثال ، اتخذ اتحاد العمل الامريكي - مؤتمر المنظمات الصناعية قرارا بانشاء لجنة دائمة لدعم المضربين وللتضامن العمالي . ومن الهام بصورة خاصة ان العمال اخذوا يدركون الصلة بين هجمات الشركات فوق القومية والسياسة العدوانية للامبريالية الامريكية . ففي كونفرنس قسم النقابات الصناعية في اتحاد العمل الامريكي - مؤتمر المنظمات الصناعية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٦ اتخذ قرار يدعو الى نزع السلاح ويعارض الميزانية العسكرية وبرنامج «حرب النجوم» . وتلعب النقابات اليوم دورا اكثر استقلالية في الحملات السياسية .

وقال غ . غيرزيبين ان المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الالماني اقر شعار «العمل للجميع» . وهو يقترح تخصيص ١٠٠ مليار مارك خلال العامين القادمين لتنفيذ برنامج حكومي لتأمين التشغيل ، وتطبيق اسبوع عمل من ٣٥ ساعة للجميع مع الحفاظ على أجور العمل كاملة وعلى عدد العاملين ، ورفع القدرة الشرائية للجماهير وتعزيز الطلب في السوق الداخلية بواسطة رفع الاجور الفعلية ومرتبات التقاعد والاعانات

الاجتماعية ، واقرار قانون يمنع التسريحات الجماعية ونقل المؤسسات الى الخارج . ويؤكد ضرورة تقليص الانتاج العسكري وتحويل انتاج الاسلحة الى انتاج السلع المدنية المفيدة اجتماعيا .

وتنظم بمشاركة الشيوعيين الالمان النشيطة اعمال احتجاج ونشاطات تضامن جماهيرية ، موجهة بالدرجة الاولى ضد اغلاق المؤسسات ومن أجل الحفاظ على فرص العمل وايجاد فرص عمل جديدة . وهكذا ، فقد نظمت نقابة عمال المعادن في عام ١٩٨٤ اضرابا استمر ٤٥ يوما من أجل الانتقال الى اسبوع عمل من ٣٥ ساعة . وبفضل هذا النضال تم التوصل الى تقليص اسبوع العمل الى ٣٨,٥ ساعة والحفاظ على حوالي ١٠٠ الف فرصة عمل . وهاكم مثالا اخر : ساهمت تحركات العمال بدعم من الفئات الوسطى في الحيلولة دون اغلاق مصنع اتحاد «اربيد - سارشتال» الاحتكاري . وفي كانون الثاني (يناير) واذار (مارس) من العام الحالي جرت مظاهرات جماهيرية في جميع المدن التي توجد فيها مؤسسات ميتالورجية . وقد شارك فيها في هاتينغين واوبيرهاوزن اكثر من ٦٥ ألف شخص . واقفل الكثير من التجار متاجرهم ، تضامنا معهم ، وقرعت اجراس الكنائس وامتنع المدرسون عن التدريس . ويشارك جميع الشيوعيين عمليا في هذه التظاهرات ، وكاعضاء في مجالس المصانع واشخاص مكلفين يدافعون عن مصالح العمال ويحضرون الملصقات والجرائد في المصانع ويساعدون في تقديم العون المادي للمتظاهرين والمضربين ويساهمون في كل ما يسميه الحزب «الهياكل الارتكازية للنضال التضامني» .

وقال أ . بيارناسون ان الشيوعيين الكنديين يقترحون زيادة التشغيل بواسطة تنويع الصناعة وتأميم قطاعات الاقتصاد الاساسية ، وتحديدا فروع الشركات الامريكية ، وفرض الرقابة الديمقراطية على موارد الطاقة في البلاد . ونرى ان من الضروري ان تقوم الدولة بتخطيط التوظيفات من اجل تذليل التخلف التقني للصناعة الوطنية .

ويرى أ . سومرسيت انه ينبغي مقاربة النضال ضد الشركات فوق القومية على أساس طويل الأمد ، ويقصد بذلك بالدرجة الاولى التحركات المشتركة للنقابات

الوطنية والتعاون بينها على مستوى مؤسسات الشركة فوق القومية التي تعمل في مختلف البلدان . وبما ان الاهتمام بحاجات الذين يفقدون العمل غير كاف في اطار النقابات ، فان الحياة ، كما يبدو ، تفرض انشاء اتحادات خاصة للعاطلين عن العمل . وقد نشأت بدعم الشيوعيين في بلفاست وعدد من المدن الاخرى مراكز للبطالة تقدم المساعدة في الحصول على اعانات وفي تدريب الناس على مهن جديدة ، وتقوم بعمل توضيحي وغيره في المناطق السكنية التي تكون البطالة فيها مرتفعة بصورة خاصة وتشارك في التظاهرات العلنية المطالبة بزيادة التشغيل . ويساهم الشيوعيون في تنظيم اعمال التضامن المشتركة بين العاطلين عن العمل والنقابات ، كما حصل اثناء الاضراب الاخير الذي نظمته نقابات عمال المواصلات .

وقال أ . كريشنان ان النضال الفعال ضد الشركات فوق القومية في ظروف الهند يعني اجراء تغييرات جدية في السياسة الاقتصادية . ومن الضروري بالدرجة الاولى التصدي للهجوم الشامل على قطاع الدولة ، ولاشاعة الليبرالية في التجارة الخارجية ، ولنهج تفضيل استخدام التكنولوجيا الاجنبية . ولتحقيق ذلك يدعو الشيوعيون الهنود الى انشاء تحالف من جميع القوى الاجتماعية القادرةعلى توجيه السياسة الاقتصادية نحو توطيد استقلال البلاد . ويجري الحديث عن النضال المشترك مع النقابات ، بما فيها تلك التي يقودها الحزب الحاكم ، ومع العلماء وموظفي الدولة الوطنيين وقسم من البرجوازية ، ولا سيما الصغيرة والمتوسطة ، التي تتعرض للخسائر نتيجة اشاعة الليبرالية في الاستيراد وتواجه خطر الافلاس والخراب .

ويعتبر خ . لاناو ان الازمة في بلدان امريكا اللاتينية لا تقتصر على قضية التكنولوجيا والنقص في المؤسسات الحديثة . ان التخلف في تطور القوى المنتجة ليس سببا ، بل أحد مظاهر الازمة . وثمة طريق واحد لتذليله هو اجراء تحولات عميقة في ميدان علاقات الانتاج ووضع حد لسيطرة الاحتكارات والاوليجاركية اللاتيفوندية على الاقتصاد الوطني والسياسة . وهذا هو موقف الشيوعيين . واشار أ . اوفيدو الى الاتجاه نحو تنسيق اكبر في اطار امريكا اللاتينية في النضال من أجل تسوية عادلة للدين الخارجي وحل قضية اسواق واسعار منتجات التصدير وغيرها من الجوانب الملموسة

للنظام الاقتصادي الدولي الجديد . وذلك ليس على مستوى الحركة العمالية فحسب ، ان الحديث يجري عن ضرورة تعاون الشيوعيين مع الأحزاب السياسة المختلفة ، وانشاء التحالفات والقيام باعمال مشتركة مع القوى المناضلة من أجل المصالح الوطنية . وتبرز امكانية صياغة موقف وطني عام حول المسائل الاقتصادية الملحة وتطوير التعاون على مستوى الدول . وقد جرى مؤخرا في نيكاراغوا اجتماع لبلدان امريكا اللاتينية المصدرة للبن . والمثال الاخر هو لقاء بلدان السوق المشتركة الاقليمية لمناقشة قضية الدين الخارجي . ولقيت اعمال البرازيل التي رفضت دفع الفوائد للدائنين الخاصين صدى واسعا . وقد حذت حذو البرازيل حتى حكومة الاكوادور المعروفة بعلاقاتها الوثيقة مع الولايات المتحدة .

وكرس ف . غازداغ مداخلته لمواقف الاشتراكية الديمقراطية . فاشار الى ان الازمة البنيوية المستمرة منذ زمن طويل قوضت أسس السياسة الاقتصادية السابقة للاشتراكية الديمقراطية ، المستندة بدرجة كبيرة على وصفات الكنزية و «دولة الرفاهية العامة» . ومن هنا تأتي اعادة النظر بالاستراتيجية والبحث عن بديل اصلاحي جديد من اعادة البناء البنيوية والازمة . وفي هذا السياق ينبغي أن نتناول تخلي عدد من الاحزاب الاشتراكية عن مطلب التشغيل الكامل والدعوات الى تطوير مايسمى الديمقراطية الصناعية وانشاء «شراكة جديدة» بين الحركة العمالية ورأس المال .

وجرت تطورات واسعة في ميدان السياسة الدولية ، حيث ابتعدت غالبية الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية عن مواقع «الحرب الباردة» وتقدمت باتجاه الاعتراف بضرورة رفض سباق التسلح . وقد طرح «بيان ليما» للاممية الاشتراكية برنامج انعاش الاقتصاد العالمي بتخصيص ١٠٠ مليار دولار لمساعدة النمو الاقتصادي في البلدان النامية واصلاح النظام المالي الدولي ووضع قيود على عسف الشركات فوق القومية . وفي الوقت نفسه تبحث الاشتراكية الديمقراطية عن أساليب الدفاع عن مصالح رأس المال الاوربي الغربي في البلدان النامية ودعم مشاركة دولها في حلف شمالي الاطلسي .

وقال أ . اوفيدو ، بالرغم من هذا كله كثيرا ما تختلف ممارسة الاحزاب

الاشتراكية عن البيانات البرنامجية . ولفت س . ب . غي الانتباه الى ان الاشتراكيين الديمقراطيين يستغلون أزمة «دولة الرفاه العام» كذريعة للتخلي عن بعض وظائف الدولة في الميدان الاجتماعي .

وأشار ب . راميلسون الى الخطر المرتبط بانتقال الدوائر اليمينية الى الهجوم الواسع على قطاع الدولة في اقتصاد بريطانيا . واشار كذلك الى أن حزب العمال أخذ يغير مواقفه متخليا عمليا عن مطلب التأميم ، ويميل ، أكثر فأكثر ، الى الشراكة بين العمال والصناعة الخاصة والشركات فوق القومية . وينبغي الا نقلل من التأثير الايديولوجي لتشهير المحافظين الواعي بالملكية الاجتماعية ، واطرائهم لما يسمى بالرأسمالية الشعبية .

وعموما ، قال المشاركون في الندوة ، ان عمليات التأزم في اقتصاد الرأسمالية يشكل عاملا يساهم في نمو المعارضة الواسعة للحكومات المحافظة والرجعية . ولكن ينبغي أن يؤخذ في الحسبان ان الازمة يمكن أن تساهم ايضا في تردي الوضع السياسي وزيادة نشاط الاوساط العسكرية والرجعية الأخرى وهجومها المطرد على حقوق الشغيلة ، وتسعير سباق التسلح وتنظيم المغامرات العسكرية . وهي تؤدي الى تعمق التناقضات سواء داخل النظام الرأسمالي او على الصعيد العالمي ، وتتطلب يقظة زائدة من جانب قوى السلام والديمقراطية والاشتراكية .

●

اراء ومناقشات

حوار مستمر
بين الماركسيين والمؤمنين

نظمت لجنة المجلة[1] في قضايا بلدان امريكا اللاتينية وحوض الكاريبي « طاولة مستديرة » عالمية في براغ حول موضوع « الحوار بين الشيوعيين والمسيحيين في ظل الأزمة الحالية في المنطقة »، ساهم فيها اختصاصيون بارزون في مسائل الدين والكنسية . وعرضت للبحث فيها تقارير خ . روساليس ، المرشح لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الارجنتيني وخ. ف. كارنيادو ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي ، و او. ميلياس (غيابيا)، عضو اللجنة السياسية وسكرتاريا اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الشيلي ، والبروفيسور ن. أ. كوفالسكي ، الدكتور في علوم التاريخ (الاتحاد السوفييتي).

ساهم في المناقشة ممثلو الاحزاب الشقيقة في المجلة : خوسيه ماريا لانو ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الارجنتيني ودافيد موررايس ، عضو اللجنة السياسية للجنة المركزية للحزب الشيوعي البوليفي ، وأ. فرانجا (غيابيا) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البرازيلي ، خ . كاريرا (غيابيا)، عضو اللجنة التنفيذية للجنة المركزية لحزب الشعب التقدمي في غويانا ، ورانلدولفو بانيغاس ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في هندوراس ، والفارو افييدو ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكولومبي ، وفرانسيسكو غامبوا ، عضو اللجنة السياسية للجنة المركزية لحزب طليعة الشعب في كوستاريكا ، وانطونيو دياس ، ممثل الحزب الشيوعي الكوبي ، وفيليكس ديكسون ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في باراغوي ، وسيسار خيمينيس ، ممثل الحزب الشيوعي في بيرو ، وخايمة باريوس ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاكوادور ، والين توماس عضو المكتب السياسي للجنة المركزية لحزب العمل الجامايكي ، والدكتور خ. غ. شتيلر (المانيا الديمقراطية)، والبروفيسور ستيبان مامونتوف ، من هيئة العاملين في المجلة (الاتحاد السوفييتي).

ونقدم أدناه عرضا لمواد المباحثات أعده ألفارو أوفييدو الذي ساهم في المناقشة .
ومن اجل مزيد من التفاصيل حول الموضوع تعتزم المجلة ان تنشر ، فيما بعد سلسلة من المقالات بالاستناد الى التقارير التي القيت في « الطاولة المستديرة ».

---

(١) « قضايا السلم والاشتراكية » ٣ / ١٩٨٧

تناول آني أم خط استراتيجي ؟

لنلاحظ فورا ان جميع الخطباء ، اذ قصدوا ، اول ما قصدوا ، الاوضاع الخاصة في قارة امريكا اللاتينية ، لم يتحدثوا عن عقلانية الحوار والتعاون مع المسيحيين فحسب ، بل وكذلك عن ضرورة تعميقه والتوصل الى مستويات جديدة من التفاهم ، آخذين في الاعتبار التغيرات الحاصلة في العالم . ذلك أن العصر ذاته يتطلب بحثا مثابرا عن طرق تبادل المعلومات والاراء في قضية على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة للممارسة ا لثورية .

ليست قضية العلاقات بين الماركسيين والمؤمنين بجديدة على الشيوعيين ، فقد عرض كلاسيكيو الماركسية اللينينية مبادىء عامة لحلها . وفيما بعد ، اكتسبت الحركة الشيوعية العالمية خبرة اضافية مستمدة ، مثلا ، من تشكيل جبهات موحدة في الثلاثينات ضد الفاشية وخطر الحرب . وبعد ان اعلن موريس توريز سياسة « اليد الممدودة »[1]، كانت وثائق ذلك العصر تثير دوما مسألة توسيع التعاون مع جمعيات المؤمنين .

وفي غضون الحرب العالمية الثانية ، كانت الاحزاب الشيوعية المقاتلة في ظروف السرية في البلدان التي احتلها الهتلريون توجه اعضاءها الى وحدة الاعمال مع جميع القوى المعادية للفاشية ، وبضمنها المسيحيون الذين انضموا الى حركة المقاومة . ومن المعروف ايضا أن الكنيسة الارثوذكسية الروسية تعاونت في سنوات الحرب الوطنية العظمى (أعوام (١٩٤١ ـ ١٩٤٥) مع الدولة السوفييتية والشعب السوفييتي الذي تحمل الاعباء الرئيسية للمعركة ضد النازيين .

وبعد الانتصار على الفاشية ، دعت جميع الاحزاب الشقيقة تقريبا في البلدان التي تنتشر فيها الكاثوليكية الى تنسيق الاعمال مع المسيحيين والمؤمنين عموما . وصيغت اسس مثل هذا الموقف في وثائق جماعية اقرتها اجتماعات الاحزاب الشيوعية والعمالية ، منها ميثاق السلام (عام ١٩٥٧) الذي دعا الناس ذوي الارادة الطيبة الى ان يساهموا ، بغض النظر عن معتقداتهم السياسية أو الدينية ، في درء حرب جديدة . واشار بيان المشاركين في لقاء عام ١٩٦٠ الى ان أية فوارق ذات طابع سياسي أو ديني أو اجتماعي ينبغي الا تكون عائقا في طريق وحدة الشغيلة[2].

أما الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية ، الذي انعقد في عام ١٩٦٩ ، فقد كان دقيقا في هذا الصدد ، اذ اشار الى انه في ظروف استفحال التناقضات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، تفتحت في العديد من البلدان ، آفاق جديدة لتحالفات عريضة مع جماهير المؤمنين . وجاء في بيان الاجتماع ان الشيوعيين على يقين من أن جماهير المؤمنين تتحول على طريق الاتصالات الوثيقة والنضال المشترك الى قوة نشيطة تعمل على تحقيق تغيرات اجتماعية عميقة[٣].

كما ان اجتماع الاحزاب الشيوعية في بلدان امريكا اللاتينية وحوض الكاريبي (عام ١٩٧٥) اكد هذا الاستنتاج : « إن المسيحيين ، وخاصة الكاثوليكيين ، والقساوسة العاديين وحتى بعض ممثلي المقامات الكنسية العليا يشاركون بهمة متعاظمة في النضال الشعبي من اجل التقدم الوطني والاجتماعي . وتلهمهم فكرة كنيسة تقف الى جانب الشعب . . . وترفض المساومة مع الرجعية والامبريالية . ويناهض ممثلو الكنيسة البارزون الارهاب الفاشي ويدافعون عن الحقوق الديمقراطية والتقدم الاجتماعي »[٤].

لقد ادخرت خبرة غنية نسبيا للعلاقة ، بل وفي احيان كثيرة للتعاون بين الشيوعيين والاوساط اليسارية التجديدية من الكنيسة الكاثوليكية في امريكا اللاتينية - الشغيلة المؤمنين والمراتب الدنيا من الاكليروس ، بل وحتى بعض ممثلي الاسقفية . وتمكن هذه الخبرة من الاستنتاج القائل بأن الحديث لايدور البتة عن السياسة الآنية التي تمليها الاعتبارات التكتيكية ، بل عن النهج الاستراتيجي المديد في النضال من اجل السلام والتقدم الاجتماعي والديمقراطية والاستقلال الوطني ، الامر الذي اكده فيديل كاسترو منذ بداية السبعينات أكثر من مرة[٥]. ويرى عدد من الخطباء أن الاعمال المشتركة للماركسيين والمسيحيين قد تصبح عاملا من عوامل بناء الاشتراكية في القارة .

القضايا الجديدة ، الأسئلة الجديدة

ثمة جوانب جديدة في تطور العالم المعاصر ، وخاصة امريكا اللاتينية ، ذات علاقة بالتناقضات لا في الكنيسة نفسها فحسب ، بل وفي اطار الرأسمالية عموما . وهذه الجوانب ، كما قال الخطباء في « الطاولة المستديرة »، تحدد بصورة جديدة مهام الاحزاب الشيوعية في سياق النضال من اجل اجتذاب الشغيلة ، وغالبيتهم من المؤمنين ، الى

العملية الثورية . ذلك انه يستحيل ان تتم تحولات اجتماعية عميقة بدون مساهمتهم النشيطة .

يزداد عدد الناس في امريكا اللاتينية ، الذين يتوصلون ، بغض النظر عن آرائهم الدينية ، الى الاستنتاج القائل بضرورة النضال ضد النظام الذي ينزل الضربات بالشغيلة دون ان يفرق بين من يؤمنون بالله ومن لايؤمنون . وتصطدم سياسة الاتحادات الاحتكارية فوق القومية وسائر الاحتكارات ، التي تلقي أعباء الأزمة على كاهل الشغيلة ، بمقاومة متزايدة من الشعوب التي ترفض التسليم بالتحكم الامبريالي . ومساهمة المؤمني في هذا النضال تفوق التقدير .

هذا وان خطر هلاك البشرية في الكارثة النووية وادراك الصلة بين سباق التسلح ونهب البلدان «النامية» يساعدان على تنوّر الجميع . وتتضح عبثية النفقات العسكرية بجلاء حين نرى سكان المناطق الشاسعة من الكوكب يعانون وطأة الجوع والأوبئة والظروف المعيشية غير الانسانية .

ولقد أدى الواقع المأساوي الى تغيرات عميقة في الممارسة الدينية للجماهير المسيحية ومنظماتها في امريكا اللاتينية ، والكنيسة الكاثوليكية قبل غيرها . واذ راحت تتكيف مع متطلبات العصر لم يكن لها الا ان تولد تيارات تجديدية برزت في مؤتمري مجلس الاساقفة الامريكي اللاتيني (« سيلام ») في ميديليين (عام ١٩٦٨) وبويبلو (عام ١٩٧٩) وتشكلت نظريا في اطار لاهوت التحرير مع « اختياره الغالب لمصلحة الفقراء » وتحديه لأوساط الكنيسة المحافظة[٦]. وإن الاختيار لصالح الفقراء ، الذي اعلنه انصار التجديد لا يتعارض ، حسب رأي المنظرين الرئيسيين للاهوت التحرير ، مع المبدأ المسيحي العام القائل بحب ذوي القربى دون أية تفرقة اجتماعية ، ولكنهم يشرحون في الوقت نفسه أن « حب المظلومين » تعبّر عنه المساهمة في نضالهم التحرري ، بيد أن « حب الظالمين » يعبر عنه تغيير العالم على نحو لن يستطيعوا معه استغلال ذوي القربى ، وبالتالي ، يستطيعون ان يكتسبوا من جديد « صورة انسانية ». ويثير هذا الطرح للمسألة غيظ الرجعية الاكليركية وادارة واشنطن اللتين تصفانه بصفة « التخريب » لاغير . وفي القارة مناطق يعتبر فيها حتى الانجيل من أدب العصيان ، ويتهدد الاعدام رميا بالرصاص من عثر عليه عندهم .

وإذا اصبح مثل هذا الكتاب مؤلفا انفجاريا ، فلم يتم ذلك بذنب الماركسية البتة . ذلك ان قراءته الجديدة في الظروف القائمة ، ظروف الفقر والاستغلال والظلم ، إذ تعبر عن أماني المعدمين وآمالهم في حياة أفضل ، تثير احتجاجا على المضطهدين (بالكسر)، وإن كان هذا الاحتجاج ، حسب تعبير لينين ، يبرز « تحت غطاء ديني »[٧].

من المعروف ان المسيحية نشأت في امبراطورية روما كدين للعبيد والمظلومين تحت شعار المساواة للجميع . ولم يعتبر الارقاء في ذلك الحين الا « حيوانات ناطقة »، وكانوا يستطيعون الاعراب عن طموحهم الى العدالة في شكل واحد فقط كان في متناولهم هو الشكل الديني . وفيما بعد اسخدمت الطبقات السائدة دين الناس البسطاء من اجل تثبيت سلطتها .

اما الجديد ، فيتلخص في ان هذا التوق الى العدالة والى حياة اكثر كرامة اصبح في ايامنا هذه قابلا للتحقيق . وإن اللقاء خلال قرون بين مثل المسيحية المبكرة وأهداف الحركة الثورية المعللة بالبراهين العلمية يفتح الافاق امام التغيرات الاجتماعية وبناء مجتمع اكثر انسانية . ويشير فيديل كاسترو ، وهعو يعتمد على تجربة جزيرة الحرية ، الى ان مجتمع العدالة لم يعد طوباويا في امريكا اللاتينية وانه ، لو حاولت الكنيسة انشاء دولة مبنية على المثل المسيحية العليا لكانت تشبه كوبا في الكثير من النواحي[٨].

إن الوقائع الجديدة

وهي نتاج عملية متناقضة ليست دائما تقدمية البتة - تطرح عددا من المتطلبات امام الشيوعيين . ولاحظ المشاركون في اللقاء اننا لانستطيع ان نقف موقف اللامبالاة من حركة جماهيرية عريضة جدا ، وإن كانت غير متجانسة ومزدوجة في الكثير من النواحي ، هذه الحركة التي تتفتح أمامها آفاق رحبة للتطور والتي تبحث عن مكانة خاصة بها في المعارك الثورية المعاصرة . ولايجوز معالجة هذه القضية البالغة الاهمية بالنسبة للثورة في امريكا اللاتينية والبقاء في أسر مواقف الماضي ورسومه البيانية . والماركسية المبدعة ، الغريبة عن أية عقيدة جامدة وكل ركود فكري تلزم الشيوعيين بأن يكونوا في مستوى النزعات العصرية في العملية الثورية .

ويتوقف اتجاه سير الجماهير المسيحية على الاجوبة التي سنعطيها . يطم المؤمنون

عموما الى التحرر ، ولكن آمالهم قد تكون عديمة الجدوى ، إذا لم نناضل معا من أجل تصفية استغلال الانسان للانسان . وبما ان الفراغ الايديولوجي يستحيل وجوده ، فان الايديولوجيات غير الماركسية والمعادية للتحولات الحقيقية ستمارس تأثيرها في الجماهير وستضللها او ستحد من نشاطاتها ، اذا لم تتغلب الافكار الماركسية الثورية .

اعرب المشاركون في « الطاولة المستديرة » عن قلقهم لتأخر المعنيين بالفكر الماركسي اللينيني في دراسة القضايا المطروحة للنظر وفي تنسيق الخبرات المدخرة وجوانبها الجديدة وكذلك في استخدام الاستنتاجات الحاصلة استخداما عمليا . وهذا نقص جدي ، وتلافيه ليس في مصلحة الاحزاب الشقيقة في امريكا اللاتينتية فحسب ، بل وكذلك في مصلحة الحركة الشيوعية جمعاء . وأشير في اللقاء الى ان الماركسيين في امريكا اللاتينية يمارسون عملهم آخذين في الاعتبار وقائع الحركة المسيحية وسياستها . ويقوم هذا العمل على معايير تتعدى الحدود الوطنية ، سواء أكان الحديث يدور عن الاكليروسيين الرجعيين أم الاصلاحيين المعتدلين ام انصار التجديد . ولكن ينبغي تكثيف اعمال البحث العلمي في هذا المجال من اجل تحديد المواضيع المستقبلية ومن اجل تنشيط تبادل الآراء والمعلومات ، الذي بدأ منذ فترة بين الشيوعيين ، وطبعا من أجل خطوات ملموسة يمكن ان تساعد المسيحيين والماركسيين في بلدان القارة على حل القضايا المشتركة بتضافر الجهود . وإن ايجاد لغة مشتركة مع المؤمنين هو المهمة التي يمكن لتنفيذها ان يمارس تأثيرا عظيما في الجماهير الشعبية .

التعاون مع المسيحيين

اشار الخطباء بالاجماع الى ضرورة تطوير العلاقات مع الاوساط التجديدية في المسيحية بروح الاخلاص والاحترام المتبادل . وان النظرة المادية الى العالم هي على طرفي نقيض ، طبعا ، مع النظرة الدينية الى العالم . واكدت الممارسة التاريخية صحة الماركسية اللينينية . ولكه من اجل العمل المشترك يجب الا يطالب احد اطلاقا بأن يتخلى عن معتقداته الفلسفية أو الدينية . ونحن ، اذ نؤيد لاهوت التحرير ، لانتحول ابدا الى دعاة له . والحال انالفهم الصحيح لهذا التيار يساعد على فضح القوى الكنسية ، اليمينية والرجعية عموما التي تسعى الى استخدام الشعور الديني من اجل تبرير السلبية

والرضوخ في ظروف الاستغلال والظلم والتعسف .

واكد المشاركون في المناقشة ان الشيوعيين مدعوون الى الادلاء برأيهم الراسخ في أن كل اشكال « الديسارولية »[٩] في امريكا اللاتينية منيت بالفشل ، وانه موضوعيا لايبقى ثمة من وجهة النظر التاريخية ، مخرج آخر من الازمة سوى التغيرات الثورية . ويجب العمل بين المؤمنين دون فرض آرائنا عليهم ودون أن ننسى موضوعة لينين القائلة بأنه « لايمكن تنوير البروليتاريا بأية كتب وبأية مواعظ مهما كانت ، اذا لم ينورها نضالها الخاص ضد قوى الرأسمالية الظلامية »[١٠] . بيد أن تنوير الشغيلة سياسيا وتقاربهم مع الماركسية يتعثران ، من جهة ، بسبب عقم الفكر الجامد الذي يفرق بيننا وبين المسيحيين وكذلك التنازلات في المسائل المبدئية ، من جهة أخرى .

ان حجر الزاوية في العلاقات مع المؤمنين هو موضوعة مؤسسي الماركسية اللينينية المعروفة التالية : يجب أن تخضع الدعاية الالحادية للمهمة الرئيسية التي هي تشديد نضال المستغلين (بالفتح) الطبقي ضد المستغلين (بالكسر). وهذا الطرح للمسألة لاتمليه اعتبارات التكتيك أو المنفعة المؤقتة ، وإنما تمليه متطلبات الديالكتيك المادي : تركيز الجهود في تحويل تلك الظروف الاجتماعية التي أصبحت اليوم البيئة المغذية الرئيسية للدين .

ولهذا السبب بالذات كان لينين يدعو الى جذب العمال المؤمنين الى الحزب مؤكدا « إننا ، ولاشك ، ضد أية إهانة ، مهما صغرت ، لاعتقاداتهم الدينية » أو « إننا نجذبهم للتثقيف بروح برنامجنا »[١١]. ويلاحظ فيديل كاسترو ، بهذه المناسبة ، انه من الناحية السياسية الصرف يمكن للمرء أن يكون ماركسيا دون ان يتخلى عن مسيحيته ، وأن يعمل مع الماركسيين الشيوعيين على تحويل العالم »[١٢].

يعتبر الحوار مع المسيحيين شكلا من اشكال الصراع الايديولوجي البعيد عن النزعة التوفيقية . ولكن جدالنا مع المؤمنين لايجوز ، كما اشير في اثناء المناقشة ، ان يفزعهم ، متحولا الى نزاع تناحري في مجرى النضال المشترك ، بل يجب أن يدل على ان الماركسية اللينينية تعاليم تتضمن كل الاسس العلمية العميقة ، وقد اكدت صحتها الممارسة الاجتماعية ، وهي تستجيب لمصالح البروليتاريا وجميع المظلومين .

ولاحظ المشاركون في اللقاء ان عددا من المسائل الجديدة يظهر في هذا المجال .

فبعض اعضاء الحزب ، اذ يقترب من الكاثوليكيين ، قد يبتعد احيانا حتى عن الاسس الفلسفية للنظرة الماركسية الى العالم . ونقول لهؤلاء الرفاق : يجب اعطاء الاولوية لكل ما يوحدنا ، الا انه لايجوز ابدا التضحية بالمبادىء . علما بأنه من الهام جدا معرفة كيفية مساعدة المسيحيين ، الذين يتخلون عن الايديولوجيا الاصلاحية اليمينية المعادية للماركسية والحزب ، على الانخراط في النشاط الثوري وايجاد مكانهم الى جانب المظلومين . ومن المهم طبعا تعريفهم بمبادىء الماركسية اللينينية بالاستناد الى مصادرها الاساسية ، لا بتلك الصورة الكاريكاتورية لهذه المبادىء ، والتي تقدمها الرجعية .

ثمة ظاهرة جوهرية اخرى . أن عددا كبيرا من المسيحيين ، اذ يسمون انفسهم ماركسيين ويشاركون في النضال الثوري السياسي ، يتوخون ان يستوعبوا الايديولوجيا العلمية ، ولكنهم لايعملون ذلك بالقوة الكاملة المطلوبة ولا يصلون الى حد التخلي عن معتقداتهم الدينية .

وهكذا ، فإن الواقعية الملموسة تطرح مطالب جديدة على الاحزاب الشيوعية في المجالين النظري والعملي على حد سواء . واشير في اثناء المناقشة انه لكي نكون في مستوى هذه المطالب ، من الضروري الا يغيب عن بالنا ان الماركسيين والمسيحيين يمكن ان يجدوا في سياق حوارهم ، دون التنازل عن مبادئهم ، الكثير من القواسم المشتركة في مواقفهم من القيم الاخلاقية المفهومة والعزيزة على جميع ذوي الارادة الطيبة .

واكثر من ذلك ، فإن الحياة في عدد من بلدان امريكا اللاتينية تدفع المؤمنين والماركسيين الى اتحاد في اطار منظمات تلعب دور الطليعة . وهذه الظاهرة جديدة تماما في الحركة التحررية في ايامنا . وعلى سبيل المثال ، يدخل نشطاء مسيحيون وقساوسة كاثوليك في قيادة جبهة التحرير الوطني الساندينية التي هي في مرحلة التحول الى حزب موحد . كما ان مسألة تشكيل طليعة ثورية موحدة تطرح في السلفادور . ويدور الحديث هنا لا عن الحوار والتعاون فحسب ، بل وكذلك عن اندماج بضع قوى سياسية في منظمة متلاحمة واحدة ـ فصيلة الثورة الطليعية .

الأمكانات الوطنية ومصاعب الحوار

بحث اللقاء في خصائص الوضع الملموس المرتبط بمكانة الدين في مختلف بلدان

٣/٣٠

امريكا اللاتينية . فلننظر في وضع الكنيسة والمؤمنين وكذلك موقف الاحزاب الشيوعية في المنطقة منهم ، محاولة منا لاعطاء صورة عامة للموضوع الذي يهمنا ، استنادا لتقديرنا الأولي وفي ضوء مداخلات المشاركين في « الطاولة المستديرة » ومقالات الصحف في السنوات الاخيرة .

مارس الحزب الشيوعي الارجنتيني منذ بداية الاربعينات ، سياسة « اليد الممدودة » في علاقاته مع الكاثوليكيين . واستمر في ممارستها في العقود الأولى بعد الحرب ، رغم أن الكنيسة حملت آنذاك ، كمؤسسة اجتماعية ، راية التيارات المحافظة والرجعية والمعادية للشيوعية والسوفييت ولم تكن تخفي عداءها لمطالب العمال والتحويلات التقدمية ، أيا كانت . وحتى في ذلك الحين كانت الميول الديمقراطية تتجلى في الاوساط الكنسية ، وان بوجل شديد .

اما الان ، حيث تفاقمت التناقضات في الكنيسة وبرزت عمليات التمايز بصورة ملحوظة ، فيرفض الشيوعيين في الارجنتين جميع مظاهر العداء المبتذل للاكليركية ومحاولات النظر الى الكنيسة والتيارات القريبة منها باعتبارها قوى اجتماعية رجعية صرف .

ذلك ان القسم الاكثر محافظة من الاسقفية الارجنتينية ، وان كان كالسابق يحتفظ بمواقع ثابتة جدا في القيادة الكنسية العليا وبين القساوسة في الجيش وفي منظمات رأس المال الكبير في المدينة والريف ، يفقد بالتدريج دوره القيادي ، اذا نظرنا الى الاوضاع نظرة موضوعية . وبرز بين رجال الدين فريق خاص من الاساقفة والاحبار الذين تطوروا نحو اليسار بصورة ملحوظة ويؤيدون أكثر مطالب الجماهير تقدمية ويروجون لاهوت التحرير ، الامر الذي كلف البعض حياتهم . ويفهم العديد من رجال الدين وقادة المؤسسات الدينية ان : لابد من الاستعاضة عن لغة الكنيسة البالية بلغة جديدة ، اكثر اصلاحية ومفتوحة للبحث في القضايا الاجتماعية وأماني المعدومين والمظلومين ، لكي لايفقدوا الصلات بالجماهير . والحق يقال ان هؤلاء الرجال لايخلون من الاوهام الطبقية والمعادية للشيوعية ويسعون الى درء انتشار الروح الراديكالية بين رعاياهم . ولكن ، إذ نأخذ في الاعتبار حتى هذه المواقع المحافظة التي لاتتعدى اطار الاصلاحية الوجلة ، يمكن ان نجد فيها دوما « مجالات للتفاهم » تتيح لنا امكانية ممارسة سياسة

التحالف مع المجددين في مسائل كالنضال من اجل السلام والحريات الديمقراطية وكذلك النضل الى حد ما من اجل توزيع اكثر عدالة للخيرات المادية .

لاينفك الشيوعيون في الارجنتين عن العمل بين المؤمنين ، ويفهم الحزب ان مهام معلقة عديدة ستواجه في هذا الطريق ، وفي مركز كودوفيليا لدراسة الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الارجنتيني فريق خاص للبحوث في الشؤون الدينية أعد في الأونة الاخيرة عددا من المطبوعات[١٣] بهدف اعداد كوادر النشطاء اعدادا نظريا للحوار والتعاون مع جماهير المؤمنين .

في البرازيل ، حيث شملت العمليات التجديدية اوساطا واسعة من رجال الدين ، لعب جناح الكنيسة الايسر دورا ملحوظا في النضال ضد الدكتاتورية العسكرية التي حكمت في الجمهورية اكثر من ٢٠ سنة (عام ١٩٦٤ ـ ١٩٨٥) . هاكم ما جاء في وثيقة الحزب الشيوعي البرازيلي البرنامجية : « كانت الكنيسة الكاثوليكية » في احلك مرحلة من التنكيل الفاشي بين اولئك القلائل الذين وجدوا انفسهم قادرين على رفع اصواتهم لفضح جرائم الدكتاتورية وتعسفها امام الملأ . وعملت الكنيسة ذلك بثبات وجرأة ، مساهمة بحزم في تكوين رأي عام داخل البلاد يدين النظام »[١٤].

وفي ظروف انعدمت فيها احزاب علنية ، كانت الكنيسة اليسارية تلعب جهارا دور بوق المعارضة ، وقد نظمت سوية مع بعض الشخصيات السياسية التقدمية حملة من اجل عفو عام واسع لايحده حد ، ودعت فيما بعد الى اجراء مناقشة لاصلاح الدستور .

ان وزن الكنيسة الكاثوليكية البرازيلية ، التي تضمن ١١٠ ملايين مؤمن ، كبير جدا في الكاثوليكية العالمية . ويشكل رعاياها حوالي ثلث جميع الكاثوليكيين في امريكا اللاتينية ، الذين اخذوا يتحركون في السنوات الاخيرة ، الامر الذي يشهد عليه وجود أكثر من ١٠٠ ألف جماعة مسيحية دنيا[١٥] تتمتع بقوة ديمقراطية جماعية كبيرة . ومارس لاهوت التحرير تأثيره حتى في الاوساط الكنسية العليا ، ويفعل فعله الآن في مستوى الاسقفية البرازيلية الاكثر عددا في العالم الكاثوليكي والتي تضم ٣٦٧ اسقفا وخمسة كرادلة . وطرحت الاسقفية البرازيلية في احد مؤتمراتها الاخيرة مسألة تعميق عملية اشاعة الديمقراطية في البلاد ، واقرت وثيقة تدعو جميع الكاثوليكيين الى البحث في مسألة توسيع مشاركة الشعب في حياة البرازيل الاقتصادية والاجتماعية . واذ تؤيد الكنيسة

جهارا اجراء الاصلاح الزراعي ، اكدت موقفها هذا واقترحت نقل كل ممتلكاتها العقارية في الريف (حوالي ١٨٠ الف هكتار) الى ايدي الدولة ، اذا اقدمت الحكومة على تغيير بنية ملكية الارض في الريف .

اما في تاريخ شيلي المعاصر ، فمرت فيه العلاقات بين الشيوعيين والكاثوليكيين الذين يشكلون غالبية المؤمنين المطلقة بمرحلتين ساد فيهما وضع سياسي مغاير تماما . في سنوات حكومة سلفادور الليندي الثورية (اعوام ١٩٧٠ - ١٩٧٣)، كانت علاقاتها مع الكنيسة تتميز باحترام متبادل وكذلك بمشاركة جماهير المسيحيين على نطاق واسع في العملية الثورية الجارية . وتتعلق المرحلة الثانية بقيام اقسى دكتاتورية فاشية في البلاد . ولكن حتى في هذه الظروف ، وبالرغم من دسائس المحافظين الذين رفعوا رؤوسهم بعد تعيين كردينال جديد دي سانتياغو ، احتلت الكنيسة مواقع معادية للفاشية عموما . ولاقى نشاطها اكثر من مرة استجابة ايجابية من الشيوعيين . وعلى عكس ذلك ، تتعرض دوما لتهجمات واهانات نظام بينوشيت ، من الاعتقال والنفي وحتى قتل بعض القساوسة وحصار المعابد المسلح ولغمها . وفي هذه الظروف ، فإن الشيوعيين والكاثوليكيين يوطدون علاقاتهم اليومية صلاتهم المتبادلة من أجل النضال المشترك في سبيل الحرية ، والدليل الساطع على ذلك ، مثلا ، العلاقات الودية بين الخلايا الحزبية المحلية والجماعات المسيحية الدنيا .

ينطلق الحزب الشيوعي الشيلي من مبدأ عدم التدخل في شؤون الكنيسة الداخلية ، ويدعو بحزم وصراحة الى التفاهم والنشاطات المشتركة بين انصار التغيرات الثورية وجماهير الكاثوليكيين والمسيحيين . ويبذل الحزب قصارى جهده لكي يصبح ذلك صفة مميزة للديمقراطية والتحولات الثورية المقبلة في البلاد[١٦].

كما يلاحظ سعي الكنيسة المتزايدة الى مراعاة امزجة الفئات الشعبية في باراغواي التي ترزح تحت حكم اقدم دكتاتورية في القارة . وشمل هذا السعي حتى ممثلي المقامات العليا من الكنيسة ، الأمر الذي يعكس التغيرات الجوهرية الحاصلة في وسط اسقفية باراغواي ، التي كانت منذ امد قريب تلعب دور احدى ركائز النظام الديكتاتوري الرئيسية . اذ يستخدم المطران رولون مواعظه لانتقاد نظم ستروبسنر ، وفي العام الماضي ، نظمت في شوارع اسونسيون مسيرة للقساوسة والراهبات تدعو الى السلام

والحرية والعدالة من اجل جميع الذين يعانون من الفقر المدقع . وشجب المشاركون في المظاهرة موجة اعمال التنكيل التي انقض بها النظام على العائلات الفلاحية . وفي وسط الاكليروس الكاثوليكي والمؤمنين تشق الطريق بالتدريج الفكرة القائلة بضرورة الحوار والتعاون والاعمال المشتركة بين الشيوعيين والقوى الديمقراطية كافة .

ويرى الحزب الشيوعي في باراغواي ان ثمة ما يكفي لدى الشغيلة المسيحيين وغير المؤمنين من المصالح المشتركة للاتحاد في سبيل التحرر من الاستغلال والاضطهاد والفقر المدقع . اما الكنيسة ذاتها ، فانها كذلك « . . . تجابه اكثر فاكثر الدكتاتورية التي تتهم الاساقفة والمراتب الدنيا من الاكليروس بالتواطؤ مع النشاط التخريبي »[١٧].

تعتبر بوليفيا من بلدان القارة ، التي تتمتع فيها الكاثوليكية بتأثير كبير جدا مع وجوذ تيارات دينية اخرى . وبعد مجمع الفاتيكان المسكوني الثاني (عام ١٩٦٢ - ١٩٦٥) ، ظهرت تغيرات ايجابية ، رغم تشبث بعض الاوساط الكنسية بالمذاهب الرجعية القديمة ، وذلك فيما يتعلق ، مثلا ، بقضايا وضع الشغيلة الاجتماعي الاقتصادي وحقوق الانسان والديمقراطية ومقاومة الانظمة الدكتاتورية التي نكلت اكثر من مرة بالمؤمنين ، بما في ذلك قتل القساوسة . وافسحت هذه الظواهر الجديدة وردود الفعل على لاهوت التحرير في المجال للحوار بين الشيوعيين والمسيحيين ونضالاتهم المشتركة دفاعا عن المصالح الوطنية ومطالب الجماهير الشعبية . ومنذ أمد قريب حددت الكنيسة البوليفية بلا مواربة موقفها من قضايا البلاد الرئيسية .

اولا ، قامت بوساطة بين السلطات وعمال مناجم « سيغلو العشرون » و« كاتافي » الضخمة ، حين اضرب العمال عن الطعام احتجاجا على السياسة الحكومية الرامية الى الغاء التأميم واغلاق عدد من المؤسسات . ثانيا ، ادانت جمعية اتباع الكنيسة الكاثوليكية البوليفية ادانة حازمة وبتأييد من القيادة الكنسية الانزال الذي قامت به الولايات المتحدة في ١٤ تموز (يوليو) عام ١٩٨٦ بحجة مكافحة تجار المخدرات ، ووصفته بكونه انتهاكا لسيادة الوطن . واخيرا ، نعتت الاسقفية في احدى وثائقها الدين الخارجي بأنه « لا أخلاقي »، قائلة بأن الكف عن تسديده مبرر من وجهة النظر المسيحية ، اذا أخذنا في الاعتبار جوانب هذه القضية الاجتماعية والسياسية والانسانية الصرف[١٨]. ويؤكد

الاساقفة ، وهم يلمحون بلا مواربة ولا مداراة الى صندوق النقد الدولي ، ان « المنظمات الدولية المعروفة » تفرض على بوليفيا مخططاتها التي تقع اعباء تنفيذها على كاهل اكثر فئات السكان فقرا .

ويتميز وضع الكنيسة الكاثوليكية في بيرو بأن فيها ، الى جانب تيارات محافظة نسبيا وحتى رجعية ، اوساط تجديدية نافذة يلهمها فكريا احد مؤسسي لاهوت التحرير القسيس والعالم اللاهوتي غوتيريس . وعلى سبيل المثال ، اعترفت اسقفية بيرون في عام ١٩٧١ بأفضليات الاشتراكية ، الا أن اعداء التجديد تغلبوا في الأسقفية من جديد منذ اواسط الثمانينات[١٩] . ويقدر غوتيريس وانصاره الماركسية عالي التقدير كتعاليم عن تطور المجتمع ويستخدمون بعض احكام الماركسية في طروحاتهم اللاهوتية .

وجدير بالذكر ان التكتل اليساري الثاني في البلاد من حيث اهميته ، وهو وحدة القوى اليسارية التي تضم الحزب الشيوعي في بيرو ايضا ، يطبق في للواقع العملي التعاونت بينت المسيحيين والماركسيين . وزعيمه بارانتيس ، رئيس بلدية ليما ، يسمي نفسه « ماركسيا مسيحيا » . ويبذل جهده لاقامة الاتصالات والتعاون مع الجماعات المسيحية الدنيا ، ولاسيما مع انصار لاهوت التحرير ، اذ يعتبر ان لاهوت التحرير ، خلافاً للاهوت التأملي ، نجم عن وضع بيرو المأساوي ويرتبط به بجذور قديمة .

ان اكبر معضلة اجتماعية في بيرو هي وضع الفلاحين الذي لايطاق . ومأساة القرى الجبلية المهملة والاضهاد القاسي الذي يتعرض له الذاهبون للعمل في المدن وعذاب الجوع وظروف المعيشة غير الانسانية ـ هذه الوقائع تؤثر في وعي اتباع الكنيسة الديني وتدفع المؤمنين الى استيعاب افكار الاشتراكية . كما ان تجربة الثورتين في كوبا ونيكاراغوا مع سياستهما الرامية الى اتحاد وثيق بين المسيحيين والماركسيين تمارس تأثيرا ملحوظا في المجددين وجماهير المؤمنين ، التي أخذت تتحرك .

كما يرى الشيوعيون في الاكوادور ان مثل هذه الوحدة للاعمال ليست ممكنة فحسب ، بل وضرورية ايضا ، لقد جاء في القرار السياسي الذي اتخذه المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي في الاكوادور (عام ١٩٨١) قوله : « إن النهج الاستراتيجي الذي رسمه حزبنا يتطلب رص صفوف جميع القوى الديمقراطية والوطنية والمعادية للامبريالية في النضال من اجل ثورة تحررية ذات افق اشتراكي . . وتتوفر ظروف مناسبة للاعمال

المشتركة مع فرق ذات نفوذ من الكاثوليكيين الذين يتخذون مواقف تقدمية . . . »[٢٠].

اما بالنسبة للسكان من شغيلة الهنود الحمر فإن ما يدعى الكنيسة الشعبية التي انشأت شبكة من مدارس الابرشيات مع استخدام الراديو قد اضطلعت بدور هام في ايقاظ وعيهم . اصبح ل. بروانيو ، الاسقف السابق في محافظة ريوبامبا ، الذي يتمتع بشهرة واسعة في امريكا اللاتينية ، هو الملهم الرئيسي في هذا النشاط . وقد اطلقت الرجعية على اكثر من مرة صفة « الشيوعي ». وفي عام ١٩٧٣ عرضته الفاتيكان لـ« تجربة » خاصة ، بل واعتقلته السلطات في عام ١٩٧٦ بتهمة النشاط « التخريبي ». لقد ساهم « اسقف الهنود الحمر » وانصاره لدرجة كبيرة في التغلب على العداء للشيوعية بين جماهير الكاثوليكيين وفي تعزيز التضامن بين العمال والفلاحين في الاكوادور والشعوب الاخرى في امريكا اللاتينية ، المناضلة من اجل تحررها .

حاولت الاوساط اليمينية استخدام زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للاكوادور (عام ١٩٨٥) لتوطيد مواقعها . وعارضت فكرة وحدة الشغيلة في النضال من اجل التحولات الاجتماعية . الا ان هذه المقاصد منيت بالفشل . فمئات الالاف من الهنود الحمر ملأوا الشوارع والساحات والطرق المؤدية الى العاصمة ، مطالبين بأن تهب الكنيسة لنصرة الفقراء . وكتبت ، آنذاك ، جريدة الحزب الشيوعي في الاكوادور المركزية « بوابلو » تقول : « أنهم كثيرا ما يتهموننا ، نحن الشيوعيين ، باننا اعداء للمؤمنين . إن ذلك كذب في كذب . ما نحن الا اعداء لاستخدام الدين من قبل الطبقات الحاكمة التي تحاول اخماد لهيب نضال الشعب في سبيل مصالحه . اننا نثق بالتعاون بين الشيوعيين والمسيحيين الذين يناضلون من اجل حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية ، وضد الحرب وسباق التسلح . . . »[٢١].

لقد اتحد قسم من الكاثوليكيين في الاكوادور سياسيا فيما يسمى حركة المسيحيين اليساريين الثورية التي تعتبر حليفة للشيوعيين . وقسم كبير من المؤمنين يصوتون في الانتخابات لصالح الحزب الشيوعي والاشتراكيين . وليس من قبيل المصادفة ان جميع المرشحين المنتصرين في الانتخابات الاخيرة في محافظة تشيمبوراسو حيث يسكن ويعمل اليوم بروانيو هم من الشيوعيين أو الاشتراكيين .

تلعب الكاثوليكية دورا ملحوظا في كولومبيا ليس في المجال الديني الصرف

فحسب ، بل وكذلك على مستوى سلطة الدولة ، لأن هذه البلاد « كونكورداتا »[22] مع الفاتيكان . وفي الكثير من النواحي ، تشربت هذه الكونكورداتا بالروح التقليدية اكثر من الاتفاقيات المماثلة حتى مع بلدان كاثوليكية اصلية مثل اسبانيا والبرتغال .

تبرز في الكنيسة الكاثوليكية الكولومبية ثلاثة اتجاهات اساسية : الاتجاه اليميني المتطرف الرجعي الذي يوحد بعض الاساقفة وقساوسة الجيش الذين يسترشدون بمبدأ الامن الوطني السيء الصيت وكذلك القساوسة « التقليديين » وضمن هذا الاتجاه اتباع سافرون للظلاميين كالاب ليفيفر الذي تروج افكاره على نطاق واسع في كولومبيا ، ولعدد كبير منهم صلات بـ« ابوس دي »[23]. والاتجاه الثاني هو الاتجاه المحافظ الاصلاحي الذي يمثل غالبية رجال الدين . واذ يعارض هذا الاتجاه التجديديين على المكشوف أو بصورة مستترة ، يشكل العقبة الاساسية في طريق انتشار لاهوت التحرير . واخذ الاصلاحيون « المعتدلون » على عاتقهم مهمة تشهيرها اللاهوتي ، مستندين في ذلك الى المساعدة المالية من مختلف « الصناديق » المسيحية في جمهورية المانيا الاتحادية . واخيراً ، يأتي التيار الثالث الاكثر قرابة من القوى اليسارية ويعتبر اتجاها تجديديا حقا . ويرتبط بأكثر مسلمات لاهوت التحرير بنزعة راديكالية . وإن المشاركين فيه ، ومنهم فريق من القساوسة الذين انخرطوا في نضال الشعب المسلح ، كثيرا ما يتخذون في نشاطهم مواقف تقدمية ـ من الديمقراطية المتسقة الى الثورية .

ان العناصر المحافظة الاصلاحية تشكل الغالبية في الكنيسة الكولومبية . ولكن هذه الغالبية ، المعادية للاهوت التحرير والمتربية على المعادة للشيوعية ترى أن حرة الانصار والنشاط « التخريبي » في البلاد لايمكن « استئصالها » بقوة السلاح وحده . ولهذا ، فإن هذه الغالبية هي ايضا تقترح تحقيق الاصلاح الزراعي والاجراءات الاخرى التي من شأنها ان تضمن للسكانحياة سلمية والتشغيل والحق في التعليم والمسكن والخدمات العامة .

ويرى الشيوعيون الكولومبيون ان وحدة كل القوى المناضلة من اجل التحولات يمكن تحقيقها على اساس مختلفة ـ من الاعمال المتفق عليها عند تطابق مؤقت للاهداف الى النضال المشترك في سبيل حل المهمات الطويلة الامد مع استخدام الاتفاق في المسائل الملموسة التي تطرحها الحياة . وعليه ، فان الحزب الشيوعي الكولومبي يسعى الى ايجاد

لغة مشتركة حيث امكن مع جميع الذين لهم مصلحة في المحافظة على الهدنة[24] والتحولات الاجتماعية السياسية المساعدةعلى اقامة سلطة الشعب في كولومبيا وسيرها نحو الديمقراطية المتقدمة . وبين هذه القوى تحتل الاوساط المسيحية ، وضمنها بعض ممثلي المقامات الكهنوتية العليا ، مكانة لايستهان بها .

تختلف الحياة السياسية في فنزويلا بصورة جوهرية عنها في كولومبيا . ففي فنزويلا ، التقاليد الدنيوية قوية جدا . اذ ان تقسيم الوظائف التام بين الكنيسة والدولة خاصية تميز هذه البلاد منذ اكثر من نصف قرن . والزواج المدني والطلاق والتعليم تحت اشراف الدولة ، وهي وقائع لايعارضها احد من الكاثوليكيين . ويدين الشعب الفنزويلي بالكاثوليكية «على طريقته الخاصة»، اي بلا اي تعصب . وفي مسائل الاعتقاد الديني ، الفنزويليون متسامحون الى اقصى حد ، الامر الذي يفسح في المجال كثيرا لعمل الحزب السياسي والايديولوجي بين المؤمنين .

ويقيم الحزب الشيوعي علاقات مع الكنيسة الكاثوليكية ترتكز على احترام متبادل خال من اية تبجحات من أي طرف على الطرف الآخر . ويمكن اعتبار هذه الاتصالات حسنة مع بعض الاوساط الكنسية . ولايدور الحديث حول ذلك القسم من كنيسة ، الذي ربط مصيره بلاهوت التحرير ، اي الاكليروس «المتنفض» والتجديدي فحسب ، بل وكذلك حول القساوسة الذين قليلا ما يتعرضون للافكار الجديدة ، ولكن يواصلون التقيد بالتقاليد الليبرالية في الكاثوليكية الفنزويلية .

واذ ذاك ، يقدر الحزب الشيوعي الفنزويلي عالي التقدير التعاون مع الشخصيات الدينية المشار اليها في المسائل الملموسة . واذ يعمل الحزب في مصلحة الشعب ، يرفض المناورات الخفية والاعلانات الديماغوجية ازاء الكنيسة . ولاتعتبر مادية الشيوعيين وعدم ايمانهم عقبة كأداء في طريق نشر الماركسية في الحركة العمالية الفنزويلية ولايعرقلان ممارسة سياسة التحالفات العريضة مع القوى الديمقراطية كافة . هذا هو نهج المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفنزويلي (تشرين الأول/اكتوبر ١٩٨٥)، الذي من شأنه أن يساعد البلاد على التغلب على الازمة الشديدة التي اصابتها في السنوات الاخيرة .

الوضع في امريكا الوسطى وحوض الكاريبي

اثارت خبرة التعاون بين المسيحيين والماركسيين ، المكتسبة في كوبا الاشتراكية ،

اهتماما خاصا لدى المشاركين في « الطاولة المستديرة ».

ورغم ان الاسقفية الكاثوليكية في هذه البلاد ، التي كانت قبل بداية الستينات مرتبطة بالولايات المتحدة واسبانيا فرانكو ، أيدت في البداية الثورة المضادة وأدانت علنا تنفيذ الاحكام بالجلادين والقتلة من عشيرة باتيستا وعارضت الاصلاح الزراعي ، أبدت القيادة الوبية الثورية منذ ذلك الحين احتراما للمشاعر والحاجات الدينية للمؤمنين ، وضربت أمثلة على ضبط النفس وهدأت الشعب المستاء من موقف المقامات العليا في الكنيسة . وقامت السلطة الجديدة بكشف القناع عن ممثليها والكاثوليك العاديين الذين تستروا في نشاطهم المعادي للوطن بدوافع دينية . الا ان المعابد في كوبا لم تغلق ولم توضع العراقيل في طريق تأدية الشعائر الدينية .

وبعد التغلب على المجابهة الحادة التي حفزتها الاكليركية الرجعية ، ابتدأت عملية تدريجية لتكيف الكنيسة مع اوضاع كوبا الجديدة لاتخلو من تناقضات وترددات . ويمكن ان نرجع اول مظاهر هذه العملية الى عام ١٩٦٩ ، حين ناهضت الكنيسة محاصرة الولايات المتحدة لكوبا . اما الكنيستان الانجيلية والبروتستانتية المتمثلتان في البلاد بحوالي خمسين جماعة دينية غير متجانسة تماماً من حيث قوامها ، فكانت منذ البداية تميل الى المواقف الليبرالية والتقدمية . كما طرحت الثورة الكوبية مسألة احترام الشعائر الدينية غير المتعلقة بالمنظمات الدينية ، ولكن المنتشرة جدا في العهد الاستعماري بين أفقر فئات السكان .

مكنت هذه السياسة في الدفاع عن الثورة وتطويرها من توحيد مختلف القوى التي قادتها خبرتها الخاصة الى الماركسية اللينينية . وهذه تجربة ذات عبرة كبيرة نظرا للاوضاع الحالية في امريكا اللاتينية . وثمة بين قادة كوبا اليوم شخصيات من رجال الدين الكاثوليكيين والبروتستانتيين سابقا ونساء كن اعضاء في منظمة « مع الصليب في سبيل الوطن » التي أسست بهدف فضح مكائد المقامات العليا في الكنيسة والاكليركية الرجعية . هذا ، ويتضمن دستور الجمهورية مبادىء حرية الاعتقاد وتأدية الشعائر الدينية . ومن اجل تطبيق هذه المبادىء توفر كذلك مستلزمات مادية مناسبة .

في نيكاراغوا ، بعد الاطاحة بديكتاتورية سوموسا فضلت المقامات العليا في الكنيسة الكاثوليكية بكل قوامها تقريبا ان تعقد تحالفا مع المعارضة المرتبطة في ظروف

نيكاراغوا ارتباطا وثيقا بالثورة الماضدة . وملهم هذه القوى هو رئيس اساقفة ماناغوا م. اوباندو ـ اي ـ برافو الذي تمت ترقيته مؤخرا الى رتبة الكاردينال مكافأة على أعماله المشبوهة . ولاتخفي الاسقفية المحلية موقفها الانتقادي من الجماعات المسيحية الدنيا وتطالب بسحب القساوسة من الحكومة ، وبينهم وزير الخارجية م . داسكوتو ووزير الثقافة اي . كاردينال . ويؤيد هذا النهج مجمع الاساقفة في امريكا اللاتينية والفاتيكان .

كتبت مجلة « سوليداريداد » الكولومبية في هذا الصدد تقول : إن موقف يوحنا بولس الثاني من نيكاراغوا يتباين بصورة حادة مع قبوله المتسامح بكوبا . لقد قبل الثورة الاشتراكية الكوبية كظاهرة لارجعة فيها . ويرفض في الوقت نفسه التسليم بالارادة التي اعرب عنها بصورة راسخة شعب نيكارغوا ، الذي اعتزم هو الآخر القيام بثورة . ويبرز سؤال : ما هو مرد هذا الاختلاف في الموقف ؟ يخيل للمرء ان روما تنطلق من دوافع سياسية صرف وليس من دوافع انجيلية . . »[٢٥].

بيد ان دور المقامات الكاثوليكية العليا في نيكاراغوا ، رغم كل تعقد العلاقات المتبادلة بين الدولة والكنيسة ، لايمكن اعتباره ابداً دوراً حاسما . ذلك ان الجماعات المسيحية الدنيا المتحدة فيما يسمى الكنيسة الشعبية والعديد من القساوسة المتمثلين في مؤسسات الدولة وحتى في الحكومة ، كما ذكرنا ، يساهمون بقسطهم العظيم في قضية الدفاع عن الجمهورية واعادة تعميرها .

اما سياسة الساندينيين في المسألة الدينية فصاغها رئيس البلاد دانيال اورتيغا بوضوح ، اذ قال : لم تنتقص الثورة ولن تنتقص أبدا من حرية الدين وتأدية شعائره ، الامر الذي تشهد عليه الصلوات العامة اليومية التي لا تصطدم بأية عراقيل . واضاف الزعيم النيكاراغوائي قائلا : «ولكننا لن نسمح ان يستخدموا هذه الحرية يوما لتبرير الارهاب والاعمال المضادة للثورة»[٢٦] . وتجري حكومة الانبعاث الوطني في الوقت الحاضر ، انطلاقا من هذه المواقف بالذات ، مفاوضات رسمية مع الاسقفية المحلية والفاتيكان .

تتبع الاسقفية في السلفادور عموما الخط الموالي للولايات المتحدة وتؤيد نظام دوراتيه المعادي للشعب . ومع ذلك ، فأن سياسة جبهة فارابوندو مارتي للتحرر

الوطني ـ الجبهة الديمقراطية الثورية[٢٧] لاقت تفهما لدى بعض الاساقفة في مجرى الحوار من اجل الخروج من النزاع المسلح الذي يخرب البلاد . واصبح رئيس اساقفة سان سلفادور أ. ريفيرا ـ اي ـ داماس وسيطا بين الطرفين المتحاربين .

ولعبت الجماعات المسيحية القاعدية التي نشأت في السلفادور في الستينات دورا ملحوضا في تلاخم الشغيلة التنظيمي . وفي عام ١٩٨٠ ، نشأ ما يسمى المركز التنسيقي للكنيسة الشعبية . واذ اتبع المركز الاسقفية ، كان في الوقت نفسه ينسق نشاط الجماعات ورجال الدين الذين ربطوا مصيرهم بـ «الاختيار لصالح الفقراء» . وكان يمثلهم المرحوم رئيس الاساقفة أ. روميرو الذي قتل بالرصاص في اثناء القائه الموعظة . وكان يدعو الجنود الى عدم اطاعة الاوامر حين يجبرون على التنكيل بالشعب .

تتصارعه الان في السلفادور سلطتان : احداهما السلطة القديمة ، الاستغلالية التي تتراجع بالتدريج عنمواقعها ، والسلطة الجديدة الثورية التي تسيطر في قسم كبير من البلاد وتوسع مجال تأثيرها . وثمة في المناطق المحررة هيئات ادارية محلية اخذت على عاتقها تنظيم التعليم العام والعناية الصحية والانتاج والدفاع الذاتي . ويقدم لها مساعدة كبرة القساوسة والرهبان والمؤمنون العاديون . وعليه ، فان الكنيسة في السلفادور منقسمة على نفسها عمليا ايضا . وان المنظمات السياسية الخمس التي تشكل جبهة فارابوندو مارتي تراعي بصرامة مبدأ احترام العقائد الدينية . وتتوفر في المنطقة التي تسيطر فيها جميع الظروف الضرورية لتأدية شعائر الكنيسة . وتساهم الاوساط الدينية التقدمية مساهمة هامة في حل معضلات البلاد ، اذ تنظم مساعدة انسانية للسكان من قبل مختلف الكنائس في الولايات المتحدة الامريكية واوربا .

وتتمتع الكنيسة المحافظة الى حد ملحوظ في كوستاريكا بنفوذ كبير وتلعب دور معاون للطبقات المسيطرة . فتؤيد ، مثلا . لان حملة معادية للثورة شنها في نيكاراغوا الكاردينال اوباندو ـ اي ـ برافو ، واضطلعت في حملة انتخابية ، جرت في بلادها كوستاريكا ، بدور قوة ضاربة للرجعية ، ودعت الى عدم التصويت لصالح الشيوعيين وابداء الحد الاقصى من الخضوع والطاعة . ولكن ذلك لا يمنعها من ان تقوم ، تحت ضغط النضالات الشعبية الجماهيرية ، بوظيفة الوسيط بين الشغيلة وارباب العمل وابداء تفهم عين لمقترحات السكان ومتطلباتهم .

ويولي حزب طليعة الشعب في كوستاريكا اهتماما خاصا للعلاقات مع رجال الدين ، دون ان يستثنى من عدادهم ذوى المقامات العليا ، ذلك ان مصالح المسيحيين المنظمين والشيوعيين تتفق حين يدور الحديث حول النضال في سبيل السلام والتضامن الاممي والدفاع عن حقوق الانسان او الاعمال المشتركة في المنظمات العمالية والفلاحية الجماهيرية المناضلة من اجل تحسين الظروف المعيشية وغيرها من مطالب الشغيلة .

ان عدد رجال الدين في هندوراس غير كبير بالمقارنة مع سائر بلدان امريكا اللاتينية : اذ يوجد قسيس واحد لكل ١٥ الف نسمة من السكان ، بينما يوجد في السلفادور المجاورة ، مثلا قسيس واحد لكل ٨ الاف نسمة . وفي نهاية الستينات وبداية السبعينات . نشأت في الجمهورية شبكة واسعة من الجماعات المسيحية الدنيا التي تؤيد بحزم مطالب الفلاحين حول الاصلاح الزراعي . وتحت قيادة الاسقف ن. دانتونيو تم وضع برنامج لاعداد زعماء هذه الجماعات سماه الملاك العقاريون «برنامجا شيوعيا» .

اتخذ اصحاب اللاتيفونديات والجيش عددا من اجرءات التنكيل بالقساوسة التقدميين والفلاحين . فقتل ١٢ مؤمنا (بينهم امرأتان) واثنان من رجال الدين في مجزرة دبرت في ٢٥ حزيران (يونيو) عام ١٩٧٥ في مركز «سانتا ـ كلارا» لاعداد الفلاحين الديني وفي ضيعة «لوس ـ اوكونيس» من محافظة اولانتشو . كما تعرض للملاحقات والرقابة المبادرون في تدريس اعضاء الجماعات المسيحية الدنيا عن طريق الراديو والموظفون في مراكز اعادة اعداد المؤمنين والمنظمات الوطنية الاخرى ذات الطابع الديني . وكان رد فعل الاساقفة على التهجمات على الكنيسة وجلا جدا .

وع$تعارض المقاومات الكهنوتية العليا عموما النزعات الجديدة التي ظهرت في الكاثوليكية الهندوراسية بتأثير من لاهوت التحرير ، وكثيرا ما تقف مواقف رجعية من القضايا الرئيسية التي تهم البلاد والمنطقة كلها . وفي الوقت نفسه يقوم العديد من رجال الدين بعمل كبير فيمجال تقديم المساعدة للاجئين السلفادوريين ولاولئك الهندوراسيين الذين طردوا من منطقة الحدود حيث تجري الحرب غير المعلنة ضد نيكاراغوا . ويتعاونون مع المنظمات الشعبية المناضلة في سبيل حقوق الانسان والسيادة الوطنية والسلام . ويرى رجال الدين من المراتب الدنيا بوضوح متزايد من هم المسؤولون

الحقيقيون عن تردي الوضع الاقتصادي الداخلي واشتداد الخطر المخيم على السلام في امريكا الوسطى . كما ان تغير الامزجة الفكري للذين يشكلون اسس الكنيسة الكاثوليكية الهندوراسية يؤثر لا محالة في آراء اقطاب الكنيسة ، بضمنهم بعض الاساقفة من الذين يميلون الى تفهم ضرورة التحولات الاجتماعية .

وفي غواتيمالا ، حيث بلغ افقار جماهير الفلاحين بعد التدخل الامريكي الشمالي في عام ١٩٥٤ ، ولا سيما في المناطق الجبلية ، مقاييس خطرة ، أخذت تنشأ جماعات مسيحية دنيا في مرحلة مبكرة نسبيا . ففي اعوام ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، شرع المسيحيون في التنظيم التعاوني من اجل تحسين معيشتهم . وهب الان المؤمنون اعضاء الجماعات المسيحية الدنيا ضد التنكيل والاستغلال ، وبعد ان احتل الجيش الحكومي المناطق الداخلية منن البلاد ، انضمت الجماعات المسيحية القاعدية الى الحركة الثورية . ويبلغ عدد اعضاء بعض الجماعات ١٥٠٠ - ١٨٠٠ شخص . وتنظر في اثناء انعقاد جمعياتها في مسألة المشاركة في العمليات القتالية وتبنت عن طريق التصويت بمن يجب ان يحملوا السلاح ومن ينبغي عليهم ان يقوموا بالعمل في الحقل .

أدى كل ذلك الى استقطاب عام بين قوى البلاد الدينية . واتخذت الرجعية تدابير لتعزيز المنظمات اليمينية التي كادت ان تضمحل ، ومنها «اوبوس دي» وشتى انواع «الدورات» المسيحية والطوائف الدينية المعادية للشيوعية . وبلغ الامر مداه حيث أسس احد الدكتاتوريين المتأخرين ، ريوس مونت «كنيسة» خاصة به وقريبة من انصار النزعة الدينية الاصولية في الولايات المتحدة . وكانت ترمي الى هدف مزدوج : التغلغل في صفوف المؤمنين ذوي الميول الثورية وكذلك تأييد التنكيل وتبريره .

الا ان الاسقفية الغواتيمالية ، التي لم ترغب في انحطاط سمعتها ، اضطرت الى اللجوء احيانا حتى الى فضح اكثر اعمال الرجعية كراهة بين السكان . وعلى سبيل المثال ، انتقد رئيس اساقفة غواتيمالا ب. بينادوس ديل باريو حكومة الولايات المتحدة لانها أيدت برامج تعقيم الشغيلة على نطاق واسع فيمناطق البلاد الوسطى والشمالية الغربيةم(٢) .

وفي جمهورية الدومينيكان أيدت الكنيسة الكاثوليكية على طريقتها ، خلافا لغالبية المنظمات السياسية اليمينية ، بعض مطالب الجماهير الشعبية المتعلقة بأوضاع الشغيلة

الشاقة في صناعة السكر والزراعة ، وادلت بتصريحات لصالح النضال التحرري الذي يخوضع شعب هاييتي المجاورة . واعرب مجمع الاساقفة في الدومينيكان عن ارتياحه للدور الايجابي الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية في هاييتي في الاطاحة بدكتاتورية دوفالييه واستحسن رفض العمال الموسمين في هاييتي الاستكانة للعمل الشاق الذليل في مصانع السكر الدومينيكانية وأيد حق شعب هاييتي في تقرير المصير . واقترح من اجل اجراء الاصلاح الزراعي ، مصادرة الاراضي البور وتوزيع اراضي الدولة على الفلاحين .

رحب الحزب الشيوعي في الدومينيكان بهذا الموقف للهيئة الكهنوتية وأيده ، مشيرا في الوقت نفسه الى الطابع المحدود لاقتراحات الاسقفية ، مثلا ، في قضية الارض . واشار بخاصة الى الواقع المتمثل في ان المقامات الكاثوليكية العليا تتبنى «اسلوبا جديدا في السلوك ولغة جديدة» يناسبان متطلبات العصر[٢٩] .

وفي بنما والمكسيك تتكرر الحالة بصورتها العامة للاوضاع الناشئة في جمهوريات امريكا الوسطى ، حيث لم تعد السلطات الكنسية قادرة على اغماض العين عن القضايا التي تهم شعوبها ، وحيث تتعاون «الجماعات المسيحية ورجال الدين من المراتب الدنيا مع السكان المعدمين بمزيد من التوثق والنشاط . وحسبنا ان نضرب مثالين على ذلك : لقد اعلنت الاسقفية المكسيكية ان تجمد الدين الخارجي هو الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد من الاخطار الداهمة ، وتنتقد الكنيسة البنمية الناس الذين يعلقون يافطة «شيوعي» على كل نصير للتغيرات الاجتماعية .

اما بلدان حوض الكاريبي الناطقة باللغة الانكليزية فتتميز فيها الصورة لدينية لعامةبطيف اوسع من الالوان . واذا كانت المسيحية تتغلب هنا ايضا ، فان الدور القيادي فيها يعود الى الكنيستين البروتستانتية والانكليكانية ، لا الكاثوليكية السائدة في امريكا اللاتينية . وفضلا عن ذلك . تنتشر في المنطقة مذاهب روحانية وبعض المعتقدات الشرقية والاسلام . ومرد كل ذلك الى الاختلافات في التطور الثقافي التاريخي لامريكا «الرومانية» وامريكا «الانكلوسكسونية» . وكانت القضايا التي تعرضت لها «الطاول المستديرة» تمس كذلك شعوب حوض الكاريبي الناطقة باللغة الانكليزية ، اذ انه من المعروف جيدا ان التناقضات الداخلية عامة ولاهوت التحرير خاصة تميز سائر فروع المسيحية ايضا .

يسترشد الشيوعيون في جامايكا في علاقاتهم مع المؤمنين بفكرة اساسية تقول بضرورة عزل العدو الرئيسي الذي هو الامبريالية والرجعية المحلية . ويعززون عرى التعاون مع فئات المؤمنين الديمقراطية في النضال ضد الحرب وحل قضايا الوطن الملحة . وساهم عدد كبير من المسيحيين الديمقراطيين في اعمال لجنة جامايكا للدفاع عن السلام ، كما شارك مع «مؤتمر الكنائس الكاريبي» في ندوة دراسية للقوى المحبة للسلام . وساهم في هذه الندوة ممثلو جميع التيارات السياسية في البلاد ، ٣٠ منظمة اجتماعية وجماهيرية و ١٠ كنائس مختلفة ، الامر الذي يسمح بالحديث حول الابعاد الوطنية الحق لنشاط لجنة جامايكا المذكورة .

لقد لعبت الكنيسة في غويانا ، ولا سيما الكنيسة الكاثوليكية ، دورا سلبيا في النضال من أجل الاستقلال عن التاج البريطاني ، اذ دعت الى معاداة الشيوعية وأيدت النظام الاستعماري . أما الان ، بعد مرور عشرين سنة على نيل البلاد الاستقلال ، فقد حدثت تغيرات في موقف رجال الدين : فشجبوا تزييف الانتخابات العامة في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٨٥ ، الامر الذي تعرض من جرائه بعض شخصيات الكنيستين الكاثوليكية والانكليكانية للملاحقة من قبل السلطات . وتعارض الاوساط الدينية انتهاك الحكومة لحقوق الانسان . ويفسح كل ذلك في المجال للحوار والتعاون بين الشيوعيين والمؤمنين في سبيل انتصار الديمقراطية الحق في غويانا .

ولكي نستكمل الوصف العام للاوضاع الدينية في منطقة امريكا الوسطى على الصورة التي تبدت في سياق المناقشة في «الطاولة المستديرة» نذكر ان الجمعية العامة للسكرتارية الاسقفية الاقليمية نعتت في وثيقتها «النظرة الرعوية الى وضع الانسان في امريكا الوسطى» الفقر وعنف الدولة والتخلف الاقتصادي بانها تشكل البلايا الرئيسية التي يصطدم بها السكان المحليون . وجاء في الوثيقة ان اقتصاد المنطقة وقع في تبعية شديدة لرأس المال الدولي الذي يتصرف بلا رحمة بمصائر الشعوب ، اذ يحرمه من امكانية حل قضاياه الخاصة . كما تتعرض للانتقاد سياسة النهب التي يمارسها صندوق النقد الدولي . ودعا رئيسا الاساقفه آ ـ ريفيرا ـ اي ـ داماس (السلفادور) وب . بيناغوس ديل باريو (غواتيمالا) ، اللذان ساهما في اعمال جمعية المؤمنين الى الصلاة من أجل الا تقتحم الولايات المتحدة بلدا من بلدان امريكا الوسطى[٣٠] .

ان العرض العام المختصر للعلاقات المتبادلة بين الكنيسة والمؤمنين والقوى اليسارية يمكننا من التأكيد ان الجهود الرامية الى تعزيز العملية الديمقراطية في امريكا اللاتينية وحوض الكاريبي حيث يرزح ملايين الناس تحت وطأة الفقر المدقع تلاقي اليوم تأييدا من اكثر اوساط الكنيسة تبصرا ، وبضمنها بعض ممثلي قيادتها . وهذا ما يفسح موضوعيا في المجال للحوار والتعاون بين الشيوعيين والمؤمنين ويرفعهما الى مستوى أعلى . الا ان الامكانات الجديدة تقدم في الوقت نفسه مطالب جديدة الى الاحزاب الشقيقة وسائر القوى الثورية والديمقراطية المناضلة في سبيل السلام والاستقلال والتقدم الاجتماعي .



١) قال موريس توريز في خطابه الذي القاه امام اذاعة باريس في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ : «نمد نحن غير المؤمنين يدنا اليك ، ايها الكاثوليكي ، عاملا كنت أم مستخدما ، حرفيا أم فلاحا ، لانك اخ لنا وتشغلك الهموم ذاتها التي تشغلنا» ـ المحرر .

٢) انظر «وثائق اجتماع ممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية» . موسكو ١٩٦٠ ، ص ٢٩ ، (باللغة الروسية) .

٣) انظر «الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية» براغ ١٩٦٩ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ، (باللغة الروسية) .

٤) امريكا اللاتينية في النضال ضد الامبريالية ، ومن اجل الاستقلال الوطني والديمقراطية ورفاهية الشعب والسلام والاشتراكية» موسكو ١٩٧٥ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ (باللغة الروسية) .

٥) Fidel y La religion . Conversaciones con Frei Betto . La Habana , 1985 , P . 274 (,Fidel y La religion) .

٦) للمزيد من التفاصيل عن لاهوت التحرير انظر : الفارو اوفييدو ، ستيبان مامونتوف . «لاهوت التحرير» : هل هي «هرطقة» جديدة ؟ ـ «قضايا السلم والاشتراكية» ١٩٨٦ ، العدد٣ ـ المحرر .

٧) لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤ ، ص ٢٢٨ (باللغة الروسية) .

٨) انظر : Fidel y La religion , P , 263 .

٩) الديسارولية (من كلمة «التطور» الاسبانية) نظرية اصلاحية برجوازية نشأت في امريكا اللاتينية بعد الحرب العالمية الثانية وانتشرت على اوسع نطاق في الخمسينات والستينات . كانت تهدف الى التغلب على التأخر في بلدان القارة عن طريق التجديد التدريجي للبنى الاقتصادية في اطار الرأسمالية ـ المحرر .

١٠) لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، ص ١٤٦ ، (باللغة الروسية) .

١١) المصدر ذاته ، المجلد ١٧ ، ص ٤٢٢ .

١٢) Fidel y La religion , P . 333 .

١٣) واهمها كتاب روساليس «المسيح و (او) الماركسي ؟ الشيوعيون والدين» . لمزيد من التفاصيل انظر : ايستيبان اونيا . هل يمكن ان نكون معا ؟ - «قضايا السلم والاشتراكية» ١٩٨٥ ، العدد ٧ - المحرر .

١٤) Uma Alternativa Democratica para a Crise Brasileira . Sao Paulo , 1984 , P . 98 .

١٥) للمزيد من التفاصيل حول الجماعت المسيحية الدنيا انظر : «قضايا السلم والاشتراكية» ١٩٨٦ ، العدد ٣ - المحرر .

١٦) للمزيد من التفاصيل انظر : اورلاندو ميلاس . النضال ضد الفاشية والكاثوليك الشيليون . «قضايا السلم والاشتراكية» ١٩٨٤ ، العدد ٩ - المحرر .

١٧) Adelante , 30 de abril de 1986 , P . 4 .

١٨) Granma , 14 de febrero de 1986 .

١٩) Informe Latinoamericano , 7 de agosto de 1986 .

٢٠) Resolucion Politica del X Congreso del partido Communista del Ecuador . Guayaquil , 1982 , PP . 16 , 17 .

٢١) El Pueblo , del I al & de febrero de 1985 , P , 3 .

٢٢) اتفاقية بين الفاتيكان وحكومة دولة معنية حول وضع الكنيسة الكاثوليكية وحقوقها وامتيازاتها - المحرر .

٢٣) «اوبوس دي» - منظمة سياسية دينية أسست في عام ١٩٢٨ بهدف «شن الحملات الصليبية الجديدة على الشيوعية» - المحرر .

٢٤) المقصود اتفاقية الهدنة التي تم التوقيع عليها في ٢٨ ايار (مايو) ١٩٨٤ بين حكومة كولومبيا وتشكيلات الانصار . يعتبرها الشيوعيون اول خطوة في طريق اشاعة الديمقراطية في البلاد - المحرر .

٢٥) Solidaridad , 1986 , No . 73 , P . 46 .

٢٦) Granma , 7 de jul io de 1986 .

٢٧) جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني نشأت في عام ١٩٨٠ ، وهي تحالف عسكري سياسي بين خمس منظمات ثورية ، يسارية وبضمنها الفصائل القتالية للحزب الشيوعي في السلفادور . فالجبهة الديمقراطية الثورية اتحاد سياسي (عام ١٩٨٠) اوسع بكثير من حيث قوامها ، يتضمن ما يزيد على ١٠٠ منظمة سياسية ونقابية واجتماعية وغيرها من المنظمات الجماهيرية التي تعارض النظام الصنيعة - المحرر .

٢٨) راجع . Granma , 28 de agosto de 1985 .

٢٩) راجع . Hablan Los comunistas , No . 37I , P , 4 .

٣٠) راجع . Cono Sur press , 6 de diciembre de 1984 .

من نضالات الشعوب

«حرب هادئة» في كولومبيا

مانويل سيبيدا غارغاس ●

يجتاز وطني مراحلة عصيبة ومتوترة . فقد اتسعت في البلاد حركة شعبية ضخمة ، وتناضل ملايين الجماهير في سبيل حقها في الحياة ، ومن أجل الديمقراطية وحل القضايا الملحة بشكل جذري . كما يدور نضال عنيد ضد الطغمة العسكرية . وتلجأ العناصر الموالية للفاشية الى القمع الدموي كما لو انها تتبارى في الوحشية مع اعتى الدكتاتوريات الرجعية الارهابية . والهدف هو اعادة كولومبيا للوراء ، وفرض مخرج للازمة السياسية بالقوة ، يمكن ان يحقق مطامح الرجعية .

ان السبب في ازمة النظام المختمرة منذ سنوات ، يعود الى سيطرة حزبي البرجوازية الكولومبية الرئيسيين . وقد جرى تكريس هذه السيطرة بصورة قانونية بالتعديلات التي ادخلت على الدستور المعمول به منذ مئة عام . وتتجلى سيطرة الحزبين بتساوي تمثيل[١] الليبراليين والمحافظين في الهيئات المنتخبة والقضائية ، وفي قيادة مؤسسات الدولة ، وحتى في منظمات مثل الاتحاد الوطني لمنتجي البن .

ان النظام القائم حاليا هو شكل كاريكاتوري لنظام الديمقراطية التمثيلية البرجوازي . ويتيح هذا النظام للاوليجاركية ان تتظاهر بوجود المؤسسات الحكومية الطبيعية ، وبانها تعمل «في سبيل مصالح الشعب» .

● عضو اللجنة التنفيذية وسكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكولومبي

احكموا بأنفسكم . فالقاعدة هي حالة الحصار ، التي تعلن بانتظام . وفي ظلها يتم الغاء الحريات المدنية ، الحريات المدنية ، ويصبح للرئيس حق اصدار القوانين بشكل فردي ويحال عدد من المسائل (مثل التحقيق في الاخلال بالنظام الاجتماعي أو أية جرائم أخرى) الى المحاكم العسكرية ، مما يؤدي الى تنامي النزعة العسكرية في مختلف جوانب حياة المجتمع . اذن حول اية ديمقراطية ، في مثل هذه الظروف ، يمكن أن يجري الحديث ؟

ان دساتير جميع الدول البرجوازية **تنص عمليا** على حالة الحصار او الطوارىء او الاحكام العرفية ، لكنها تستخدم في حالات الضرورة القصوى فقط . اما عندنا فمنذ اربعة عقود اصبح الاستثناء ، على ما يبدو ، هو الفترات التي لا تطبق فيها حالة الحصار . تحاول الطغمة العسكرية قمع اي تعبير عن الاستياء الشعبي ، وحتى مطالب الجماهير الاجتماعية او السياسية المتواضعة جدا . وعمليا تستخدم أوساط قيادة الجيش العليا الرجعية اساليب الامبريالية الامريكية الشمالية ، بما في ذلك اساليب ادارة ريغان .

كما ان هدف اليمينيين المتطرفين هو الوصول الى الحكم . وهم يحاولون بحجة حماية نظام الدولة ازاحة العناصر المدنية في السلطة ، واخضاعها ، خلافا حتى للشرعية البرجوازية المحدودة المعمول بها في كولومبيا . ويلعب الضباط الكبار الذين تلقوا تعليمهم في المؤسسات الدراسية العسكرية في الولايات المتحدة الامريكية بروح مبدأ «الامن القومي» السيء الصيت ، دورا هاما جدا في هذه المخططات . ويحول هذا المبدأ القوات المسلحة الى قوات احتلال في وطنها ، والشعب الذي يناضل في سبيل مطالبه الى «عدو داخلي» .

العسكريون يستشرسون

تلجأ الرجعية ، دون اي تردد ، الى اسلوب «الحرب القذرة» التي تتمثل في الاغتيال السياسي (لا تنص التشريعات على عقوبة الاعدام في كولومبيا) ، والاعتقال غير القانوني والخطف والتعذيب .

واستنادا الى معطيات وزارة الداخلية ، كان يستشهد سنويا في عهد أ . لوبيس

ميكيلسين (١٩٧٤ ـ ١٩٧٨) على ايدي القتلة ٥٠ مواطنا في المتوسط ، وفي مرحلة حكم خ . س . تورباي ايال (١٩٧٨ ـ ١٩٨٢) ارتفع هذا «المؤشر» فبلغ حتى ٣٠٠ مواطن . والتعذيب الذي كان يمارس قبل ذلك في المناطق الزراعية بشكل اساسي اصبح يستخدم في كل مكان في اثناء التحقيقات . لقد فضحت القوى الديمقراطية في البلاد هذه الوحشية ، التي تحدث عنها العديد من تقارير هيئات الامم المتحدة المعنية

بمسائل حقوق الانسان ، ولجنة الصليب الاحمر الدولي وايضا تقارير هيئات الأمم المتحدة

المعنية بمسائل حقوق الانسان ، ولجنة الصليب الاحمر الدولية وايضا تقارير «منظمة العفو الدولية» ومنظمة المراقبة «امريكان ووتش» الخاصتين ، اللتين من الصعب الظن بانهما تتعاطفان مع اليسار .

حتى المؤسسات القضائية ومجلس الدولة الكولومبي ، اضطرت في بعض الحالات للاعتراف رسميا باستخدام التعذيب . وهكذا ، اشار قرار مجلس الدولة الصادر في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٨٥ ، فيما اشار اليه ، الى ان مسؤولية تعذيب الطبيبة اولغا لوبيس تقع بصورة مباشرة وغير مباشرة على عاتق الرئيس السابق توربای ايال ، والجنرال كاماتشو ليفي (كان في تلك الفترة وزيرا للدفاع) والجنرال فيغا اوريبا (القائد السابق للواء الخاص ، ووزير الدفاع فيما بعد) ، والعديد من الشخصيات المدنية والعسكريين من مختلف الرتب . ولمحاسبتهم احيلت القضية الى المحكمة العليا والى النيابة العامة والى لجنة خاصة من مجلس النواب . ولكن نتيجة للتلاعبات القانونية وضغط الطغمة العسكرية ، وصلت المحاكمة الى مأزق ولم تنته حتى الان ، ولكنها كشفت عن الدور المشؤوم للدوائر العسكرية المتغلغلة في اجهزة الدولة . وبموجب معطيات اللجنة الدائمة للدفاع عن حقوق الانسان قتل في عام ١٩٨٣ ـ ٥٩٤ مواطنا وفي عام ١٩٨٤ ـ ٥٤٢ مواطنا ، وفي عام ١٩٨٥ ـ ٦٣٠ مواطنا . وبلغ عدد «المفقودين» في عام ١٩٨٣ ـ ١٠٩ مواطنين ، وفي عام ١٩٨٤ ـ ٦٣٠ مواطنا ، وفي عام ١٩٨٥ ـ ٨٢ مواطنا كولومبيا ، وتعرض للتعذيب في تلك السنوات ٣٠٠ و٣٦٠ و٥٤٤ مواطنا على التوالي .

ليس ثمة لدى الادارة الحالية اية مؤشرات على تحسين الاوضاع . واضافة لذلك ، تتكشف وقائع جديدة عن الارهاب المعادي للشعب . والشيء المميز بشكل

خاص ، هو **اضطرار** الحكومة بسبب مأساة «المفقودين» (وصل عددهم في السنوات الاخيرة الى ٨٥٠ مفقودا) ، الى تحقيق في هذه الجرائم ومشاركة موظفي الدولة فيها . وبموجب قرار لجنة الامن القومي ، تم في وزارة الداخلية تشكيل قسم خاص مهمته تحديد مسؤولية الشخصيات الرسمية عن فقدان المواطنين . وتقوم النيابة العامة في كولومبيا بالتحقيق في ذلك ايضا . لكن ، باعتراف الجميع ، لم تحرز نتائج تذكر . كما تقوم المحاكم بالتحقيق في مسألة «المفقودين» ، لكن في غالبية الحالات ما زالت هذه التحقيقات في مراحلها الاولى .

لغم تحت الهدنة

لوحظ في عهد ادارة ب . بيتانكور (١٩٨٢ - ١٩٨٦) حدوث بعض التغييرات في حياة البلاد السياسية ، تتعلق بشكل اساسي بالسياسة الخارجية وبموقف الحكومة من حركة الانصار[٢] .

في مجال السياسة الخارجية عملت هذه الادارة على انضمام كولومبيا الى حركة عدم الانحياز ، كما لعبت دورا هاما جدا في مجموعة كونتادورا ، وبدأت توطد علاقاتها مع نيكاراغوا وكوبا . وكانت هذه الخطوات تعني بشكل عام الابتعاد عن النهج الموالي للامبريالية الذي سار عليه الرئيس السابق .

ودخل بيتانكور في حوار مع ممثلي حركة الانصار . وبعد المحادثات تم التوقيع على اتفاقية لوقف اطلاق النار واعلان هدنة بين السلطة ومنظمات الثوار . قضت هذه الاتفاقية باجراء تغييرات سياسية يمكن ان تساعد في الغاء نظام الحزبين واجراء اصلاحات اجتماعية حيوية هامة مثل الاصلاح الزراعي واعمار المدن ، واعادة النظر في تشريعات العمل وغيرها .

غير ان الامبريالية لاتريد ان تحل القضايا في امريكا اللاتينية بالطرق السلمية . فقامت من خلال تأثيرها على اوساط قيادة الجيش الكولومبي العليا ، والمجموعات الملتفة حولها من الاوساط المالية والملاكين الاكثر رجعية ، بشن حملة من الملاحقات والقتل ضد قادة المنظمات المسلحة التي انضمت الى تنفيذ الاجراءات السياسية بموجب اتفاقية وقف اطلاق النار . وردا على ذلك اخلت حركة ١٩ نيسان (ابريل) وجيش التحرير الشعبي بالهدنة ، وهو ما كانت تسعى اليه ، بشكل خاص ، الطغمة العسكرية . لكن القوات

المسلحة الثورية الكولومبية ، التي تضم في صفوفها فصائل كبيرة من الانصار ، والدفاع الذاتي للعمال ، وجبهتي جيش التحرير الوطني التزمت بتعهداتها ، رغم الاستفزازات . غير ان الهدنة تضرجت بالدماء .

لقد ادت مؤامرة اليمين المتطرف الى عواقب خطيرة جدا . ففي ٦ - ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥ استولى مقاتلو حركة ١٩ نيسان (ابريل) على بوغوتا على قصر العدل . ويعتقد الشيوعيون ان قيادة هذه المنطقة قد ارتكبت خطأ فادحا . فقد اظهرت اوساط الجيش العليا من جديد مؤهلاتها . اذ تم استرداد قصر العدل باقتحامه بالدبابات والاسلحة الثقيلة . وقتل في المعارك ليس الانصار وحدهم ، بل ورهائنهم ايضا ، اعضاء المحكمة العليا ومجلس الدولة ، والعاملون والزوار العاديون ، اي اكثر من ١١٠ اشخاص . والقليلون الذين بقوا على قيد الحياة اصبحوا «مفقودين» . وتتوفر ادلة كافية للاعتقاد بان افراد الحملة التأديبية قد نكلت بوحشية ببعض الاسرى والجرحى . وقد صرح الجنرال ساموديو مولينا الذي يشغل الان منصب وزير الدفاع ، في خلال زيارته الى شيلي ، بان اقتحام قصر العدل هو نموذج لكيفية مكافحة الارهاب .

«خطة كوندور»

بغض النظر عن تعزيز مواقع الطغمة العسكرية والارهاب الذي تمارسه ، فقد استمر في اثناء الهدنة تصاعد نضال الجماهير ، وتوطيد المنظمات الديمقراطية . التي تحقق نجاحات هامة على طريق الوحدة .

وقد اشار المؤتمر الرابع عشر لحزبنا (١٩٨٤) ان الهدنة لا تعني ابدا استسلام تشكيلات الثوار . فاتفاقية الهدنة اعتراف بالدور السياسي لحركات الانصار وشرعيتها كطرف في النزاع المسلح . وتصبح الاتفاقية عاملا محفزا لنضال الشغيلة الكولومبيين ، وتجعل النضال السياسي في البلاد راديكاليا[٣] .

ان اعداد الشغيلة التي شاركت في اضرابات عام ١٩٨٦ ، تعادل مجمل اعداد من شاركوا في السنوات العشر الاخيرة . كما قامت الطبقة العاملة بخطوة هامة لتوحيد صفوفها ، اذ تم تشكيل «المركز النقابي الموحد» . وقد انضم الى هذا التنظيم الذي يلتزم بالمواقف الطبقية النضالية ، ممثلو مختلف الاوساط السياسية .

ودعم الفلاحون مركز التنسيق الوطني للمنظمات الزراعية ، الذي طالب بتنفيذ اصلاح زراعي ديمقراطي حقيقي . وتجدر الاشارة بشكل خاص الى مسيرات الفلاحين التي انتشرتبشكل واسع . ويكشف مئات الالوف من المشاركين في هذه المسيرات ، عن التنكيل الذي تمارسه السلطات الرسمية في الريف ويطالبون بتأمين ضمانات لعملهم في ظروف آمنة والقيام فورا بحل قضايا الصحة والمواصلات والتعليم ، وتقديم السلف ، والكثير غير ذلك .

ويلاحظ تحرك ايجابي لنشاط مختلف المنظمات الاجتماعية في احياء الشغيلة ، وقد أسسوا في خلال اللقاء الوطني هيئة تنسيقية موحدة . ومن الممكن قول الشيء ذاته حول حركة الشباب والحركة التعاونية .

يعتبر تشكيل الاتحاد الوطني اهم حدث في حياة كولومبيا ، وهو تحالف مفتوح لجميع انصار التحولات الديمقراطية . وقد تمكنت القوى اليسارية المنضوية في الاتحاد من زيادة عدد ممثليها في البرلمان ، في الانتخابات الاخيرة . من نائبين الى اربعة عشر نائبا . كما انتخب من قائمة الاتحاد الوطني ايضا ٣٢٠ مستشارا في البلديات . وقد تم تحقيق ذلك كله رغم طبيعة الجهاز الانتخابي المعادية للديمقراطية وسيطرة الحزبين التقليديين عليه ، وظروف الملاحقات والعنف في المناطق التي يتمتع الاتحاد فيها بنفوذ(٤) .

وفي محاولة لوقف تصاعد الحركة الشعبية ، اعدت الطغمة العسكرية «خطة كوندور» التي تقضي بالتصفية الجسدية للزعماء السياسيين والنقابيين وقادة المنظمات الجماهيرية ، الذين يؤيدون الهدنة واشاعة الديمقراطية ، بتفجير مقراتها . ويجري تنفيذ هذه الخطة الاجرامية . وقد سقط على ايدي الارهابيين اعضاء اللجنة المركزية لحزبنا ر . كاستانيوول بوسادا و و . فارغاس ، والنائب في البرلمان ب . نيل هيمينس ، وحوالي عشرين مستشارا في البلديات . كما جرح ، بعد ان نجا من الموت صدفة ، اعضاء اللجنة التنفيذية للجنة المركزية اي . اورتادو و هـ . كايسيدو وأ . فاسيكس ، وعضو اللجنة المركزية والنائب البرلماني أي . برادا . وجرى تفجير مقري اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكولومبي ومنظمة الشبيبة الشيوعية . وقد استشهد في المقر العام للشبيبة خ . غارسيا ، القائد الشبابي . وجرت عمليات ارهابية مشابهة ضد بعض

النقابات ايضا .

اعترفت القيادة العامة للجيش ، بانه تم في العام الماضي قتل ٣٤٢ من نشطاء الاتحاد الوطني كما اشتبك الجيش والبوليس اكثر من ١٣٥ مرة مع تشكيلات مختلفة **للانصار** غالبيتها ، كما تؤكد وثائق القيادة العامة نفسها ، من المشاركين في الهدنة . وبكلمات اخرى ، فان الرجعية لا تحاول حتى ان تنفي ان الضربة الاساسية توجهها لمؤيدي ايجاد مخرج سلمي من الوضع المتأزم .

الحكومة تتواطأ مع العسكريين

في الانتخابات الرئاسية الماضية راهن اليمينيون على أ . هوميس اورتادو ، غير ان الجماهير الواسعة رفضت ترشيحه . وفاز في الانتخابات ف . باركو . وقد ادى انتصاره ونجاح القوى اليسارية الى تعميق ازمة نظام الحزبين ، وبشكل خاص «تقاسم المسؤولية» الذي اضفى عليه طابع شرعي . طرح الرئيس الجديد واقرب مستشاريه صيغة «الحكومة ـ المعارضة» التي تهدف الى التظاهر باي اختلاف مهما كان بين الليبراليين والمحافظين ، وادخال اي مظاهر المنافسة على الصراع السياسي .

وتتدخل الاوساط العليا في المناقشة حول تغيير النظام القائم ، علما بانها لا تتحمس كثيرا لاتخاذ خطوات حازمة لتصفيته . ومن الملاحظ ا جدا ان الليبراليين والمحافظين على حد سواء توقفوا عن الحديث حول الغاء المادة ١٢٠ من الدستور ، التي تثبت الصيغة الحالية لـ «تقاسم المسؤولية» ، واصبح الصمت يشمل ايضا تطبيق نظام الحزبين في مجالات اخرى للحياة السياسية في البلاد .

وقررت الرجعية بسبب هزيمة مرشحها «وضع الحكومة امام واقع الحرب الدائرة فعلا» وتشديد الارهاب ضد الحزب الشيوعي الكولومبي والاتحاد الوطني .

وقد اظهر الرئيس باركو ضعفه وعدم ثباته . وبالرغم من انه وافق اثناء اجتماعه بممثلي الاتحاد الوطني على ان مؤامرة اوساط قيادة الجيش العليا هي جزء من عملية واسعة تهدف الى تقويض استقرار حكومته ، الا انه لم يتخذ اية اجراءات عملية مضادة . وادان رئيس الادارة اعمال العنف ، ووصفها بانها «جريمة واساءة للمشاعر الديمقراطية» . وكان مجلس وزرائه . كما اعلن في مجلس النواب ، قد «اتخذ قرارات

ويقوم باعداد اخرى اكثر فعالية» لم يعرف عنها شيئا حتى الان . لقد اشار الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي الكولومبي ، المنعقد في كانون الثاني (يناير) ، الى ان سلبية الحكومة تدل على ميل البرجوازية الكبيرة لعقد صفقة مع الطغمة العسكرية[٥].

وفي الواقع فان سياسة «التهدئة ، وتصحيح الاوضاع الاقتصادية والوفاق الوطني» ، التي اعلنها باركو هي خطوة للوراء بالمقارنة مع نهج بيتانكور ، اذ يريد الرئيس الحالي عزل حركة الانصار عن الجماهير . ويستخدم لذلك الاموال التي تقدمها الولايات المتحدة الامريكية تحت ستار «اعادة تعمير» بعض المناطق . وجعل باركو عمل المنظمات التي وقفت ـ ولو بالاقوال ـ ضد الطغمة العسكرية ، مستحيلا . وهنا المصير كان مآل اللجنة التي شكلت لمراقبة الالتزام بشروط الهدنة . واشتدت حالة الحصار . واصبحت السلطات تطبق المادة ٢٨ من الدستور ، التي تقضي باعتقال اي مواطن دون اذن من السلطات القضائية .

الدفاع عن النفس والنضال من اجل سلام ديمقراطي

ردا على الارهاب طرحت اللجنة المركزية لحزبنا مهمة اقامة نظام دفاع للجماهير عن نفسها في المدن ، نرى ضرورة اتخاذ مجموعة اجراءات واسعة لشحذ اليقظة وزيادة الأمن الجماعي ، ومن الممكن تحقيقها من خلال لجان السكان والنقابات والمنظمات النسائية ، لاقامة علاقات وثيقة مع مناهضي الطغمة العسكرية من اوساط الليبراليين والمحافظين . اما فيما يتعلق بالريف ، فثمة خبرات وتقاليد غنية في هذا المجال ، لا تقتضي سوى انعاشها من جديد . وقد اشير في الاجتماع الكامل الاخير للجنة المركزية الا ان الدفاع الذاتي للجماهير هو سياسة مفتوحة للجميع ، تهدف الى حماية حق المواطنين في الحياة ، ضد عصابات القتلة المرتزقة[٦] . وبكلمات اخرى ، يربط الحزب بين مهمة الدفاع الذاتي ونهج التقارب مع الاوساط المعادية للنزعة العسكرية . ان النضال الجماهيري واحتجاج الشغيلة ، يجعل من الصعب تنفيذ المخططات الاجرامية . لكن احباطها بشكل تام لا يتم الا عن طريق اشاعة الديمقراطية في المجتمع بشكل حقيقي ، واجراء اصلاحات سياسية عميقة وفعالة .

وقد اشار هيلبيرتو فيرا ، السكرتير العام للجنة المركزية لحزبنا الى «اننا نقف مع

السلام الديمقراطي دون قيد او شرط ، السلام الذي سيضمن الحق الاساسي الاول من حقوق الانسان ـ الحق في الحياة ، وليس من أجل الخنوع والاستكانة للاستغلال ، بل في سبيل النضال الحر من أجل كولومبيا افضل . ويطمح الشيوعيون الى ان يروا كولومبيا وقد اصبحت بلدا ديمقراطيا عظيما وذا سيادة . لذلك نحن نؤيد استمرار الهدنة وحوار الحكومة مع الاوساط التي تسعى لتحقيق الحل السياسي والسلاح بيدها ، لان الحزب الشيوعي الكولومبي يعتقد بحزم ان سياسة «النار والسيف» في بلدنا لا يمكن ان تساعد الا على توسيع وتعميق الصدامات الدموية»[٧] ، نضيف فقط بان عملية اشاعة الديمقراطية لم تستنفذ قواها اطلاقا . والدليل على استمرارها ، انتخابات رؤساء البلديات التي ستجري في العام القادم .

لكن السلام ، بالتأكيد ، لن يكون مديدا ووطيدا ، اذا لم تعمل الحكومة على لجم المجموعات شبه العسكرية والاوساط الفاشية في القيادة العسكرية العليا .

لقد اعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكولومبي : «اننا رفعنا عاليا راية السلام الديمقراطي ، وسوف نتابع ذلك ، حتى ولو أفلحت الطغمة العسكرية في افشال الهدنة . وحينذاك ستقع كل مسؤولية هذه الخطوة الخطيرة على عاتقها بالكامل . ويجب على شعبنا ادراك ذلك بوضوح»[٨] .

ومما لا شك فيه ان مثل هذا التحول سيكلف وطني غاليا . فان تغيير الوضع السياسي في كولومبيا سيؤثر حتما في مجمل الاوضاع في امريكا اللاتينية . ومن الممكن ان تظهر في البلد الذي يحتل موقعا استراتيجيا هاما ، بؤرة توتر جديدة . اننا نناضل ، وسنناضل لايجاد مخرج سياسي من الاوضاع الناشئة ، ونحن على يقين من ان النضال في سبيل السلام الديمقراطي في كولومبيا لا ينفصل عن المعركة في سبيل السلام العالمي .

من الضروري لنا اليوم ، بشكل خاص ، تضامن جميع القوى الديمقراطية . ويجب ان تكون الاحداث في كولومبيا معروفة على نطاق واسع للرأي العام العالمي . وقد تتمكن الرجعية في فترات معينة من التزام الصمت حول ما يجري ، وتحقق خططها خطوة خطوة ، لقد لاحظ بابلو نيرودا ، عندما بدأت الفاشية ترفع رأسها في شيلي ان وطنه «فيتنام هادئة» . وهو ما يمكن ان نقوله الان عن كولومبيا .

(١) لمزيد من التفاصيل انظر هيلبيرتو فيرا . اشاعة الديمقراطية على جدول الاعمال . مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» ، ١٩٨٦ ، العدد ٥ ـ المحرر .

(١) لحركة الانصار في كولومبيا تقاليد نضالية عريقة . والنضال المسلح بمده وجزره ، هو الصفة الملازمة لمجمل تاريخنا المعاصر ، بدءا من عام ١٩٤٨ . وترتبط مرحلته الاخيرة باحداث اواسط ١٩٦٤ ، عندما كان في نية الدوائر الحاكمة ، وبايعاز من البنتاغون ، القضاء على الدفاع الذاتي في الريف . كان امام الفلاحين ذوي النزعة الثورية خياران هما الاستسلام ، او الرد على العنف بحمل السلاح . في تلك الفترة بالذات ظهرت حركة الانصار المنظمة .

(٣) punto de vista, 1984, no. 15, p.16

(٤) انظر الفارو فاسكيس . نجاح التحالف الوطني . مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» ١٩٨٦ العدد ٧ ـ المحرر .

(٥) انظر voz, 15 de enero de 1987, pp. 12— 13.

(٦) انظر ibidem.

(٧) ibid , 26 de febrero de 1987, p. 5.

(٨) ibid, 15 de enero de 1987, 12— 13.

●

الاتجاهات الرئيسية
في العمارة السورية

بقلم: آزاد علي

مدخل

إن أهم ما يميز صعوبة دراسة العمارة هو في تحديد مصطلح العمارة هذا التعبير الفضفاض الذي يشتمل ـ كمدلول ـ على جملة من العناصر والجوانب المتداخلة . ومعظم الدراسات التي تعالج هذه المسألة ، تقتصر في أغلب الأحوال على عنصر واحد ، أو تحاول تعميق العنصر الآخر وتضعفه في موقع الصدارة . فالتصنيف التاريخي وحتى الأكاديمي للعمارة كان ولا يزال يعتبر العمارة فناً من الفنون المكانية . مع العلم أنه ظهرت آراء عديدة تحاول قلب هذه المفاهيم وتفترض على هذا التصنيف لبروز مستجدات ومعطيات جديدة . ولو افترضنا أن العمارة هي «فن» فالمشكلة ما زالت باقية في تحديد شكل العمارة ومضمونها ، وفي مدى ارتباطهما الوظيفي وإذا كانت العمارة المعاصرة تصنف في اطار العلوم الهندسية والانشائية فلأية درجة تحتفظ بالجوانب الفنية ، وما هو مدى اتساع الهامش الفني والابداعي في هذا العلم «البناء والتشييد» ؟

إذن فالإشكال الأساسي يتلخص في اعتبار العمارة جزءاً من البناء الفوقي . باعتبارها فناً مستقلاً بذاته ، ويكتسب مشروعية التصنيف المكاني والزماني ،

وبالتالي القومي الى حد معين ، وتأخذ طابعاً ثقافياً وحضارياً يميز الشعوب الأمم عن بعضها . إن المنظور الماركسي للعمارة لا يمكن أن يعطيه استقلالية أكثر من اعتباره سمة تشكيلوية . والمهم في الفهم الماركسي للعمارة هو تصنيفها حسب البنية التحتية المستندة إليها . وكحل لجزء من الإشكال السابق لا بد من الإقرار التام بوجود عمارة في مرحلة العبودية وأخرى «إقطاعية» ثم البرجوازية ، داخل اطار العمارة القومي أو المحلي .

إننا لن نتعامل مع العمارة على أساس التصنيف القومي لا لأنه غير صحيح ، بل لأنه يتصل بالخصوصية الثقافية لأمة ما دون أن يتمكن من التقاط القوانين العامة المشتركة وذلك لا يتحقق إلا بالتصنيف من حيث الارتباط بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية . فاذا كانت عمارة الأمم مميزة بطابعها القومي على امتداد تاريخها بمجموعة من الخصائص الانشائية والجمالية والوظيفية ، فإن العمارة الاقطاعية في كافة بقاع الارض تحتفظ بسمات مشتركة قوية لدرجة تؤهلها لتكون أساساً للدراسة كوحدة مترابطة أكثر مما في التصنيف القومي ، مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الناشئة عن المناخ ومواد البناء والعوامل الجغرافية .

والموضوع لم يُحسَم بعد . فالعمارة تملك في ذاتها خاصية فريدة ، إذ لها جذور عميقة في البنية التحتية للمجتمع ولا تنفصل عن أدوات الانتاج : «المشاغل القديمة ، الصوامع والمستودعات ، أكواخ تربية الماشية ، الترع ، الطرقات والقناطر ، مباني المصانع المعاصرة ، الأجزاء الهيكلية من المنشآت الصناعية ، السكك الحديدية والمحطات . . .»

ثم تصعد لتدخل في الحلقات الأكثر تميزاً من البنية الفوقية «المعابد والنصب ، دور العبادة القديمة والمذابح الكنائس والمساجد ، المزارات وشواهد القبور ، المنشآت الثقافة والرياضية ، الأبنية السلطوية والمحاكم . . . .» . مروراً بالمساكن العادية والفخمة المخصصة للسكن . وهذا يخولنا أيضاً الشروع في إيجاد تقسيمات أخرى للعمارة على الأسس الوظيفية .

ولا نود من هذا المدخل الدوران في مسار دائري لننقض أفكاراً معينة

ومناهج محددة ، ومن ثم إيجاد البدائل والمصطلحات ، لأننا سنخرج عن النطاق المرسوم للبحث ، بقدر ما نرى أن التذكير بها مهم ومساعد على دخول البحث بكل ما يستحق من علامات الاستفهام . وأن نتعامل مع العمارة على أنها ليست تلك الظاهرة المحددة والمتماسكة والمعروفة والمتجسدة في بعض الرموز والهياكل الصنمية . . . بل هي ظاهرة اجتماعية أولاً وأخيراً وهي إطار ناظم لاستقرار المجتمع في أكثر الأشكال دقة وحتى للعلاقات التي تربط بين أفراده إلى جانب ذلك أن لا نخشى من اعتبارها سلعة ومنشأة صنعية ، ومرتبطة بوشائج متينة مع العلوم بصيغها العملية اليدوية سابقاً والفيزيائية النظرية اليوم . والعمارة مرتبطة بعلاقة ديالكتيكية في منتهى الوضوح مع علاقات الانتاج والنمط السائد منهما .

وأخيراً ما زلنا أمام مسألتين متعلقتين بالعمارة ، الأولى مسألة الشكل وسيطرته على مفهوم العمارة ذاته تاريخياً وهو بحاجة لإعادة النظر في نواحيه الجمالية والمعرفية وأدواره التعليمية والتربوية منها والقمعية وذلك بالرجوع عكسياً من أشكاله المعقدة إلى البسيطة الأولية ، والأخرى : تتعلق باستقلالية العمارة كمفهوم عن المدينة ، صحيح أنهما مدلولان مختلفان ولكن الصحيح أيضاً أن لا تتم دراستهما الواحد بمعزل عن الآخر على اعتبار العلاقة الرابطة بينهما هي العلاقة التي تكون الكل من الجزء .

أول خطوة نحو وضع الأسس الصحيحة لدراسة العمارة السورية ، هي ربطها بمحيطها الحضري ريفاً كان أم مدينة ولكن المدينة تبقى الأساس في تفاعلها مع العمارة ، والبيئة التي تنتعش فيها العمارة وتتبلور سماتها ، لذلك من الضروري التذكير بالبدايات الأولى للمدينة السورية وبالتحديد بعد الفتح العربي الاسلامي ، متجاوزين المدارس العربية في انشاء المدن سواء كانت في الجزيرة العربية أم في أطرافها . مثل مدينة «بصرى» التي تعتبر رومانية الطراز عربية الطابع والمنشأ .

وأول ما يلفت النظر أيضاً هو مفهوم الاسلام للمدينة بصيغتها الميتافيزيقية الجاهزة ، التي تتداخل فيها المسائل الهندسية المعمارية والفلسفية الفكرية : مدن

فاضلة وطيبة ومدن فاسقة ، علماً أن كلمة المدينة لا تَرِد كثيراً في القرآن مثلما تَرِد لفظة «القرية» . فثمة نزوع اسلامي واضح نحو القرية . ومما يدل عليه مشروع عُمر الحضاري «الجلوس تحت الشجرة» الذي لم يُكتب له النجاح . وكذلك موقف أبي ذر الغفاري الذي لم يكن من المشجعين للسكن في المدن ، ويحذر من فساد الحياة فيها . وتطورت هذه المواقف فيما بعد لتتحول الى خلافات فقهية في الاسلام . والتخوف الناجم من شرور المدينة تجسدت وترجمت عملياً في بناء مدن جديدة بجوار المدن القديمة ، لذلك لم يكن الاسلام مشروعاً لحضارة «قروية» بسيطة فحسب ، بل عملية بناء متكاملة حتى في مجال بناء وتخطيط المدن . ولن نبالغ إذا قلنا أن المدينة العربية الاسلامية جاءت ارتجالية ، فمدينة «القرار» ، كمعسكر للجنود الفاتحين إلى جانب قيامها بالوظائف الدينية والادارية الجديدة . تحولت أخيراً إلى أداء الوظائف الاجتماعية الاقتصادية حيث كان استمرار وجودها مرهوناً بهذه الوظيفة الهامة الأخيرة .

والمدن العربية المستحدثة في بدايات الاسلام السورية منها (الجابية قرب دمشق ، دابق شمال حلب» اضمحلت للأسباب السابقة . كما ظهرت وانتعشت مدن أخرى كالرقة والرافقة والرصافة .

ولسنا هنا بصدد دراسة تلك المدن من نواحيها المعمارية بالتفصيل . ومدى تأثرها وارتباطها بالمدارس المعمارية المتوارثة محلياً ، لأن المهم هنا أن تأكد على أن التحولات التي تحدث في الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية وظهور دول وحضارات جديدة ، لا تشكل ثورات وانعطافات حادة في مسائل تتسم بالثبات والثقل النوعي كالعمارة .

إن القفزة التي أحدثت في البنية الفوقية ، والتي كان الاسلام كمحصلة لها لم تستطع أن تحمل معها حلولاً لكافة المسائل والجوانب الحياتية بصيغها الجذرية ، باستثناء الأمور الدينية والمعتقداتية ، خاصة تلك التي تشكل خطراً حقيقياً على الدين ، كالأصنام والأوثان والمعابد . فالعمال والحرفيون العاملون في مجال البناء والتعمير ظلوا هم أنفسهم . ومن البديهي أن المناخ ومواد البناء لم تتغير . كما أن

التحولات السكانية والاثنوغرافية لم تكن حادة في بدايات الفتح . لذلك فإن العمارة المحلية لم تتبدل كثيراً في سوريا عندما دخلها الاسلام والجنود الفاتحون . وانحصرت التغييرات في العمارة الدينية والسلطوية على شكل تعديلات .

ولن نتخوف إذا قلنا أن المشروع الاسلامي للمدينة والعمارة رغم عدم تكامله الضمني . تعثر وانحل ففي المحيط الجديد وفي خضم حركة العمران المتسلسلة ، خاصة بعد رحيل الجيل الأول من المسلمين المتقشفين .

وبدءاً من الخلافة الأموية كما تذكر المصادر التاريخية فإن أول خليفة أموي سكن القصر الروماني بدمشق بنى الجامع الأموي على أنقاض كنيسة قديمة كانت قد بنيت بدورها على أنقاض معبد قديم . علماً أن مسجد الرسول كان من الطين وسعف النخيل وشارك بنفسه في تشييده .

مع توسع الدولة العربية وترسخ الحكم الأموي ، بدا الشرخ القائم بين البنية الفوقية والتحتية يلتئم وتوازنت علاقات الانتاج لتنسجم مع الدين والنظرة الجديدة للعالم . وانعكس كل ذلك على العمارة والأبنية ، فخضعت لظروف جديدة . وانقسمت حسب التمايز الاجتماعي انقساماً ملموساً .

المرحلة الأخرى التي أثرت بعمق على العمارة السورية هي مرحلة الحروب مع الأفرنجة وسيادة العمارة العسكرية في عهد الأيوبيين ، كالقلاع والحصون والمشافي «البيمارستانات» والمدارس التي أنشئت لمحاربة المذهب الشيعي اتَّسَمَتْ إجمالاً بالبساطة وقلة الزخارف وتم فيها تغليب الوظيفة على الشكل .

ويمكن أن نضيف أن العمارة السورية في العهدين الأيوبي والمَمْلوكي تحولت بشكل أساسي إلى عمارة عسكرية منيعة الشكل ، كما ساهمت في تشكيل اقطاعات وأمارات مركزها القلاع والحصون ، وابتعدت عن مركزية المدينة السورية فكانت صيغة مصغرة ولها طابع مميز عن دولة المدينة في العهود السابقة لمرحلة ما قبل الاقطاع . ومما ساهم في جمود العمارتين الريفية والمدنية كونهما أكثر عرضة للخراب والدمار الناتجة عن الحروب الصليبية . ولجأ جزء هام من الشعب للاهتمام بها . ومع أن الحروب الصليبية أدخلت العمارة الاوروبية العسكرية إلى الساحل

السوري إلا أن دورها كان مثبطاً بشكل أكبر . ومنعت التطور النموذجي المرتبط بالبنية التحتية للعمارة السورية ، وحجبت عنها التطور العضوي الداخلي والتفاعل الخارجي .

بعد استقرار الأوضاع ، انتعشت التجارة عبر سوريا ، وتراكمت في خزائن المماليك والتجار سيولة نقدية وظفت للترفيه والبذخ . فظهرت منشآت معمارية مبنية بأكثر الأساليب زخرفةً وبهرجةً .

ولا شك أن لأصل المماليك وثقافتهم وقيمهم دوراً هاماً في ظهور تلك النماذج ، كحبهم للألوان وللزخارف ولم تعرف العمارة السورية طوال تاريخها مدارس وحرفيين وحضارات عديدة كونتها وصقلتها فحسب بل عرفت أيضاً ، لظروفها الخاصة ، توافد القيم الجديدة ، وحتى سيطرتها . فكتب التاريخ مليئة بالأمثلة التي تبرهن أن المنشأة المعمارية كانت تبنى حسب طلب الحاكم أو المالك وذوقه ولو كانت عامة مثل المساجد والخانات والمدارس .

في مطلع الحكم العثماني سيطرت العمارة الأبدية والنموذج المتشكل تاريخياً واستقرت وقامت بدور الهيمنة الفنية واحتلال الذاكرة الجمالية للجماهير أن جاز التعبير . واضافات العثمانيين ودورهم في مجال تطور العمارة السورية . رغم المبالغة بهذا الدور من قبل البعض . يظل محدوداً ومحصوراً في هامش التعديلات وإدخال التحسينات وظهور أشكال معمارية مستجدة كالتكايا . وقاموا بنقل بعض المؤثرات ذات الجذور البيزنطية عن أصولها في الأناضول .

إن طبيعة حكم العثمانيين الاقطاعي الاتوقراطي . ساهمت كثيراً في تجميد القوى المنتجة السورية وشلها وتحنيط العلاقات الانتاجية والاجتماعية وارهاق المواطنين ورعاية السلطنة بالضرائب ، مما أدى إلى ضمور شخصية وكيان القرية والقصبات الصغيرة واضمحلالها من كافة النواحي تقريباً . وتنامي هيمنة المدينة الاقتصادية والسياسية ، إذا استقطبت ما تبقى فيها من الحرفيين والعمال المهرة في مجالات البناء والنجارة وصناعة الأثاث والرياش والمنسوجات اليدوية وحسب قانون التمركز شيئاً فشيئاً ، ويوماً بعد يوم ، تم نقل هذه الطاقات الإبداعية

وتجميعها في المدن الكبيرة فالأكبر حتى تركزت مجمل الفعاليات الاقتصادية - هندسة والحرفية في المدن العثمانية الرئيسية كاستنبول وقونية وأنقرة . فامتصت بذلك الجزء الأكبر من الطاقة الفنية - الصناعية للبلاد العربية وسوريا منها بشكل خاص ، لقربها ، وكذلك خبرات الشعوب الأخرى المجاورة للأناضول الغربي كالأرمن والأكراد وشعوب البلقان واليونان ، ووظيفتها لبناء القصور والمساجد على ضفاف بحر مرمرة ، والتي تميزت بتراكم غريب للقيم الفنية والجمالية للمراحل السابقة محلياً وللشعوب سابقة الذكر لاحقاً . وبالمقابل بنيت منشآت مماثلة صغيرة ومتواضعة نسبياً في مراكز الأقاليم التابعة فاذا أخذنا معمارياً واحداً مثل «سنان باشا» وقارنا ما بناه من مساجد في حلب ودمشق واستنبول نكتشف أنها متباينة تماماً من حيث الحجم ونوعية مواد البناء وكثافة الزخارف إذ استأثرت مدن الأناضول الغربي بالحصة الرئيسية والاهتمام الأكبر .

وباختصار تم في العهد العثماني تبلور الشكل والطابع الطبقي للعمارة بصورة أوضح ، وجرت عملية ربط البنّائين والمهندسين بآلة سلطتها ، وتجميعهم . فنجم عن ذلك فقدان القرى والحضريات السورية الصغيرة قيمتها وخصوصيتها المعمارية والجمالية ، ورافق ذلك الفقر ، واعتماد الفلاح على نفسه ببناء منزله وبمساعدة أهله والنساء في معظم الأحيان . فكانت ردة حقيقية في عمليات التعمير وطرائق التشييد ، اذ لجأ العمال والفلاحون الى أكثر الاساليب بدائية لبناء مساكنهم . ولنتذكر بأن العمارة والمنازل لها خاصية تتطلب خبرات عالية ومتعددة الجوانب لتظهر كاملة ، وتتطلب الى جانب ذلك طاقة مالية ومواد بناء ذات خاصية تتحمل عوامل الطبيعة وقابلية النحت او الزخرفة ، وهذا ما لم يتوفر للفلاح ، بعكس النواحي الحياتية الاخرى . فقد يكون بمقدوره تزيين المنزل مع زوجته بواسطة منتجات يدوية «منسوجات ، ستائر ، ومخدات» في حين أن بناء منزل متوسط الصفات تتطلب حجارة ونحّاتين وعربات نقل وأدوات ومواد التسقيف . . . وهذا ما لم يكن تأمينه ممكناً حتى لمن ينتمي للطبقات الوسطى . ان القهر الاقتصادي

الذي عاناه الفلاح وابناء الاوساط الشعبية السورية لم تفسح ، المجال ليفكر بالكماليات والمسكن «الجميل» .

في المحصلة اكتسبت العمارة السورية الريفية والحضرية طابعاً عفوياً تُبنى من قبل عامل ماهر وبمساعدة اهل المنزل لانجازه ومن ثم القيام بالمهام الاساسية النفعية والوظيفية المباشرة .

ونعتقد انه طوال الحكم العثماني ان التزايد السكاني استوعبته المنازل الكبيرة القديمة وبعض الخانات التي حُوِّلت في أواخر هذا العهد الى سكن لبعض العائلات الكبيرة .

وتتلخص النقطة الهامة التي نود الاشارة اليها ، وهي ذات طابع نظري ، هي في عدم وجود دلائل تشير الى أن العثمانيين قد دعموا العلوم الهندسية في مجال البناء والتعمير ، بالعلوم النظرية من فيزيائية ورياضية ومقاومة المواد ، والتي تقدمت كثيراً في أوروبا المعاصرة آنذاك ، كي تستند طرق البناء الكلاسيكية الى علوم ثابتة وتخضع للدراسة المتطورة باستثناء بعض المعاهد المصرية في عهد محمد علي وفي تركيا نفسها .

ومهما أسهبنا في الحديث لا بد من الاعتراف بأن التاريخ الفردي للعمارة السورية سيظل قاصراً خاصة إذا شملت المراحل السابقة للرأسمالية . حيث كانت معظم عمليات البناء الهامة طوال الحقب التاريخية مهمة إدارية وسلطوية وخاصة في التشكيلتين العبودية «دولة المدينة» والاقطاعية «الامبراطوريات المدينة» . ولانها لم تكتسب استقلالها النسبي إلا في عهد البرجوازية ومع التراكم الرأسمالي في المجتمع . إن البرجوازية هي التي أدخلت التقسيم الوظيفي الاجتماعي والاقتصادي الى العمارة ، من مجمّعات سكنية ، الى المنشآت العائدة للعامل . فالتشعب المعماري والانزياح والافتراق عن العمارة السلطوية حدثت بشكل واضح في عهدها . لذلك يمكن القول إن هذا التقسيم الوظيفي للعمارة السورية لم يتبلور إلا في بدايات هذا القرن . ولم تعد معها العمارة تمثل العلاقة بين الانسان والمحيط فحسب بل ادخلت في المعادلة عنصراً جديداً في غاية الاهمية ألا وهي التكنولوجيا

الخدمية والآلة .

فلنحاول ان نحدد بشيء من الدقة بما هو متوفر لدينا من دلائل البدايات والاسس الاولى للعمارة السورية والتي هي في الواقع صلب دراستنا .

ان الشواهد المعمارية والنصوص التاريخية تبين ان العمارة الحديثة بدأت في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر . فماذا يقصد بالعمارة السورية الحديثة واين تحققت ؟ لقد أجريتُ منذ عامين بحثاً لحي «العزيزية» في مدينة حلب وكان الهدف ولايزال التعرف بشكل واضح على بعض سمات العمارة السورية الحديثة ، باعتبار ان الحارة تمثل حالة نموذجية الى حد معين للكشف عن آلية دخول اهم مميزات العمارة السورية المعاصرة وتشكلها ، وتسليط الضوء على التداخل المعماري والتزاوج الفني بين العمارة الاقطاعية القديمة والبرجوازية الحديثة . وجدير بالذكر أن حي العزيزية يحوي نماذج معمارية حديثة تميز مدينة حلب وحدها . وأفضل سبيل للتعرف على الحي نذكر ما أورده الغزى في كتابه «نهر الذهب في تاريخ حلب» .

محلة العزيزية (خ) عدد بيوتها /٢٠٥/ هذه المحلة في الغرب الشمالي من حلب ، حدها قبلة الجادة العامة الآخذة الى محطة الشام ، وشرقاً مقبرة اللاتين ومقابر المسيحيين ، ومحلة الصليبة الصغرى ، وشمالاً بستان القبار وبستان الريحاوي ، وغرباً بستان الحجازي وبستان كور مصري وبستان العويجة . كانت هذه المحلة صحراء واسعة ، عهدنا ان في موضع منها يعرف بأرض المشنقة كان يجري سباق الخيل في فصل الربيع ، وكان الجبل الواقع في إلشمال منها المطل على نهر قويق الراكب عليه طاحون الطبقة الجاري في وقف المدرسة العثمانية ، موضعاً يتفسح فيه النساء في فصل الربيع ، وكان الانسان لايجرأ على المرور في تلك الجهات بعد غروب الشمس خوفاً من اللصوص وقطاع الطرق ، ثم في حدود سنة ١٨٦٨ م ـ ١٢٨٥ هـ ، فتحت الحكومة في مدينة حلب مكتباً لتعليم الناشئة بعض المهن اليدوية ، كالخياطة والحياكة سمته (اصلاحخانة) فاردات ان ترصد له جهة ، دخل يقوم بما تصرفه على انشائه ولوازمه فأعلنت بانها تبيع الجبل المطل على

النهر وكان يعرف بجبل النهر وهو في ذلك الوقت من الاراضي الأميرية الموات التي لا يتصرف بها أحد ، فأقبل على شرائه جماعة من تجار المسيحيين واشتروه بقيمة زهيدة اذ لايرغب بشرائه غيرهم من تجار . ثم قسموه فيمابينهم فكانت قيمة الذراع المربع منه لاتزيد على قر ش و قرشين . ثم بدأ فيه بناء الدور والمنازل وتتابع العمران واصبحت السكن في هذه المحلة عند المسيحيين عادة متبعة ، فلم يمض غير قليل من الزمن حتى ازدحمت المباني في تلك العَرَصات الفسيحة ولم يبق شيء من ارض جبل النهر - فمال الناس إلى البناء والغراس في ارض من البساتين المجاورة كبستان الحجازي وبستان كور مصري وبستان القبار وغيرها ، وامتد العمار الى ارض المشنقة الجاري نصفها في اوقاف الحلوية والى بعض عَرَصات من اوقاف الجامع الكبير ، واتصلت هذه المحلة من بعض جهاتها بالحارات القديمة من حلب واصبحت كأنها بلدة مستقلة تعتبر من أعظم محلات حلب وأوسعها شوارعاً وأفخمها منازل قد اشتملت على دورٍ عظام بين الطراز القديم وبين الطراز الجديد فترى الدار فيها ذات قصور فخمة مطلة على الشوراع الواسعة والجواد الفسيحة وعلى حوش خاص بها ذي حديقة ومرافق ، وكثير من دورها ذو طبقات ثلاث يسكن في كل واحدة منها عائلة كبيرة ، وهي الان خاصة بسكن المسيحيين من أعيان وتجار وفيها بعض الأسر من اعيان المسلمين» .

ومما سبق ، يمكن القول مع بضع التحفظ : ان حي العزيزية هو المشروع المعماري السكني للبرجوازية التجارية السورية في نهاية القرن الماضي . وهي في جميع الأحوال ، من حارات المرحلة الانتقالية لذلك تظل محتفظة بمواصفات «الانتقالية» من تداخل بين القديم والحديث والأسلوب التوفيقي والتهجيني في البناء .

وكون بداية ظاهرة العمارة الحديثة جاءت على يد بعض التجار المسيحيين سواء كانوا من اصل اوروبي ام سوري فانه يدل من جهة اخرى على الرفض الضمني لنظام العمارة العثمانية وبالتالي لنمط الحياة في السلطنة العثمانية إضافة الى النزوع العصراني وتقليد الغرب «المتمدن» وكانت الأجواء مهيأة عند البرجوازية

التجارية السورية للتحديث والانبهار بكل ماهو قادم من أوروبا دون تمحيص أو تدقيق .

ان برجوازيتنا الفتية تلك لم تكن من القوة لتطرح مشروعها الحضاري والسياسي ، فظلت ناقلة لأمراض الاستهلاك والتقليد في طفولتها . ومن أول تلك الامراض كانت تبنى العمارة المدينية الطابقية عمارة الشقق ، دون دراسة ودون ادخال تعديلات جذرية . ونحن لم نتجاهل ، وبالرغم من ذلك ، تلك العوامل الهندسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية الطائفية ، التي أثرت بقوة على العمارة وعلى التجمع والتقوقع في حارة ضيقة نسبياً وادت الى تراكم سكاني مكثف .

تواجدت في العزيزية مساكن مبنية على الطراز العثماني الاقطاعي الى جانب منازل ريفية عربية ذات صحن تحيط بها الغرف من الجهات الاربع في الغالب ، كبيرة وبحاجة الى خدم وعاملات تنظيف المساحات الكبيرة ، واشتركت مع الطابقية الحديثة بأنها كانت مبنية من الحجر الكلسي المنحوت المطاوع للزخارف ونجد في الحارة الزخارف العربية والمشرقية تجاوز الاوروبية وزخارف عصر النهضة الواجهة نفسها . هذا التشابك نلمسه في منزل التاجر اليوناني الاصل «بيت هندية» . إذ تم بناء الطابق الاول والارضي فيه حوالي عام ١٨٨٠ م من قبل مهندس يوناني يدعى «كاستولايادس» . كما تم البناء بطابق ثالث عام ١٩١٨ م وبلغت كلفة البناء التقديرية حوالي /٢٠/ الف ليرة ذهبية عثمانية . ويجب أن لا يغيب عن الذهن أن التصميم الهندسي كان لمهندس أوروبي وتم التنفيذ على يد حرفيين وحجارين من مدينة حلب . والمؤثر الأخير على عمارة الحي ، وعمارة حلب عموماً ، جاء من البعثات الكنسية التي بنت عدة كنائس في الحي ، مثل مدرسة الرهبنة البيضاء التي أسستها هيلانة المولودة في بريطانيا عام ١٨٣٩ م . ومدرسة الراهبات «ماريوسف» حيث حضرت الراهبة «دي لاباريسيون» الى حلب عام ١٨٨٥ م للاشراف عليها . وهذه المدارس ـ الكنائس كانت عبارة عن نسخ معدلة ومصغرة للكنائس الاوروبية ، وساهم إنشاؤها في التأثير المباشر على العمارة المدنية اللاحقة ، اذ استفاد بعض المعماريين من عناصرها الانشائية والتزيينية .

أما الابنية البرجية الصغيرة «المطبقيات» وهي عبارة عن شقق سكنية منعزلة مؤلفة من ثلاث غرف الواحدة فوق الاخرى يربطها درج داخلي ضيق رغم سوء تصميمها وصعوبة السكن فيها فنعتقد أنها ناتجة عن ضيق المساحات ونوعية مواد البناء الحجر الذي يتحمل الضغط . وحتى الطابع الاجتماعي للعائلات الصغيرة التي سكنتها .

وإضافة الى كل تلك الانماط في الحارة منازل شعبية «الأكشاك» وهي ظاهرة غزت مراكز المدن السورية الكبيرة في نهاية القرن الماضي وهي عبارة عن منازل شعبية خشبية بالكامل أو أجزاء منها ، في الطابق الأول ، لتوسيع المبنى لتوفر مادة الخشب والمهارات اللازمة لتنفيذها ، إذ كانت الاخشاب تنقل بكثرة في تلك الفترة من غابات اللاذقية والساحل السوري إلى مدينة حلب . اذن يمكن ترجيح كفة النقل والتقليد في ظهور العمارة الحديثة في المدن السورية الكبيرة بدءاً من نهاية القرن الماضي حتى مطلع القرن الحالي ، بضغط من العوامل الداخلية وفاعليتها من مختلف النواحي وبعد دخول الفرنسيين كان من البديهي ان تسود المدرسة الفرنسية في البناء وأعمال تخطيط المدن والمساحة العقارية مع الاحتفاظ ببعض الخصوصيات المحلية الناتجة عن مواد البناء والمناخ ومطاليب أصحاب المنازل .

والمهم على الصعيد العلمي الهندسي في مرحلة الانتداب ، هو ظهور البرجوازية العربية السورية وتبلور علاقتها الاقتصادية وأهدافها ، فقد أوفدت ابناءها للدراسة الهندسية في الجامعات الفرنسية والجامعة الامريكية في بيروت . وكانت أول نتائجها السيئة حدوث انقطاع بين المعارف المعمارية المتوارثة والعلوم الهندسية الاوروبية النظرية ، وحدوث الانعطافة الحقيقية عندما هَيْمن هؤلاء على البلديات والتخطيط الحضري . وعلى الرغم من حركة البناء المتباطئة الا انهم تركوا بصماتهم على المدينة ورسموا خطاً لتطور العمارة من كافة الجوانب ، ثم توجت هذه الجهود الطبيعية في عهد الانتداب ، بانشاء كلية الهندسة في حلب باشراف رعيل المهندسين انفسهم وبعدها لم تعد التبعية اقتصادية او سياسية فقط بل علمية وأكاديمية ايضا وواقعا لا يمكن تجاوزه ، وهو أن فرنسا أصبحت مصدراً

للمنهل العلمي .

وقد لا تكون هذه التبعية صحيحة تماما في مجال العمارة ، صحتها في المجالات الهندسية الاخرى باعتبار أن للعمارة جانبها الفني الجمالي . ومع ذلك لم تبرز بين المهندسين المعماريين اتجاهات فكرية ـ جمالية صريحة تدعو الى إبداع تصاميم وسمات «وطنية» للعمارة السورية . ولم تستطع ربط افكارها تلك ـ ان وجدت ـ بالحركة الوطنية الديمقراطية ، على اساس ان العلم منفصل عن السياسة ، وخاصة العمارة التي كانت ابعد ما تكون عن طروحات من هذا النوع في الظرف السائد . صحيح أنه ظهر في مراحل مختلفة نزوع عند بعض المعماريين لاستنباط التصاميم من عمارة التراث . وحتى العودة الاستاتيكية إليها ، إلا أنها ظلت أسيرة الرؤية السلفية وفي اطار المشروع الثقافي والنهضوي الاسلامي .

ان صعوبة بحثنا تكمن في عدم القدرة على تتبع الحركة العمرانية بعد الستينات ومطلع السبعينات عندما توجهت قوافل القرويين الى المدن الكبيرة وخصوصا العاصمة ، إثر استلام البرجوازية الصغيرة ذات المنشأ الريفي السلطة السياسية ، ولم تتضح في ذهنها التوجهات العمرانية والسكنية : هل تريد حضارة الريف او المدينة ؟ . وأدي ذلك الى انتعاش كافة الاتجاهات الجنينية في العمارة السورية ، باعتبار السلطة لم تقف عائقا أمام تقدم أي اتجاه فيها . وتعتبر عمارة التقدم الاجتماعي ـ إن جاز التعبير ـ وكذلك عمارة الأحياء السكنية الجديدة «الجمعيات السكنية» علامة بارزة في العمارة المدينية السورية ، ونقطة انعطاف في تاريخها . . ورغم ارتجالية القرارات وعدم إبداعية التصاميم الهندسية ستظل ظاهرة ايجابية ساهمت في رسم هيكل جديد ومنظم للمدينة والحارات ، باعتبارها تحدد وتنظم نمط الحياة وعلاقات الجوار وتهييء المناخ للعيش في مجتمع مديني اشتراكي لاحقا . وما نقصده بهذا الصدد هو هيكلية المدينة وطابعها العمراني والوظيفي . فالأقسام والمحاضر المبنية المشتركة تتوسع على حساب تضايق الاجزاء الخاصة .

ولم يقتصر الموضوع على الحارات بل ظهرت مدن عمالية على هذا الطراز مثل

مدينتي «الثورة» في محافظة الرقة و«الرميلان» في محافظة الحسكة . وعندما لم تتسع حارات التقدم الاجتماعي لقوافل القادمين من القرى من موظفين وعمال ، تشكلت في أطراف المدن عمارة عشوائية ، عمارة طفيلية وخاصة على محاور الطرق المؤدية الى المناطق وساعد هذا النموَ الانفجار السكاني والاصطفاف الطبقي .

حتى اصبحت حارات الحضيض وأحزمة البؤس سمة تميز المدن السورية المعاصرة الكبيرة منها والمتوسطة : ابنية من البلوك الاسمنتي ، جدران مترابطة بفوضى ، وأسقف من الصفيح أو البيتون المسلح . حيث توفر الفولاذ في الاسواق بأسعار متدنية . كما افتقرت تلك المنازل للشروط الصحية والسمات الجمالية . لانها لم تدرس بعناية اذ بنيت تحت ضغط الحاجة وبالسرعة القصوى خوفاً من المخالفات وبلد وزرات البلدية . واتسعت كثيرا في مدينة دمشق بسبب الكثافة السكانية الناتجة عن مستلزمات الدفاع حيث قسم كبير من المقاتلين والضباط في الجبهة يعودون الى المدينة مساءً ، او يسكنون دمشق بشكل دائم .

ان هذه الظروف ادت الى توسع حارات الحضيض الطفيلية جعلتها تحت رحمة الفوضى واللا تنظيم العمراني . كما ان القروى القادم من الريف تناسى ما تبقى لديه من قيم جمالية وتذوق ريفي للمسكن باعتبار أنه يعاني تاريخيا من عقدة الدونية تجاه المدينة كظاهرة مترابطة . ويكتفي بمجرد السكن فيها بغض النظر بمواصفات منزله الخاص ويعوض هذا النقص بالنظر في معالم المدينة من ابنية برجية واضواء وآرمات ، وشوارع وارصفة . ويقنع نفسه بتوفر الخدمات التي تفتقر اليها القرية ، الى جانب العامل الاهم هو فرصة العمل ومصدر العيش . إذن كل هذه العوامل مع تذكر نزوح عدد كبير من المواطنين من الجولان المحتل ، ادت الى حدوث تزاحم سكاني غير منسجم مع تطور القوى المنتجة . فكانت محصلة كل ذلك أن فقدت المدينة السورية وخاصة دمشق سمتها المميزة ، وضاعت في خِضم حركة التعمير ، النواة المدينية القديمة وتحولت الى جزيرة محاصَرة مهدَدة بالخراب وانقطاع الخدمات ، خاصة ان هذه النواة المدينية تختلف من غيرها ، فهي ريفية الطابع في دمشق لعدة عوامل . ودخلت معركة حضارية لم تكن مهيأة

لها اصلا ، فإما استيعاب الخدمات الحديثة من طرقات ومجار وتمديدات كهربائية وديكور داخلي ، وإما الاستسلام امام الارتفاع الهائل في أسعار اراضي البناء اعتبارا من منتصف السبعينات وتم بالفعل هدم عدد كبير من المنازل الدمشقية القديمة وكذلك الحلبية لاستثمارها وانشاء ابنية برجية . ولم يتخرب النسج المديني وطابع المدينة القديمة بذلك فحسب ، بل الجديد البديل جاء مشوها . لان ازقة المدينة القديمة وفراغاتها ومقاسمها لم تكن مهيأة لابنية تتجاوز الطابقين . فحدث خلل معماري وظيفي وجمالي . فألقت الابراج ظلالها على الازقة والساحات ولم يعد هناك اي تناسب بين البعد المعماري الشاقولي والافقي ، ولم تعد الشوارع ولا المجاري تتحمل الكثافة السكانية الناتجة عن السكن الشاقولي .

ان السياسة العمرانية والسكنية تلك ، افقدت المدينة السورية قيمها الجمالية وخصوصيتها المعمارية والحضرية وجاء الجديد على انقاضها تجاريا سِلعيا مشوَّها . ولم يرتق قط الى مستوى المدينة الحديث المتكاملة والمتناسقة لقد عصفت الاحداث بكيان المدينة القديم ، ولم تفرز العلاقات الاقتصادية الاجتماعية المدينية بديلها الحضاري المنسجم معها داخليا .

ولكي لا نوسع بعض جوانب البحث على حساب الجوانب الاخرى ، سنحاول التطرق بايجاز الى بعض الاتجاهات المستحدَثة في عمارة المدن السورية . وعودة للحديث عن التمايز الطبقي في عمارة المدينة ،فإن عملية غربلة يومية تجري في المدينة لتوزيع السكان وفصلهم عن بعضهم . ففي الوقت الذي تتوسع أحزمة البؤس ، تنمو حارات الاغنياء «الغربية» بشكل خاص في المدن السورية الرئيسية الأربع . ينجذّب إليها كل من تحسّن وضعه المادي وارتقى السُلّم الاقتصادي ولقد ساهمت البرجوازية العقارية السورية في توجيه التوسع نحو الغرب من مدن حلب وحمص ودمشق . . . الخ . بعد ان حصلت على أغلب تلك الاراضي المهيأة للبناء ومن حارات الاغنياء في حلب نذكر «الشهباء» و «فرقان» و «السبيل» التي خططت لها البرجوازية وسكنتها وما تزال تضارب بأسعار العقارات والشقق فيها . فموضوع هذه الحارات ليس بالغريب وهي ظاهرة سليمة في المجتمعات الرأسمالية

وشبه الرأسمالية . أما العمارة التي تميزنا ويمكن ان نفتخر بـ «خصوصيتها» فهي عمارة «الطفيليين» وهي بعكس العمارة الطفيلية ومختلفة عنها كليا .

ومما يلفت النظر في ضواحي مدننا الكم الهائل من الفيلات وانصاف القصور والقلاع المحاطة بأسوار عالية ومنيعة . لن نتطرق الى جذور الظاهرة اجتماعيا واقتصاديا رغم اهميتها القصوى في فهم آلية تشكيلها ولكن من الناحية المعمارية تتميز بخلط غريب للعناصر والطراز . فهي ليست عصرية ولا تراثية ، وإنما تعتمد بشكل رئيسي على عنصر الإدهاش والغرابة والمباراة السلبية في زيادة نفقاتها وسماتها الشكلانية ، وادخال التقنيات الحديثة الخدمية والاستهلاكية الترفيهية . ولا بد من النظر إليها بمنظار تاريخي . فهي لا تشبه القصور والفيلات التي ظهرت في ضواحي المدن الاوربية ، ولا تلك العائدة للملكيات المُسَوَّرة التي كانت بالاساس إنتاجية تقوم بدور الإشراف على الاراضي الزراعية ، ونتيجة لعلاقات انتاج سائدة . هي اذن نوع من الهروب من المدينة وعلاقاتها الحضرية وربما هي عملية استلهام لسلوك الخلفاء العباسيين والامويين في انشاء القصور في ضواحي المدن وأطراف الصحراء . والموضوع في كل الحالات هو عدم تماثل او اندماج حضاري واجتماعي وهو نفور من قبل الطفيليين لكل ما هو مديني ، على اعتبار أن لهم جذوراً قروية وبسبب الغنى السريع والفاحش ينقطعون عن تلك الجذور الطبقية وهم لم يتآلفوا مع الجو المديني وبرجوازيتها التقليدية التي انكمشت أمام زخفهم ونفورهم ، وللاختلاف الجزئي في المفاهيم والأفكار . إن حياة الطفيليين لا تحتاج الى جو حضاري مديني، فهم لا يحتاجون للثقافة والمعارف ولا يحبذون النشاطات الاجتماعية بمعناها الواسع . ان اللصوصية والانعزال والتمتع باللذات الحياتية هي الاطار العم لحياتهم . لذلك كان لا بد لهم ان يمتلكوا منزلاً آخر خارج المدينة . ليخرجوا تماما من الأجواء والمراسيم التي تتطلبها الحياة في المدينة وبشكل أدق حارات البرجوازية التقليدية المحافظة ظاهريا .

إن المدينة المعاصرة ظاهرة برجوازية تماما ، وقد ساهمت البرجوازية الاوروبية في تأسيسها وتوجيه فعالياتها الاقتصادية والفكرية والثقافية . وان

عجزت بحكم الظروف البرجوازية السورية في تأسيس ، مدينتها ، فالبرجوازية الطفيلية ليست عاجزة تماماً عن إنشاء مدينة أو حتى تعديلها ، بل عاجزة أيضاً عن فرز انتاج نمط معماري جديد للعمارة السورية . ان عمارة الطفيليين لا يمكن ان تكون سوى «قرصنة معمارية» وهي ظاهرة مرضية عابرة تفتقر للاصالة والجذور . ومن ملحقات هذه العمارة هذا التنوع في الكازينوهات والمطاعم والمنتزهات في أطراف المدن . وكما أشرنا فالطفيليون لا يحبذون حتى السهر والجلوس إلا في المطاعم والمنتزهات المتناثرة في ضواحي المدن . وان كانت العلاقة بين الطفيليين وهذه المظاهر ليست ميكانيكية لكن العلاقة بين عمارتهما هي حتما ديالكتيكية .

واخيرا لنعد الى الريف وعمارته ، وكما يبدو فان اغلب مشاكلنا تبدأ من الريف ويجب ان تتم معالجتها وحلها وهي ما زالت هي الاصل . فرغم سردنا الموجز لتدهور التجمعات الصغيرة من قرى وقصبات . فان طابع العلاقات الزراعية في أريافنا وعدم استقرارها ، ووجود أسلوب للكسب السريع المباشر في المدن جعلت من القرية محطة انطلاق نحو المدينة وانعكس ذلك بصورة أو بأخرى على العمارة الريفية التي هي في غاية الاهمية لنا اليوم ، واصبحت العمارة الريفية الطينية مهددة في عقر دارها بدخول البلوك والاسمنت ، وذلك لعدة أسباب منها : التخلص من الصيانة الدورية للمنازل وعدم تطور اسلوب العمارة بالطين ، وعدم إيلائها أية اهمية في الكليات والجامعة من الناحية النظرية ، ولا على الصعيد العملي الخاص أو العام وإن تراجع العمارة الريفية بشقيها الطيني والحجري ستسبب مشاكل عديدة سيكون لها انعكاسات اقتصادية خطيرة .

وما يهمنا في الختام هو الاهتمام بالعمارة وانطلاقا من الريف أولا ، الاهتمام الشامل الجدي من نواحيها النظرية ، تاريخاً ، وحاضراً . . . . والعملية مستقبلا .

والمهم هو البحث عن الحلول عن طريق تحليل علمي دقيق للظاهرة .

وأخيراً علينا أن نتذكر نصيحة انجلس التي تتلخص في : غباء أي سعي لحل المشاكل الاجتماعية بمعزل عن الصراع الطبقي بمفهومه الواسع ، ومنها مشكلة «العمارة» .

انجاز مشروع ري الخابور
ضرورة اجتماعية ووطنية ملحة

للزراعة مكانة حيوية هامة في بلادنا ، وتقدمنا الاقتصادي والاجتماعي مرهون إلى حد كبير بمدى فعاليتها وزيادة مردودها . ولرفع سوية هذا القطاع لا بد من وضع الخطط المدروسة لاستثمار القدرات المائية السطحية والجوفية أفضل استثمار . وكان مشروع «ري واستصلاح نهر الخابور» أحد الركائز الأساسية في هذا الاتجاه فهو يهدف إلى تطوير المنطقة الشمالية الشرقية من القطر وذلك بإرواء ما يقارب /١٥٠/ ألف هكتار من الأراضي الخصبة الممتدة من بلدة راس العين إلى ما بعد بلدة الصور في محافظة دير الزور ، وذلك باستغلال كامل جريان نهر الخابور حيث تقدر الثروة المائية السطحية /١,٦/ مليار م٣ والثروة المائية الجوفية بحدود /٤٠٠/ مليون م٣ . ويمكن تحقيق ذلك باعادة توزيع الخزنات ذات الطاقة التجريبية الكافية والمؤلفة من ثلاثة سدود : ١ ـ سد الحسكة الغربي ٢ ـ سد الحسكة الشرقي ٣ ـ سد الخابور .

وجرى تقسيم كامل المشروع إلى ثلاث مناطق رئيسية يمكن أن تعمل جميعها كوحدة كاملة أو تعمل بشكل منفصل عن بعضها . أُوكِل أمر إنجاز هذا المشروع

بموجب عقود مبرمة إلى الشركة البلغارية (اكروكوملكينيت) وشركة الرصافة للانشاء والتعمير بالحسكة ـ فرع الري ، ومؤسسة الإسكان العسكرية ، والشركة العامة لإنشاءات الري (سارينكو) ومؤخراً أسندت بعض الأعمال إلى الشركة العامة للطرق (رودكو) . وقد حددت الكلفة الإجمالية التقديرية لهذه العقود مجتمعة بـ /٥٠٠٠٠/ مليون ليرة سورية .

وتحاشياً من الوقوع في قضايا فنية بحتة نحن بغنى عنها ، وتداركاً من الإنقياد وراء هوامش موضوع البحث ، وكي لا تفلت الحلقات الأساسية حيث تدفعنا لإبرازها وتسليط الأضواء عليها ، نختار شركة الرصافة للانشاء والتعمير ـ فرع الري ـ احدى أهم الشركات المُكَلّفة بتنفيذ أجزاء هامة من هذا المشروع الحيوي لتكون نقطة تمركزنا في البحث والحوار ، والمقارنة والمثال . ينص العقد المبرم مع هذه الشركة على إلزامها بتنفيذ قناة طولها /٤٣/ كم ، إضافة إلى الأعمال الصناعية والطرق الزراعية وشبكات مد أنابيب الضغط والطرق وأعمال أخرى . . .

إن القيمة التقديرية لقاء هذا الإنجاز هي ٥٥٥٦١٨٥٢٨ ل . س ، وحددت مدة التنفيذ بـ ٢٤ شهراً بدءاً من ١٩٨٤/١٢/٣١ تاريخ أمر المباشرة ، أي العقد على وجوب انتهاء بناء المشروع في نهاية حزيران عام ١٩٨٨ .

وتفيد التقارير الميدانية من المصادر حسنة الاطلاع أن ما تم إنجازه حتى تاريخ ١٩٨٧/١٢/٣١ لا يتعدى الـ ٢٤٪ من إجمالي العمل ، أما عن سوية انجاز الشركات الوطنية الأخرى الملزمة بعقود التنفيذ فحالها ليست بأحسن من حال الرصافة . ففي اجتماع اللجنة المحلية المكلفة بتتبع ومراقبة سير أعمال شركات مشاريع استصلاح الأراضي برئاسة السيد محافظ الحسكة وذلك بتاريخ ١٩٨٦/١٠/١٨ أقر بهذا التأخير ـ ولو بصيغة العموميات المعتادة ـ وحددت أسبابه التالية :

١ ـ عدم توفر المواد التالية على الشكل المطلوب (الخشب ـ الحديد ـ الرقائق البلاستيكية ـ ترستوب مواد الإملاء ـ ومانع التبخر) .

٢ ـ قلة الآليات وخاصة اللازمة لأعمال الردميات الترابية .
٣ ـ عدم توفر القطع التبديلية للاطارات والزيوت المعدنية .
٤ ـ عدم توفر قساطل الاترنيك لأنابيب الري والصرف .

كما أشار المجتمعون إلى بعض المقترحات أهمها :

ـ فرز بعض الآليات من فرع الرقة إلى شركة الري (ساريكو) بالحسكة .

ـ تلزم بعض أجزاء القناة الرئيسية (م ١ ـ ٢) التابعة لشركة الري (ساريكو) لشركة عامة أخرى تتوفر لديها الآليات كشركة الطرق (رودكو) وشركة قاسيون (وقد أسندت بالفعل بعض الأعمال لرودكو كما أشرنا آنفاً) .

ـ العمل مع الجهات الرسمية من مؤسسات الدولة لتأمين المواد الضرورية للمشروع .

ووقف المجتمعون عند النتائج السلبية التي ستنجم عن التأخير في الإنجاز وتم حصرها بما يلي :

١ ـ عدم استلام سدى الحسكة الغربي والشرقي عند انجازهما من الشركة البلغارية المنفذة مما ينشأ عنه مشاكل عقدية اضافة إلى تأخير استثمارها .

٢ ـ الإساءة لسمعة الدولة وسمعة شركات القطاع العام ـ قطاع الدولة ـ نتيجة انجاز الشركة البلغارية للأعمال الملزمة لها في الموعد المحدد وتأخر شركاتنا الوطنية في تنفيذ أعمالها ، ومن المعلوم أن الشركة البلغارية قد نفذت بحدود ٥٠٪ من مجموع الأعمال الموكلة إليها حتى تاريخ الاجتماع المذكور . . .

وحول الموضوع ذاته وردت جريدة الثورة السورية في عددها ٧٣٨٧ تاريخ ١٩٨٧/٦/٥ تحت عنوان (استعراض سير العمل في مشروع ري حوض الخابور الكبير بنبأين أحدهما يشير الى اجتماع عقد برئاسة السيد محافظ الحسكة ضم المدير العام الشركة البلغارية العاملة وآخرين من المسؤولين في قطاع استصلاح الأراضي ، أما الآخر فهو ، اجتماع مدير عام حوض دجلة والخابور في الحسكة برؤساء الأقسام المشرفين على تنفيذ المشروع . . . وتتابع الجريدة «إلى أنه تم الاطلاع من خلال الاجتماعين على سير الأعمال ونسب الانجاز والتأكيد على وضع

برامج موضوعية وتنفيذها بالشكل الأمثل» والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هل أُعِدَّت حقاً بعد هذا الإقرار الصريح بالتأخير والتقصير في سير الأعمال لدى شركاتنا الإنشائية عامة برامج موضوعية يتم من خلالها تأمين الاحتياج وتدارك التأخير ؟؟؟

ببالغ الأسف وشديد الأسى نجيب بالنفي أيضاً ؟؟ ففي الوقت الذي تحقق الشركة البلغارية من إجمالي العقد حتى تاريخ ١٩٨٧/١٢/٣١ بحدود ٧٠٪ ، لم ترتق سوية التنفيذ لدى شركة الرصافة للانشاء والتعمير فرع الري أكثر من ٢٣,٣ وعن كامل الأعمال المسندة إليها ولدى شركة الري /ساريكو/ بحدود ١٦,٥٪ أما في مؤسسة الإسكان العسكرية فلم يتجاوز التنفيذ حدود الـ ٢٤,٥٪ . بل ها هي الصعوبات والمعوقات تتحدد للمرة التالية في اجتماع اللجنة الفرعية الخاصة بتتبع تنفيذ أعمال شركات استصلاح الأراضي برئاسة السيد محافظ الحسكة وحضور مدراء الشركات المعنية ورئيس مكتب الفلاحين الفرعي ولأهمية ذلك نورد نص الإقرار حرفياً : «تعاني شركات القطاع العام العاملة في المشروع من الصعوبات التالية :

١ ـ نقص قطع الغيار والإطارات لصيانة الآليات .

٢ ـ عدم توفر بعض المواد ومستلزمات العمل التي تتطلبها عملية الإكساء البيتونية للأقنية .

٣ ـ عدم المباشرة بتنفيذ بعض الأعمال الواردة في العقد مثل القساطل والفلومات لعدم تأمينها حتى تاريخه .

كما أقر المجتمعون توصية إلى رئاسة مجلس الوزراء ، مضمونها عدم ملاحقة تأمين المواد ومستلزمات العمل المقررة وفق البرنامج الزمني المقرر من قبل اللجنة الوزارية في اجتماعها المنعقد بالحسكة بتاريخ ١٩٨٧/١١/٥ . مما ينعكس سلباً على نسب الانجاز المقر في البرنامج نفسه ، وقد انعكس فعلاً وهذا ما تؤكده نِسَب التنفيذ المثبتة أعلاه وهل من طلب استغاثة أمر وأفصح في محتواه كتاب المدير العام لشركة الرصافة للإنشاء والتعمير ـ فرع الري ـ الى السيد محافظ الحسكة تحت

الرقم ٢٦٤٤/ص تاريخ ١٩٨٧/١٢/١٧ يقول فيه :

. . . . فشركتنا تعاني من عجز كبير في تأمين مستلزمات تشغيل الآليات من قطع تبديلية وإطارات وإننا إذ نؤكد على ضرورة فتح الاعتمادات المطلوب للقطع التبديلية ، نرى من الضروري تأمين الاطارات حسب الخطة السنوية للشركة .

ولا شك أن ما حصلت وتحصل من اجتماعات وتوجهات وما تتوجه من كتب بصدد معالجة واقع هذا المشروع الكبير وتحفيز عملية التنفيذ فيه ليدعو للابتهاج والتقدير ، إلا أنه برأينا ما يصيب هذا المشروع وما سواه من المشاريع الاستثمارية الحيوية من اخفاقات لدرجة الفشل المريع يعود بالدرجة الأساسية لمصديرين لا ثالث لهما :

المصدر الأول : يتحدد بهيكلية البناء الاقتصادي في النظام فيما يتعلق بتحديد سلم الأوليات ووضع الفواصل ما بين الأساسي والثانوي من المشاريع ، وإلّا ما السِرّ وراء الانجاز السريع في تنفيذ المشاريع السياحية والخدماتية ؟ لسنا بصدد تعدادها ـ على الرغم من الهدر فيها بلا حدود ، في حين لم تنجز شركاتنا الوطنية أكثر من ٢١,٥٪ من هذا المشروع برمته ، وأصوات القائمين ومقترحاتهم تتلاشى في أروقة المكاتب وهي تناشد بوجوب تأمين الحديد والخشب وأنابيب الأترنيت وقطع الغيار والإطارات وفتح الاعتمادات . . . ؟؟؟؟

وفي هذا تكمن حقيقة موقفنا من تحديد أولويات المشاريع وتوزيع مَوارد الميزانية العامة على ضوئها .

إن ما يساهم بحدة في تعميق خط الفشل والإخفاق في مشاريعنا الحيوية هذه هي طبيعة علاقاتنا غير المتكافئة مع السوق الرأسمالية وبنوك الاقتراض من جهة أخرى ، والدور الذي تمارسه البرجوازية الطفيلية والبرجوازية البيروقراطية من تخريب ونهب بحق الوطن والشعب من جهة ، وكان تحصيل حاصل هذه العوامل مجتمعة ما يعانيه اقتصادنا من اختناقات حادة متصاعدة تركت بصماتها على مختلف الأصعدة في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فكان العجز في الميزانيات العامة والشُحة في القطع الأجنبي ومديونية للبنك الدولي ولصندوق

انقد الدولي ، وكان من جراء ذلك التضخم النقدي والهبوط في القدرة الشرائية لليرة السورية ، والارتفاع الحاد في الأسعار وبخاصة أسعار الغذاء والدواء والملابس والوقود ، فكان البحث في كل مرة عن المخرج على حساب مزيد من تدني أجور الكادحين بسواعدهم وأدمغتهم ، ومزيد من التسريح بمنح إجازات بلا راتب ، كما بات مألوفاً في مؤسسة الإسكان وأمام كل هذا أليس من الطبيعي أن يعاني مشروع حوض الخابور من نقص ، حاد في مستلزمات العمل أيضاً وأيضاً ؟؟؟

أما المصدر الثاني : تكاد تكون له صفته المحلية حيث تجتمع فيه أسباب التقصير والتأخير في انجاز مشروعنا المائي هذا حول محورين أساسيين :

١ ـ مرده لجملة من العوامل الفنية أهمها :

أ ـ افتقار المشروع لجهاز تخطيطي وفني لمتابعة أعماله ميدانياً لا مكتبياً ولا غرابة إن وصل الأمر ببعض الشركات لإلغاء حتى اجتماعات لجانها (ولو على علاتها) الدورية المعتادة في كل اسبوعين على الأقل ، وباتت تخضع لارادة المسؤول ومزاجية صاحب القرار كما في فرع الري المنبثق عن شركة الرصافة (هذا ما كان قبل اجراء عملية التوحيد ما بين الشركات الثلاث ومن بينها شركة الرصافة مؤخراً) .

ب ـ الاختيار غير المناسب للكادر الفني فعلى سبيل المثال لا الحصر بعض مدراء المشاريع مهندسون معماريون ومن الأفضل وحسب ما تقتضيه طبيعة الأعمال أن يكونوا مهندسين مدنيين وهذا يذكرنا بواقع المؤسسات الأخرى عموماً .

ج ـ توقف عدد كبير من الآليات عن العمل بحجة عدم توفر قطع الغيار والجدول التالي يعبر بوضوح عن واقع الجزء الأهم من واقع الآليات المتواجدة في المشروع وجاهز في تاريخ ١٩٨٨/١/٢٤ لدى شركة الرصافة للانشاء والتعمير ـ فرع الري ـ :

نوع الآلية	العدد الكلي	الجاهز للعمل	ملاحظات
١ ـ بلدوزر	٦	٤	٢ معطل
٢ ـ تراكس	٨	٧	١ معطل
٣ ـ باكر	١٥	٩	٦ معطل
٤ ـ كريدر	٣	١	٢ معطل
٥ ـ طرينول	٢	-	٢ معطل
٦ ـ قلاب	٩	٤	٥ معطل
٧ ـ سيارة قلاب	٣٥	٢٤	١١ معطل
٨ ـ مدحلة رجاجة	١٥	١٠	٥ معطل
٩ ـ صهريج ماء	١٤	١٠	٤ معطل
١٠ ـ صهريج محروقات	٢	٢	-
المجموع	١٠٩	٧١	٣٨

نستخلص من الجدول المثبت أعلاه أن نسبة العطالة في آليات مشروع الرصافة فرع الري فيما أوردناه تقارب ٣٤,٨٦٪ .

د ـ توقف الأعمال بشكل عام ولدى مختلف الشركات خلال فصل الشتاء بينما يمكن استغلال هذه الظروف غير المناسبة لأعمال الحفر والردم وصب الأقنية لتأمين الصيانة ، وتحضير الأقنية مسبقة الصنع وغيرها من الأعمال . . . . .

و ـ ظهور الجبس في المنطقة مما أدى إلى القيام بأعمال حفريات اضافية زائدة وبكميات كبيرة حيث تم استبدال الجبس بتربة أخرى ملائمة وهنا يستوجب الاشارة إلى أن عملية الاستبدال (تربة بتربة) توفر استخدام الرقائق البلاستيكية كلياً بحسب المخططات وفي ذلك وفر بالقطع النادر قد تصل قيمتها إلى عشرات الملايين من الليرات السورية .

إلا أنه ومع شديد الأسف لم تلغ الرقائق على الرغم من عملية الاستبدال

تحت ذريعة «ما حصل في الرقة من انهيارات وهذا ما يؤكد عليه احتياج الشركات لعامي ٨٧ ـ ٨٨ من المواد ، الصادر عن مديرية الري لحوض دجلة والخابور تحت الرقم ٥٨٣٧/ص تاريخ ٥/١١/٨٧ ، والموجه إلى السيد وزير الري بناء على طلب ويشير الجدول إلى حاجة الشركات إلى ٢,٠٢٠,٠٠٠ م٣ من الرقائق البلاستيكية .

٢ ـ من جهة أخرى لعوامل اجتماعية شتى نكتفي بأهمها :

أ ـ عدم ربط الأجور بالأسعار ، وعدم استفادة العمال من الحوافز الانتاجية وشطب ساعاتهم الاضافية رغم أنهم يعملون في ظروف عمل قاسية طوال عشر ساعات (وسطياً) في العراء ، يتعرضون لحر الصيف وبرد الشتاء ، فشربهم صيفاً من مياه الصهاريج شديدة السخونة ، وواسطة نقلهم سيارات الشحن والقلابات بمتوسط ٣٥ عاملاً في السيارة وهنا لا بد من الإشادة بجهود ادارتي شركة الري - ساريكو ، ومؤسسة الإسكان العسكرية حيث أمنت لعمالها باصات نقل مريحة لحد ما ـ كما نشير إلى مخاطر العمل المتوقع حصولها في كل لحظة في حين تفقد الطبابة في مواقع العمل بل تفتقر بعض الشركات حتى الى الصيدلية «المحمولة» لإسعاف المصاب ريثما يؤمن علاجه ، أما عن تأمين السكن فقد حقق للكادر المتقدم مكتبياً بشكل عام وبعيد عن مواقع العمل كما في (فرع الري ـ الرصافة) حيث وحداتها السكنية في مدينة الحسكة في الوقت الذي أسقط من الحساب العمال عامة مع آخرين من المهندسين غير المرغوب فيهم ، مما اضطروا جميعاً لتحمل نفقات السكن . أما عن الاطعام فلا دخل للشركات عموماً بذلك ويتحمل العاملون تأمين طعامهم وأي ظعام يمكن أن يحفز العمال ويكسبهم عافية ونشاطاً وهو يقتر من الأجر الشهري الذي يتراوح ما بين ٨٠٠ ـ ١٢٠٠ ل . س كما في شركة الرصافة ـ فرع الري ـ وما يزيد من البلبلة أن الأجور لا تصرف في وقت معلوم من الشهر بل يخضع في ذلك لمزاجية مدراء الفروع ولقانون شح العملة .

إن أوضاع عمالنا القاسية تجعلنا نستحضر واقع العاملين في الشركة البلغارية التي تقاسم شركاتنا الوطنية بتنفيذ المشروع حيث يقيم العاملون فيها في موقع تكاد

تكون مدينة بحالها تتوسط ميادين العمل أنشئت خصيصاً لتأمين راحة العاملين وزودت بمختلف وسائل الراحة من مطاعم وملاعب وإنارة وأجهزة تلفزيون ومياه مثلجة صيفاً وتمديدات صحية وإشارات مرور . . . إن ما يتعرض له عمالنا في شركاتنا الوطنية هذه من ضعف الأجر وظروف العمل غير الصحية وفقدان الأمن الصناعي دفع بالعديد إلى ترك العمل رغم حاجتهم المريرة إليه ولا سيما من تعرضوا للنقل التعسفي من شركة الرصافة وبخاصة من فرعي الرميلان والقامشلي .

ب ـ دوران اليد العاملة من الفنيين والموصوفين خاصة بسبب جملة العوامل المذكورة أعلاه إضافة إلى ما تتخذ من القرارات الزجرية والتي تخلو في جلها من الموضوعية بما تصدر من قوائم النقل والتسريح التعسفيين والتي لا تنعكس إلا بالسَلْب على الإنجاز كماً ونوعاً وللمثال فقط فقد تعرض بحدود / ٢٥٠ / عاملاً من فرعي الري ـ الرصافة وساريكو للتسريح التعسفي في حين أن أكثر من ٦٠٪ من القائمين على رأس العمل يعملون بموجب عقود مؤقتة وسنوية بعد اجراء عملية الضم المكتبي لحينه ما بين الشركات الثلاث ، الرصافة ،

نظمت في فرع الرصافة للري عقود لمدة أربعة أشهر عوضاً عن ثلاثة وذلك للعمال المؤقتين كما تلح مؤسسة الإسكان العسكرية مستخدمة في ذلك شتى أساليب الضغط لمنح إجازات بلا راتب تحت ذريعة (الظروف المناخية لا تسمح بمتابعة الأعمال) أليس هذا بربكم أنتم القائمون في مواقع المسؤولية وإصدار القرار خير تمسيخ لما نشده مؤتمر (الابداع والحد من الهدر) ؟؟؟

لا بد من التنويه إلى ما يتعرض له العمال والفنيون بما في ذلك عدد من المهندسين ومن المواطنين الأكراد حصراً فمن حال احصاء عام ٦٢ قبيح الذكر ـ الاستثنائي في الجزيرة ما بينهم وبين جنسيتهم السورية زيادة في سوء الأوضاع عما ذكر حيث لم يشملهم تاريخه زيادة الرواتب (الأخيرة) ولا يستفيدون من التعويض العائلي ولا يشملهم قانون التأمينات الاجتماعية ، مع العلم أن أجورهم تخضع لحسومات المجهود الحربي ؟؟؟؟

ج ـ الهدر الحاصل سواء على صعيد المواد أو قوة العمل كاستخدام الرقائق البلاستيكية في مناطق استبدال التربة ـ زيادة للحرص كما يقال ، أو عدم الاستفادة من فصل الشتاء لتأمين الصيانة الكاملة للآليات ، وتصنيع الأنابيب مسبقة الصنع وغيرها وغيرها ما دامت الأعمال الرئيسية واقفة في فصل هطول الأمطار توقف عمليات الحفر أو تمديد الأنابيب أو صب الأقنية أو عمليات الردم . . . ونلفت أيضاً الأنظار إلى الهدر غير المحدود في مادة الوقود المستهلك في خدمة سيارات أصحاب القرار أو من نال رضاهم حتى وصل الأمر ببعضهم لأن تكون لشخصه سيارة ولأسرته أخرى . بتقديرنا أن استمرار المشروع دون نهاية يعني بالنسبة لهؤلاء وأمثالهم استمرار مصدر النعمة والرفاه وبخاصة في ظروف فقدان المسؤولية الجماعية أو الفردية عن أسباب تأخير هذا العمل أو ذاك الا يشكل ما أشرنا إليه وما تداركنا حملاً إضافياً يضاعف من التكلفة ويتحمله بالتالي شعبنا أولاً وأخيراً حيث هو المموِل والباني والمعذب .

و ـ فقدان التنظيم النقابي في بعض هذه الشركات كمؤسسة الاسكان العسكرية وهذا ما يضاعف من التسلط البيروقراطي الوظيفي بحق العمال ويعرضهم لشر القرارات الادارية أكثر فأكثر بل ويحرمهم من حق التمثيل في المشاركة المطلوبة في وضع خطط الانجاز ومراقبة تنفيذها وضبط الحوافز التي ما زال العمال حتى اليوم محرومين منها ، وإن ما يجري الآن في مؤسسة الاسكان العسكرية من السعي لتخفيض أجور العاملين لديها أو محاولة الالتفاف على المادة ١٦٤ من قانون العاملين الأساسي وذلك بالضغط عليهم لتقديم طلبات التثبيت ، ومتى ؟ بعد انتهاء المدة المحددة بالقانون ذاته يشكل نهجاً اختارته الادارة السابقة وها هي الادارة الحالية تقتفي أثرها . . . يجري كل هذا بهدف تبرير ما تعانيه (المؤسسة) من الصعوبات المالية والاقتصادية والتي تراكمت بفعل سوء الادارة السابقة وفسادها وليست كما يحاول البعض تصويره نتيجة الرواتب والأجور «المرتفعة» للعاملين . . .

إن غياب الصوت النقابي المعبر عن مصالح العمال يؤكد على هذا التمادي

الفظ والاعتداء السافر على حقوق طبقتنا العاملة التي تعيش اليوم فقراً لم تره من ذي قبل .

إن انجاز هذا المشروع الحيوي الكبير في الوقت المحدد وإن كان بنظرنا ضرب من الخيال وبأقل تكلفة يتطلب من المسؤولين اتخاذ التدابير التالية :

١ ـ انطلاقاً من أولوية هذا المشروع يجب تأمين حاجته من السيولة النقدية بفتح باب الاعتمادات اللازمة لاستيراد قطع الغيار والتبديل ومستلزمات الانجاز من مواد وآليات وهذا يستوجب ايقاف الانفاق الترفي ومشاريع الأبهة وغيرها من المشاريع التي لا تلامس إلا مواقع هامشية في حياة شعبنا ووطننا ، وما يعد بحق استفزازاً لمشاعر كل الكادحين بسواعدهم وأدمغتهم في الوقت الذي تعاني مشاريعنا الحيوية من اختناقات مالية وافتقار لأدنى متطلبات دفع مثيرة العمل تطالعنا الصحف الرسمية بنبأ مفاده : أن اجتماعاً عقد بحضور المسؤولين عن قطاع السياحة برئاسة السيد محمود الزعبي رئيس مجلس الوزراء وتمخض عنه اعتماد بناء فندق سياحي من الدرجة الأولى في مدينة دمشق . . . .

٢ ـ تحديد العلاقة مع السوق الرأسمالية بما يؤمن لاقتصادنا السلامة في النمو والازدهار وتطوير علاقاتنا الاقتصادية والتجارية مع الدول الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي لتكون في مستوى العلاقات السياسية والعسكرية .

٣ ـ اجتثاث البرجوازيتين الطفيلية والبيروقراطية وسد أبواب الاغتناء غير المشروع في وجهها لكونها أساس كل شر ومصدر كل بلاء . إن تحقيق ذلك سبيل مأمون لتحقيق أكبر قدر من المحاسبة البناءة والنزاهة في العمل وتطوير قوى الإبداع وربط الأجور بالأسعار .

٤ ـ تأمين مستلزمات الراحة والأمن الصناعي للعاملين في هذه الشركات من سكن (لمن يرغبون البقاء في مواقع العمل) وطبابة مجانية ووجبة طعام ساخنة ومياه صالحة للشرب ، ووسائط نقل مريحة ، ومخازن استهلاكية تتبع المؤسسات المركزية لهذه الشركات لتأمين حاجة أسر العاملين بشكل دوري ، أسوة بزملائهم في الفروع الأخرى ، وصرف الحوافز الانتاجية التي ما تزال تحجب عن العمال ،

واعتماد معيار الانتاج في ذلك والكف عن شطب الساعات الاضافية وصرف أجورها . وتدارك أوضاع العاملين من تضرروا بفعل احصاء ١٩٦٢ ووقف اجراءات النقل والتسريح التعسفية التي تتنافى مع المصلحة الوطنية العليا ، والمساهمة في إيجاد التنظيم النقابي المعبر عن ارادة العمال وإشراك ممثليه في خطط الانتاج ومراقبة تنفيذها .

٥ ـ اعتماد الخطط العلمية في التنفيذ ، والحد من الهدر والتسيب سواء في طاقة العمل أو في استهلاك المواد وبما يحقق النوع والكم والوفر الاقتصادي .

٦ ـ ايجاد جهاز فني يضم عناصر كفؤة ومخلصة يتابع العمل ميدانياً ويبدي رأيه في سيره ويحدد بصدق مواقع الخَلَل ويشير الى العلاج .

٧ ـ ضرورة الاسراع لدراسة امكانية صنع قطع الغيار (قطع التبديل) محلياً لتسيير الآليات المعطلة وإشراكها في عملية الانجاز .

٨ ـ فتح باب التشغيل أمام ادارات هذه الشركات لتباشر بتأمين حاجتها من العمال والموظفين وإعطاء المسرحين تعسفياً الأولوية في التشغيل .

٩ ـ تأمين وسائط نقل مريحة للعمال الذين تعرضوا للنقل التعسفي من فرعي الرصافة في الرميلان والقامشلي إلى حيث إقامتهم وذلك باعتماد برنامج معقول ومقبول كأنْ يكون اسبوعياً على الأقل .

إن إنجاز هذا المشروع المائي الكبير في اطار ما أشرنا إليه باستبعاد الأوهام التي تبغي إضعاف الثقة بامكانيات شركاتنا الانشائية وقطع الطريق أمام ممثلي الشركات العربية والاجنبية والرد الايجابي على تحرضاتهم الداعية تحت ذريعة إنقاذ المشروع بطرحه للمناقصة الدولية ضرورة اقتصادية لها بعدها الاجتماعي التقدمي والوطني الكبير .

●

حول الحركات السياسية - الاسلامية
في العالم العربي ودول المنطقة

فالح عبد الجبار

بدعوة من المكتب الثقافي للجنة منطقية حلب ألقى - فالح عبد الجبار مداخلة حول «الحركات السياسية في العالم العربي ودول المنطقة» ، استهلها بعرض لتاريخ تطور الوعي الديني ، وعلاقته بالتشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية ومكونات هذا الوعي ، وعوامل تغييرها . كما تناول مسار هذا التطور في طور الإنتقال من التجزؤ الاقطاعي إلى المركزية الاقطاعية منذ القرن السادس عشر ، ومسار تطور بنية هذا الوعي في الفترة التي بدأت خلالها المنطقة عملية الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية .

وتركز القسم الأكبر من المداخلة على عوامل انبعاث الحركات الإسلامية منذ منتصف السبعينات ، وفيما يلي تلخيص مركز لهذا الشطر من المداخلة التي تلتها نقاشات واسعة حول الموضوع ، وملاحظات غنية من بعض المشاركين :

هيئــة التحريــر

بات ظهور واتساع الحركات السياسية الدينية ، وبالذات الاسلامية ، في العالم العربي ، ودول المنطقة ، ظاهرة بارزة منذ منتصف السبعينات .

وغدت دراسة عوامل نشوء هذه الحركات ومضمونها الاجتماعي ، فكرها السياسي والاقتصادي ، مهمة مطروحة من الوجهة النظرية كما من الوجهة العملية .

وبرز في مجرى توصيف هذه الظاهرة وتحليلها ، عدد من الاتجاهات الفكرية المتباينة . فعلى يد منظري علم الاجتماع البرجوازي ، برزت فرضيات تفسيرية تدورفي نطاق ما سُمِّي بـ «الصدمة الحضارية» أو «أزمة التحديث» .

وينطوي هذا المفهوم على مضامين متضاربة ترى أن الشرق راكد ، لا يتقبل الغرب الديناميكي . ويجري تحديد مفهومي «الركود» و«الديناميكية» تارة بمعنى اقتصادي ، وتارة بمعنى اقتصادي اجتماعي ، وتارة بمعنى فكري ، خالص وعلى يد بعض منظري عدد من الاتجاهات القومية نرى أن التحليل يدور في اطار فشل المشروع الترحيدي ـ التحديثي القومي

أما على يد منظري القوى الدينية نفسها فنجد حديثاً عن «مدد غيبي» ، عن عودة الروحانية القديمة ، في مجرى الرفض للمادية الحديثة .

وهذه النظرة الأخيرة «بالمناسبة» تتماثل من حيث الجوهر مع نظرة ممثلي علم الاجتماع البرجوازي ، وإن كانت مقلوبة من حيث الشكل .

لسنا في معرض تحديد مدى عملية تفسيرات كهذه ، ولكن يمكن القول ، بعجالة أنها تنطلق في تفسير الظاهرة ، من الميدان الروحي الفكري ، لا من ميدان العلاقات الاجتماعية ، فالأولى ، بنظرهم هي المقررة والثانية تابعة .

إن ظاهرة «الانبعاث» المذكورة ، ظاهرة اجتماعية ـ اقتصادية تجد انعكاسها في الميدان الفكري .

وإن دراسة هذه العلاقات يتيح معرفة أشكال الانعكاس .

إن نشوء الظاهرة ، قيد المعاينة ، في السبعينات يمد جذوره في الحقبة الراهنة ، حقبة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية ، وهو انتقال يتميز بدرجات

متفاوتة من الحدة والنضج ، وبتلاوين متنوعة في الشكل بيد أنه يخضع لقانونيات اجتماعية اقتصادية واحدة في الجوهر ، قوامها تفكيك العلاقات الاقطاعية ، في جانب ، وتحطيم المنتج الصغير ، في المدينة والريف ، وتمركز وتركز الثروة الاجتماعية في شكل رأسمال .

إن الحركة الأول ، أي تفكيك العلاقات الاقطاعية ، لا تقتصر على إزالة شكل من الملكية ، بل تتعداه إلى تفكيك علاقات اجتماعية محمية بقوى اجتماعية ومحمية بتراكيب فكرية ، تضم أفكاراً ومؤسسات تنتمي إلى ميدان بناء فوقي قديم .

إذن نحن إزاء عملية تنطوي على صراع اجتماعي ، اقتصادي ، سياسي ، وفكري ، حاد ، حتى حين يأخذ تفكيك العلاقات الاقطاعية شكلاً انتقالياً تطورياً ، أي تحول الملاك الاقطاعيين أنفسهم إلى رأسماليين .

وتتميز حركة الانتقال هذه ، التي تغطي حقبةً تاريخيةً طويلة نسبياً ، تتميز منذ بداية النصف الثاني للقرن العشرين بتدخل كثيف للدولة ، وباختصار يكتسي شكل رأسمالية دولة .

ونلاحظ أن اتخاذ التطور الرأسمالي هذا الشكل ظاهرة تشمل طائفة عديدة من الدول العربية ودول المنطقة ، بصرف النظر عن الشكل السياسي لنظام الحكم .

إن ظهور رأسمالية الدولة هو برأينا ، تعبير عن ضرورة الانتقال من الانتاج المجزأ إلى الانتاج المركز ، من جهة وعجز الرأسمال الخاص عن تحقيق هذا التحول ، في ظل ضعف آليات التركز والتمركز في شروط التبعية من جهة أخرى .

إن المتتبع لتاريخ تفكيك هذه العلاقات الاقطاعية ، يجد أنها جرت بدرجات متفاوتة من الجذرية ، وبأشكال متنوعة ، ابتداء من الخمسينات : مصر ١٩٥٢ ، العراق ١٩٥٨ ، إيران ١٩٦٣ ، تونس ١٩٦٤ ..... الخ - .

إن هذه الحركة الصاعدة ، جابهت مقاومة حادة من ملاكي الأرض

الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين ، جرت على الصعيد الفكري ، تحت راية السلفية الدينية . وانغمر جزء من المؤسسة الدينية تحت راية الدفاع عن علاقات الاقطاع ، فيما تكيف جزء آخر مع العلاقات الجديدة ، وإن يكن بشكل تدريجي .

إن تفكيك العلاقات القديمة ، جرى على يد قوى طبقية متنوعة ، برجوازية وطنية ، برجوازية صغيرة ، إقطاع متبرجز كما أن التطور الرأسمالي ، الذي شكلت الدولة حاضنته الرئيسي ابتداء من مطلع الستينات جرى تصادم مع الرأسمال العالمي أو في تناغم معه ، في تضاد مع التبعية أو في انسجام معها .

غير أن تطور الرأسمالية ، لا يجري بموازاة تحطيم العلاقات الاقطاعية حسب ، فهذا أحد وجوهه ، بل يشق طريقه على جثة الانتاج السلعي الصغير ، المديني ، والريفي ، على حد سواء ، وهناك أيضاً بدرجات متباينة من الحدة ، وبوتائر زمنية متفاوتة .

إن الدور الأساسي ، أو الكبير ، الذي لعبته الدولة كحامل للعلاقات الرأسمالية، منحها جبروتاً استثنائياً ، تولد عنه ميول فرض نظام الحزب الواحد (مصر ، العراق ، تونس ، الجزائر ، إيران . . . الخ) ، أي غياب الديمقراطية في شكلها البرجوازي البرلماني .

إن نظام الحزب الواحد ، يتمايز في طابعه الاستبدادي وعنفه وشدته ، من بلد إلى آخر ، ولكنه يسهم ، كعامل موضوعي ، (بوصف العنف قوة مادية) في إضعاف أو حصر أو تغييب الوجود السياسي المنظم للبرجوازية الوطنية أو للطبقة العاملة أو الاثنين معاً ، تبعاً للأوضاع الملموسة في هذا البلد أو ذاك .

إن التناقضات الملازمة للرأسمالية تثير مكامن السخط الاجتماعي لدى الفئات الوسيطة ، إذ تفتك (بدرجات متباينة) وبوتائر متباينة) بالمنتجين الصغار في المدينة والريف ، وتحول أقساماً منهم إلى الجيش العمالي من جهة ، وأقساماً أخرى إلى فئات هامشية يعجز التطور الرأسمالي عن استيعابها .

إن هذه الفئات قد تنخرط ، سياسياً ، في جيش العمال ، أو تنخرط تحت لواء فئات يسارية متطرفة (بشكل جزئي هنا وهناك) أو حتى أن تسقط في أحضان

جيش سياسي فاشي ، أو قد تندفع إلى الغيبيات الدينية .

إن العنف المنظم الذي تمارسه رأسمالية الدولة ، إذ يؤدي ، إلى تركيز النار على أحزاب الطبقة العاملة ، أو على أحزاب البرجوازية الوطنية ، بشكلها العلماني ، يفتح الأبواب للشكل الديني للمعارضة ، أو يدفع بالسخط إلى التفتيش عن أشكال متاحة للتعبير ، ولا تكون هذه سوى الشكل الديني .

ومما يسهل هذا الانتقال ، ليس فقط بقاء الشكل الديني من المعارضة متاحاً ، بل أيضاً مثول عناصر غيبية في الوعي الاجتماعي (المتشكل تاريخياً) للمنتج الصغير ، وهذه السمات الغيبية تشتد بفعل خضوع الانتاج الريفي لسيطرة الطبيعة (إلى حد غير قليل) ولتقلبات السوق الرأسمالية ، وهي قوى لا سيطرة له عليها .

زد على ذلك أن ما يسمى بالوعي اليومي ، الاعتيادي ، الوعي في طوره الحسي ، يظل يطفو على السطح . فهو يرى مظاهر الأشياء لا جوهرها ، إنه يرى إلى التفسخ الأخلاقي ، والجرائم ، والدعارة ، ومظاهر البذخ ، فتبدو له الأزمة الاقتصادية الاجتماعية بمثابة أزمة أخلاقية ، أما الناطق الرسمي باسم الشكل الديني للوعي ، فيرى ، في هذه الحدود عينها ، إن هذه الأزمة الأخلاقية هي أزمة ابتعاد عن الثوابت الأخلاقية الغابرة .

زد على هذا أيضاً أن حنين المنتج الصغير وعموم الفئات الوسيطة الى ماضي حياتها الكريمة الوادعة ، وحنين قطاعات من ملاك الأرض الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين ، حنين القسم الأول إلى ماضيهم ماضي التحاقهم بوسائل انتاجهم ، وحنين القسم الثاني إلى حقوق الملكية الاقطاعية ، يتخذ لدى الناطقين باسم المؤسسة الدينية أو الحركة ـ السياسية الدينية ، شكل حنين تاريخي الى ماضي ذهبي للاسلاف ، ويقوم «الفرج» «الواهم» طبعاً على استعادته .

ومما يساعد على قوة تشكل الوعي الاجتماعي لهذه الفئات ، بالصورة إياها ، إن البرجوازية الوطنية ، أو الطبقات الأخرى التي قادت هذا التطور الرأسمالي ، لم تقم بأي مسعىً للعلمنة ، بل أن ايديولوجيتها تنصح بعناصر غيبية حتى في فترة نهوضها ، أما في فترة الانحسار ، فنراها ، تحرك العامل الديني بهدف

صد القوى اليسارية والديمقراطية أضف إلى ذلك كله قوة نفوذ التيار السلفي الإقطاعي على صعيد المنطقة «مُمثلاً بالسعودية» وإن كانت تتبرجز سريعاً أمام أنظارنا .

إن الحركات الدينية التي برزت في السبعينات تنطوي على تيارين ، الأول : سلفي إقطاعي يعارض التطور الرأسمالي من مواقع الدفاع عن مصالح آفلة ، والثاني : تيار المنتج الصغير والفئات الوسيطة التي تحتج على التناقضات الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية لرأسمالية الدولة التابعة في ظل اضعاف أو ضعف غياب أن تغيب الأشكال العلمانية ، اللاسلفية للمعارضة .

وهناك بالطبع قدر من التمايز ومن التداخل بين هذين التيارين ، في المجال الأيديولوجي ، وفي ميدان الممارسة السياسية .

وإن دراسة مقارنة ، للبرامج السياسية ، وللسلوك السياسي ، للقوى السياسية ـ الاسلامية ، من شأنه أن يقدم صورة واضحة عن مدى هذا التداخل ، وهذا التمايز ، شريطة دمج النظرة إلى هذه القوى على أساس كل من البرنامج والممارسة معاً، وعدم الاكتفاء بالنظر إلى البنيان المنطقي ـ الداخلي للمنظومة الايديولوجية لهذه القوى . فثمة تماثلات خادعة ، لا تتكشف تمايزاتها إلا في ميدان الممارسة .

إن كثرة من هذه القوى الاجتماعية تحاول حماية مجالها الايديولوجي ، باعلان برامجها برامج سماوية مقدسة ، رافعة لواء التعارض بين الايمان واللاايمان ، وهو تعارض لم يكن في يوم من الأيام مطروحاً على جدول النضال الوطني والاجتماعي وعليه فإن نقل الصراع الايديولوجي ، بل بالأحرى مواصلته لتحديد المصالح الاجتماعية التي تمثلها هذه القوى ، مسألة بالغة الحيوية ، وهي لا تقل أهمية عن كسب وتعبئة هذه القوى ، لا تركها نهباً لحلولٍ واهمة .

زد على هذا أيضاً أن التيار الثاني ، تيار المنتج الصغير ، ينطوي على بذور عناصر أولية ، نبتات ذات طابع ديمقراطي ويمكن لهذه البذور أن تتعزز ، بمقدار ما يزول عنها التشوش ، وبمقدار ما تتبلور في تيار ديمقراطي على طريق «لاهوت

التحرير» . إن تبلور ونشوء هذا التيار مجرد إمكانية الآن ، ظاهرة كامنة ما تزال ، ولكن بعض علائمها تبرز ، بصورة متفرقة هنا وهناك . وإن رعايتها لا تنفي ، بل تستدعي ، خوضَ صراعٍ أيديولوجي متماسك ، مع القوى والتيارات حاملة هذه البذور .

الحوار

بعد ان استمع الرفاق بانتباه وتمعن الى محاضرة الرفيق فالح التي استغرقت حوالي الساعة ونصف اتيح المجال للاسئلة والمداخلات وسنعرض أهمها مع إجابات الاستاذ فالح .

سؤال : ما هو الأساس الذي يمكن أن يقوم عليه « لا هوت التحرير » .

المحاضر : « لا هوت التحرير » عملية موضوعية لتطوير وعي المنتج الصغير . مثلاً إيران . الذين ساروا وراء الخميني هم العمال والفلاحون والمنتجون الصغار وغيرهم ، هؤلاء تصوروا الخلاص في ذلك ، لكن الواقع الاجتماعي يخلق خصائص متناقضة لكل الأوهام ، من هنا نشأ تيار « الطلاب الخمينيين » وهو يتبلور كتيار معاد للرأسمالية التابعة وهو الآن معاد للرأسمالية نفسها .

إن التطوير الرأسمالي لم يستوعب المنتجين الصغار . كون هذا التطور جرى في وقت وصلت فيه انتاجية العمل العالمي مستويات عالية جداً ، والتطور الرأسمالي التابع عاجزاً موضوعياً عن تحقيق نسب أدنى بكثير من المستوى العالمي ، وبتناقضه سحق المنتج الصغير مما جعله يتذمر ، وهذا التذمر والسخط مستمران وهنا يأتي دور القوى الطليعية .

تطور « لا هوت التحرير » ضروري للطبقة العاملة وللمؤسسات الدينية نفسها للانتقال الى علاقات جديدة . هنالك أساس موضوعي لذلك إلا ان الفئات الوسطى لا تستطيع التوصل لوحدها الى الفهم العلمي للعملية الاجتماعية . في الاسلام عناصر يمكن الاستناد عليها ، وهناك بذور تنمو وعلى القوى الماركسية أخذ دورها .

سؤال : كيف لعب التركيز والتمركز الرأسمالي في إزدياد دور الدولة .

المحاضر : إن عملية التركيز هي تحويل فائض القيمة إلى رأسمال وتزايد مقدار الثورة عند مجموعة قليلة من الأفراد إن تزايد ونمو رأس المال يعني ازدياد مجموع البضائع العينية والنقدية . الرأسمال المحلي الخاص عجز عن تحقيق ذلك ، هذا ما أعطى للدولة الدور لأن تنجز تلك المهمة ، مما جعل الدولة أكب رب عمل « في أوروبا حدث العكس ، حيث أن الدولة كانت تابعة

للبرجوازية » . وأعطاها جبروتاً هائلاً . يقول ماركس : « الجبروت القمعي للدولة يزداد بازدياد دورها الاقتصادي » .

من هنا ظاهرة الحزب الواحد في معظم دول المنطقة كتعبير لسلطة الدولة .

وأدى ذلك الى :

١ ـ انسحاق المنتج الصغير ، وتغييب احزاب الطبقة العاملة .
٢ ـ تعجيل التطور الرأسمالي .
٣ ـ الامتناع عن تكييف المؤسسة الدينية مع التطورات الرأسمالية .

سؤال : هادي العلوي في دراسة له يستبعد نشوء لا هوت التحرير في التيار السني باعتباره ممثل الدولة ، هل من الممكن توضيح دور التيار السني والشيعي وفي أي الاتجاهين ممكن « لاهوت التحرير » .

فالح : الأستاذ هادي العلوي بحاثة ذو باع طويل في الدراسات الاسلامية والتراثية وأنا أجله واحترمه .

بالنسبة « للاهوت التحرير » ممكن في الاتجاهين السني والشيعي .

المؤسسة الدينية السنية كانت دوماً تابعة للدولة ، بينما المؤسسة الشيعية فقد أقرت حرية الاجتهاد بعد كونها وهي تملك استقلالها الاقتصادي ، حيث تأخذ الإيرادات « الخُمْس » مباشرةً دون تدخل الدولة . في إيران مثلاً حصل صراع بينها وبين الدولة حول الإيرادات والأنفاق وغير ذلك .

الحركات الدينية تنشأ من حواشي المؤسسة الدينية سواء السنية أم الشيعية . وليس من داخلها .

المداخلة الأولى : الثورة البرجوازية في أوروبا كانت مادية ، وانتجت اتجاهات تنويرية وقامت بفصل الدين عن الدولة بينما البرجوازية العربية لم تنتج أي اتجاه تنويري ولم تعادِ التيارات الدينية ، وفي معظم الأحيان كانت الدولة تفسح المجال أمام نشاط التيارات الدينية . وفي مرحلة التحرر الوطني لعب بعض ممثلي التيارات الدينية دوراً في النضال ضد المستعمر كما حصل في الجزائر وفلسطين ، إنما في مرحلة ما بعد التحرر الوطني فإن هذه التيارات لم تعادِ الرأسمالية .

فالح : في الغرب حتى ترسخت الرأسمالية كتشكيلة اقتصادية مرت بمرحلة طويلة : ١ ـ التكيف ، ٢ ـ التنوير ، ٣ ـ التخلي عن البطولة الثورية ... ظهور نابليون ، لم تكن هناك لحظة واحدة للانتقال في مرحلة نهوض البرجوازية في مصر حاولت إعادة التجربة الأوروبية « مرحلة محمد علي » وكان الفكر الديني ذا دور تنويري « الكواكبي ـ محمد عبده ـ

الطهطاوي » محاولاً تكييف الاسلام مع الرأسمالية ، وقتها كانت البرجوازية في طور نهوضها الطبيعي ، لذلك كانت تريد ان تساق البرجوازية الأوروبية أما الآن ، فالوضع مختلف ، ثم إنه لماذا هذه الاتجاهات الدينية في المرحلة الجديدة ، مرحلة دخول الاستعمار الجديد وتبعية بلدان المنطقة له ، والتشوهات الرأسمالية المرافقة ، وبالتالي فلا يمكن للبرجوازية التابعة ان تنتج اتجاهات فكرية متنورة .

المداخلة الثانية : حول مسألة « لاهوت التحرير » : هل القضية هي « لا هوت التحرير » أم التحرر من اللاهوت . مثلاً نيكاراغوا مع قيام الثورة كان أثنان من قادتها من رجال الدين بمعنى انهم تحرروا من اللاهوت إذا كان المنتج الصغير بنى آماله على المؤسسة الدينية وعلى الماضي لاعادته . فإن العلاقات الاجتماعية خيبت آماله .

فالح : إن مفهوماً واحداً في ظرفين متباينين يلعب أدواراً مختلفة ــ شعار « العلم يعمل في مجال الطبيعة » لعب دور انتزاع مجال كبير من سلطة اللاهوت . وحمى الفكر الفلسفي من طغيان اللاهوت . الآن الكنيسة البولندية ترفع نفس الشعار ولكن لدور مغاير تماماً . والمسألة ليست في لاهوت التحرير ، أم التحرر من اللاهوت فهما واحد .

المداخلة الثالثة : ما جرى هو كما قال الأستاذ فالح : خراب المنتج الصغير وقيام رأسمالية الدولة كسلطة قمعية في شروط التطور الرأسمالي المشوه التابع الذي لا يمكن ان يُعيد الدور الذي لعبته البرجوازية الأوروبية . وهذا هام في أن تصعّد الجماهير في شكل مقاومتها لسلطة الوعي الاجتماعي كحالة احتجاج للسلطة القمعية للدولة . هنا يكمن الجذر الأساسي في أشكال التطور المشوه للرأسمالية ، ولا يمكن للحركات الدينية أن تلعب دوراً تنويرياً . إن البحث عن التقاطع مع التيارات الدينية « مثلاً إيران » في المرحلة الراهنة مسدودة الأفق أمام الحركات الدينية ولا يمكن المراهنة على أفق تحرر وطني بعد بناء المؤسسة السياسية الدينية ، ولقد برهن الواقع عن الجوهر الظلامي للتيارات الدينية ، عندما تتحول الى مؤسسات حاكمة باسم الدين ، وما الامتدادات التي نراها الآن على الساحة اللبنانية الا برهان ساطع على هذه الظلامية التي توجت في اغتيال الشهيدين حسين مروة ومهدي عامل . فالبرجوازية العربية في مرحلة نهوضها الصاعد منذ عهد محمد علي استطاعت ان تطرح بدايات لمشروع ثقافي تنويري ، أما البرجوازية الطفيلية التابعة لا يمكن لها أن تنتج مشروعاً ليبرالياً ديمقراطياً تنويرياً ، بحكم عدميتها كفاعلية انتاجية واجتماعية وثقافية ، وبحكم انحطاطها الروحي والاخلاقي ، وهي بالتالي لا يمكن ان تخلق مناخات لتطوير الاتجاهات السياسية الدينية الا في الأفق الرجعي الطائفي .

●

انسانية فكرة المصالحة

نجيب الله

السكرتير العام للجنة المركزية لحزب الشعب
الديمقراطي الأفغاني ، رئيس جمهورية أفغانستان

كانت الأحداث في أفغانستان ، على امتداد سنوات طوال ، تقترن في الذهن ، قبل كل شيء ، ببلاغات عن المعارك في جبهات الحرب غير المعلنة التي شنتها ضدنا قوى الثورة المضادة المدعومة من قبل الدول الامبريالية وأعوانها في المنطقة . أما الآن ، فأكثر ما يقترن اسم البلاد بالبحث عن ضمان للسلام . وإن سياسة المصالحة ، التي أعلنها حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني ، بسيطة وواضحة وملموسة ، وهي : وضع حد لحرب الأخوة ، التي تمزق منذ عشر سنوات تقريباً أرض وطننا وأجسام وأرواح ملايين الأفغانيين . وينبغي البحث عن جذور هذه العملية في أفئدة مواطنيّ . لقد عبّر حزبنا عن آماني الشعب فصاغ صياغة نظرية وتنظيمية ، ما سُمِّيَ بسياسة المصالحة الوطنية .

تحدث حزب الشعب الديمقراطي ، لأول مرة حول البحث عن طريق جديد بديل من المجابهة العسكرية في خريف عام ١٩٨٥ ، في الاجتماع الكامل

السادس عشر للجنته المركزية . ولكن تحقيق هذا النهج كان يحتاج إلى مفهوم للتوصل إلى السلام والأمن ، يراعي تماماً خصائص أفغانستان والأوضاع في المنطقة . وكان هذا المفهوم يتولد في سياق اللقاءات والأحاديث العديدة مع نشطاء الحزب والعلماء والشيوخ وممثلي فئات السكان على اختلافها . وساعدتنا كثيراً دراسة تراث مؤسسي النظرية الثورية العلمية وخبرة الاحزاب الشقيقة .

لقد بدأ تطبيق سياسة المصالحة الوطنية بخطوات ملموسة اتخذت في ١٥ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨٧ ، عندما أوقف جيشنا اطلاق النار من جانب واحد . ويمكن القول بثقة أنه ليس ثمة في البلاد بيت لم تناقش تحت سقفه هذه الخطوة النبيلة . ذلك أن الأفغانيين أنهكوا من إراقة الدماء ولا يريدون مزيداً من التخاطب بلغة السلاح .

إنها لخسارة هائلة ، تلك الخسارة التي سببتها الحرب . وإذا لم نتناول إلا ما تم تفجيره وإحراقه وتدميره تماماً ، كانت المحصلة حتى في هذه الحال تزيد على ٥٠ مليار أفغاني[١] . وقد تحولت إلى أنقاض مئات القرى ودمر ما يزيد على ٢٠٠٠ مدرسة ومستشفى ، وشُلَّ نشاط العديد من المشاريع الاقتصادية ، وانخفض الانتاج الزراعي بشكل حاد . كما دمرت ١٤ ألف كم من الخطوط التلفونية ونصف خطوط النقل الكهربائي . ولكن ما هي المقاييس التي تقدر بها الآلاف المؤلفة من الأرواح البشرية المزهوقة وآلام المشوهين والمقعدين ودموع النساء الأفغانيات اللواتي يلبسن ثياباً سوداء حداداً على آبائهن وأزواجهن وأبنائهن وأخواتهن . كما لا يجوز نسيان أن رحى الحرب تطحن ، قبل كل شيء ، نخبة شعبنا ـ الشباب ، حارمة البلاد من المستقبل .

غالباً ما تتوخى وسائل الاعلام العامة الغربية تصوير الأمور وكأن الأفغانيين يعانون خلافاتهم الخاصة . ولكن هذه الحرب ليست حرباً أهلية ، بل فرضها على الشعب من الخارج من يغذون الثورة المضادة ويحلمون في مواصلة المجزرة «حتى الأفغاني الأخير» . لقد أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها في السنوات الماضية ، عموماً ، أربعة مليارات دولار على تأجيج العداء في أفغانستان . وهذا

«السيل الذهبي» المنصب في جيوب رؤساء العصابات المضادة للثورة كان يتحول في أرضنا إلى سيل من الصواريخ والقنابل وإلى أموات ودمار .

إن العملية الاجتماعية السياسية الواسعة النطاق ، التي بدأت منذ سنة تقريباً ، تشتد شيئاً فشيئاً . وقد نبتت بذور السلام ، التي زرعناها . وإن نهج حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني والحكومة ، الرامي إلى التخلي عن الأساليب العسكرية لحل القضايا ، والاستعداد للحوار والحلول الوسط المعقولة ، والتخلي عن احتكار السلطة ، وسن قانون الأحزاب السياسية ، والدعوة إلى تشكيل حكومة ائتلافية ، والدستور الجديد ـ دفعت كل هذه المكونات للبرنامج المتسق والمتكامل قسماً كبيراً من القوى المعارضة الى الانتقال إلى المفاوضات ، وإن جرى ذلك ببطء وحذر .

وتم خلال هذه الفترة تحرير ٢٣٠٠ قرية عن طريق سلمي ، وأصبحت السلطة الشعبية تعمل الآن في : ما يزيد على ٩ آلاف قرية ، و٤٥ مدينة (بما فيها جميع مراكز المحافظات الـ ٢٩) ، و٢١٤ قضاء وناحية ، أي في الجزء الأكبر من أراضي البلد الصالحة للسكن . وعاد إلى الوطن ١٠٠ ألف مواطن ، ولولا العراقيل التي تقيمها السلطات الباكستانية والايرانية أمام اللاجئين الأفغان ، لكان هذا العدد أكبر بكثير . وثمة ما يزيد على ٣٠ ألف متمرد من حوالي ٢٠٠ تشكيلة توقفوا عن النضال المسلح ، وعاد معهم إلى الحياة السلمية ١١٠ آلاف شخص آخر . وفي هيئات السلطة المحلية ولجان المصالحة الوطنية يتعاون أكثر من ٦ آلاف عضو سابق في المجموعات المضادة للثورة .

لا تستطيع ، الأرقام طبعاً أن تعرب عن الشيء الرئيسي ، ونعني ما ظهر عند الشعب من ثقة بإمكانية الاستعاضة عن السلاح بأداة عمل ، والانصراف إلى النهوض بالقوى المدمرة وقنوات الري ، وإلى فلاحة الأرض التي كانت سنوات طوالاً ، تزرع ليس بالحبوب ، بل بشظايا الألغام والقنابل ، وتروى ليس بالماء ، بل بالدماء .

لقد شددت مبادراتنا ، كما كان من المنتظر ، التباين في معسكر المعارضة

وأثارت الغضب بين قسم الثورة المضادة المتطرف . ولم يُلبِّ رؤساء «سبعة بيشاور» ـ المنظمات الأساسية المعادية لأفغانستان ، المتخندقة في أراضي باكستان ، النداء إلى إيقاف إطلاق النار ، بل شددوا القصف ، وخاصة في شرقي البلاد وجنوب شرقيها ، مواصلين أعمال النهب والعنف . وهؤلاء الناس يضعون أنفسهم بأنفسهم خارج إطار عملية التغيرات .

لا شك في أن نهج المصالحة الوطنية اثر في انتعاش النشاط الاقتصادي تأثيراً ايجابياً . وفي العام المنصرم فاقت وتائر نمو الانتاج الصناعي على الوتائر السنوية المتوسطة في مرحلة ما بعد الثورة بأكثر من ٤٠ في المئة .

وبالرغم من المصاعب الناجمة عن الوضع العسكري السياسي المعقد ، وبالرغم من الخسارة المادية الهائلة التي تحدثنا عنها أعلاه ، فإن البلاد قد تجاوزت مستوى ما قبل الثورة من حيث أهم المؤشرات الاقتصادية . وعلى سبيل المثال ، ازداد اجمالي الناتج الوطني في خلال السنوات الخمس الأخيرة بنسبة ١٨ في المئة ، وازداد الدخل الوطني بنسبة ١٠ في المئة ، وتوظيف رؤوس الأموال في المجالين الانتاجي والاجتماعي بحوالي ١٠٠ في المئة ، أي من ١٢ مليار أفغاني إلى ٢٢,٧ مليار .

يعتبر تعاوننا الوثيق مع البلدان الاشتراكية وبالدرجة الأولى مع الاتحاد السوفيتي ، عاملاً حاسماً للتطور في الصناعة . وتنتج المشاريع التي تم بناؤها بدعم الاتحاد السوفيتي ما يزيد على ٦٠ في المئة من إجمالي الناتج الصناعي . كما تقدم لنا ، تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية وبلغاريا وبولندا ورومانيا والمجر ، مساعدة متزايدة دائماً في تنمية الاقتصاد .

ونعير الزراعة التي تكبدت أكثر من غيرها من جراء الحرب اهتماماً خاصاً . ويبقى الخط الاستراتيجي هنا كما هو : تصفية العلاقات الاقطاعية ومواصلة الاصلاح الزراعي المائي لمصلحة جماهير الفلاحين . وكما هو معروف ، فإن حل المسألة الزراعية حلاً عادلاً كان دوماً وفي كل مكان محوراً للتغيرات الوطنية الديمقراطية . ونحن نعتبر أن تحسين العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في الريف

الأفغاني ورفع مستوى معيشة الفلاحين على هذا الأساس يشكلان الشرط الرئيسي لنجاح سياسة المصالحة الوطنية وتوسيع القاعدة الاجتماعية لثورة نيسان (ابريل) .

تعتبر المدارس والمستشفيات وأحياء المباني السكنية والمكتبات العامة والمتاحف ودور السينما الجديدة مثالاً على عناية الحزب والحكومة بحاجات الشعب . أما الواقع الماثل في أن ثمة في بلادنا ٢٥ ألف دورة لمحو الأمية يدرس فيها ما يزيد على نصف مليون شخص ، فأبرزته منظمة اليونيسكو بميدالية خاصة . وأحرزت كل هذه المنجزات في ظروف الحرب ، التي نضطر فيها إلى أن ننفق على الدفاع من ميزانية الدولة ، بالعملة الوطنية ، ثلاثة أفغانيات من أصل كل خمسة .

إن موقفنا من مسائل الدين متسق وواضح . وكان دائماً يرتكز إلى كون حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني قد نشأ ويعمل على المسرح السياسي في بلد اسلامي تقليدي . وتجسد احترام الاسلام ، بوضوح ، في شعار أفغانستان وعلمها الوطني . وإن وثائق الحكم الشعبي ، وقبل كل شيء ، دستور الجمهورية ، تضمن للمؤمنين كل الظروف لأداء الشعائر الدينية . وثمة في جامعة كابول كلية دينية ، وافتتح في العاصمة مؤخراً مركزاً للدراسات الإسلامية . وفي خلال سنوات الثورة تم في كابول وحدها تشييد ٥٧ مسجداً جديداً وترميم ٥٢٧ مسجداً ومزاراً قديماً .

تشهد تجربة دول مثل لبنان وايران والعراق ، بوضوح على أن الدول الامبريالية تستغل الدين لأغراضها بشكل اجرامي . وفي أفغانستان يتستر أعداء التحولات التقدمية براية الإسلام عند ارتكاب أفظع الجرائم ضد الدين والإنسانية . وتقع عليهم مسؤولية هدم ما يزيد على ٢٥٠ مسجداً ومزاراً واستشهاد مئات رجال الدين الوطنيين .

وهاكم المفارقة الآتية : نحن ، ممثلي السلطة الثورية ، الذين يسميهم أعداؤنا «كفاراً» ، ننهض بالمساجد ونشيدها ونبدي احتراماً لرجال الدين ، بيد أن «مجاهدي الدين» ، الذين يمجدهم الغرب ، يحرقون ويفجرون الأماكن المقدسة

عند المسلمين ويقتلون رجال الإسلام .

إن أعداء ثورة نيسان (ابريل) ، الذين يصورون المرغوب فيه وكأنه واقع ، تكهنوا مرات لا تحصى بهلاكها السريع ومعها هلاك حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني . إلا أن الثورة تعيش وتتطور ، والحزب يواصل عمله البناء ، وينفذه بشكل جيد ، كما يدل على ذلك حقد أعدائنا .

يشهد رفد صفوف حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني ، بشكل مقنع ، على صمود الحزب ونفوذه المتعاظم . ويذكر الأعضاء القدامى ذلك الزمن الذي كان الحزب يضم بضع عشرات من الناس فقط . ووصل الحزب إلى الثورة وفي صفوفه ١٥ ألف عضو ، وبلغ عددهم عند انعقاد الكونفرنس الحزبي العام الأول في عام ١٩٨٢ حوالي ٩٠ ألفاً . وحضر الكونفرنس الثاني في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٨٧ مندوبون عن ١٨٥ ألف حزبي . علماً بأن سيل طلبات الانتساب إلى الحزب قد ازداد بشكل حاد بعد اعلان نهج المصالحة الوطنية . وفي خلال السنوات الخمس الأخيرة ازداد عدد أعضاء المنظمات الحزبية في بعض المحافظات وفي العاصمة بثلاث وأربع مرات . وبلغ العدد العام للمنظمات القاعدية في بعض المحافظات وفي العاصمة بثلاث وأربع مرات . وبلغ العدد العام للمنظمات القاعدية في الحزب ٦١٦٠ منظمة ، تعمل منها ٢١١٧ منظمة في وحدات القوات المسلحة .

تقدم الأرقام الآتية لنا صورة عن عن بنية الحزب الاجتماعية : ضمن من انتسبوا الى صفوفه في فترة ما بين الكونفرنسين يشكل العمال ١٨ في المئة والفلاحون - ٢٦,٥ في المئة والحرفيون - حوالي ٣ في المئة والمثقفون - ٣٦,٩ في المئة . ويشكل الأفغانيون دون سن الثلاثين أكثر من نصف الأعضاء الجدد . وتشكل النساء عُشْر أعضاء الحزب ، وتعتبر اللجنة المركزية ذلك غير كاف وستواصل العمل في هذا الاتجاه .

إلا أن ازدياد عدد أعضاء حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني باطراد ليس بالنسبة لنا هدفاً بحد ذاته . ويسهر الحزب على نقاوة صفوفه ولن يسمح لأحد

بالاخلال بالانضباط في داخل الحزب ومبادىء المركزية الديمقراطية . وتتطلب وقائع اليوم الراهن القاسية تغيير أسلوب وطرائق القيادة وإزالة عادات الماضي الضارة الآتية : الخمول وانتظار التعليمات «من فوق» ، الميل إلى شعارات رنانة لا تستند إلى العمل ، انعدام روح المبدئية والتشدد تجاه أنفسنا ورفاقنا في الحزب على حد سواء . وينبغي أن نتخلى عن الممارسة الفاسدة المتمثلة في نقل الكسالى أصحاب المقامات الرفيعة من كرسي ألى آخر . وسيستمر النهج الرامي إلى غرس روح التواضع في أعضاء الحزب في كل مكان وفي كل شيء .

وسنواصل النضال ضد البيروقراطية في أجهزة الحزب والدولة . ومن الهام جداً بالنسبة لكل مسؤول أن يزيد زياراته إلى : القرى ، وورش المؤسسات ، ومؤسسات التعليم ، وثكنات الجنود . ولا يسع المرء إلا أن يرحب بكون عدد كبير من أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي يقضي القسم الأكبر من وقته ليس في مكاتبه ، بل في السفر إلى المحافظات واللقاءات مع السكان .

وأتذكر بهذه المناسبة كلمات عاملة من محافظة قندوز ، جرحت عند انفجار قنبلة وضعها الدوشمان . ذهبتُ إلى بيتها مباشرة ، لكي أقلدَها وساماً لقاء العمل النموذجي والمشاركة في الدفاع عن مكتسبات ثورة نيسان (ابريل) . لقد استشهد ابنان لملالاي (هذا هو اسم المرأة) في الجبهة ، وكان ابناها الآخران يخدمان في القوات المسلحة . قالت ملالاي ، رداً على سؤالي هل تحتاج إلى مساعدة ما : «إن الشيء الوحيد الذي أريده هو أن تشعروا ، أنتم المسؤولين ، بأنفسكم دائماً شعور السمكة في الماء . علماً بأن الماء بالنسبة لرجل السياسة هو الشعب . . .» .

وثمة واجب آخر هام جداً بالنسبة للقادة الحزبيين أجاد الحديث عنه في كونفرنس الحزب الثاني العامل رشيد الذي دعا المسئولين إلى أن يكونوا دائماً أوفياء بوعودهم وأن يطبقوها في العمل . وأكد رشيد قائلاً : والشيء الرئيسي هو أن الشعب يريد أن يسمع دائماً الحقيقة .

إن وحدة الصفوف مسألة ذات أهمية حيوية بالنسبة لحزب الشعب الديمقراطي الأفغاني ، شأن أية منظمة سياسية . وعلى امتداد سنوات طوال ، كان

ثمة صراع تكتلي مكشوف ومستور يمزق الحزب . وهو يشتد بسبب المنافسة بين شتى المجموعات الصغيرة ورؤسائها الذين لم يستطيعوا التغلب على عادات التنظيم الحلقي . ومما يلفت انتباهنا ، بقوة خاصة ، إلى هذه القضية هو تطور عملية المصالحة الوطنية وتأسيس أحزاب جديدة في البلاد وآفاق الحكم الائتلافي .

وإن التقدم نحو إشاعة الديمقراطية في حياة المجتمع الأفغاني يضمن للأحزاب القائمة أو للأحزاب التي لا تزال في طور النشوء والتي تتوخى المصالحة الوطنية امكانات العمل العلني والإفصاح بحرية عن آرائها في المسائل كافة . وسجلت السلطة الشعبية ذلك في قانون خاص . ويمكننا أن نقدم دليلاً على أن تكوّن نظام تعددي بالتدريج عملية التعاون بين حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني وعدد من الأحزاب اليسارية الديمقراطية . كما أن رجال الدين الوطنيين يبدون رغبة في تأسيس حزب اسلامي في أفغانستان . وثمة ممهدات لنشوء حزب فلاحي . ويجري البحث عن حل وسط مع سائر القوى السياسية أيضاً .

ولهذا السبب يحتاج حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني إلى وحدة صفوفه أكثر مما في أي وقت مضى . ويجب علينا أن نضمن تلاحم صفوفنا فعلاً ، وليس قولاً ، وإلا سيفقد الحزب دوره التنظيمي والتعبوي في المجتمع وسيجد نفسه خارج النظام السياسي . ويعتبر أعضاء الحزب مسألة الوحدة ذات أهمية حيوية ، وستنعكس هذه المسألة كذلك ، على ما يبدو ، في جدول أعمال المؤتمر الثاني الذي من المزمع عقده في ربيع عام ١٩٨٨ ،

اننا نعتبر حزبنا جزءاً لا ينفصم عن الحركة التي شملت كل الكوكب في سبيل عالم خال من الحرب والعنف ، ومن أجل التعاون والتفاهم بين الشعوب . ونرى واجبنا الأممي إزاء صديقنا العظيم النبيل ـ الشعب السوفيتي خاصة ، يكمن في توفير ظروف من أجل عودة القوات المسلحة السوفيتية المحدودة في أفغانستان إلى وطنها . وإن حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني ، إذ يعمل ضد الصراع العسكري في البلاد والمنطقة ويدافع عن سيادة الجمهورية واستقلالها ، يعزز نفوذه على الصعيد العالمي . والدليل على ذلك النمو الدائم لصلاته الأممية . وقد

وقعنا ، حتى الآن على بروتوكولات التعاون مع ٧٦ حزباً من مختلف بلدان العالم ، ونقيم الصلات عموماً مع ١٥٠ حزباً سياسياً ومنظمة تقدمية وحركة .

لقد أثارت سياسة المصالحة الوطنية المطبقة في أفغانستان اهتمام جهات كثيرة في الخارج ، وخاصة في كمبوتشيا وبلدان امريكا الوسطى الخمسة . وترتدي فكرة المصالحة بحد ذاتها طابعاً انسانياً عاماً . وقد تشربت بالخبرة التاريخية لتجديد المجتمع على أسس ثورية وتعكس سعي الناس الأبدي الى استئصال الحروب وإلى التقدم والانسانية . وتجسدت فيها محاولة استيعاب التفكير السياسي الجديد الذي أعلن إن الحياة البشرية والسلام على الأرض يعتبران القيمة العليا .

إن تسلسل الكلمات في عنوان المجلة التي تخصص لها هذه السطور يبدو لي ، بحد ذاته ، ذا دلالة عميقة . فإن لقضايا السلم والاشتراكية صلة لا تنفصم ، وتستحيل الثانية بدون الأولى . ويعتبر برنامج المصالحة الوطنية بالنسبة لنا جواباً ممكناً وحيداً عن سؤال كيفية إيقاف إراقة الدماء في أفغانستان والمساهمة ، بالتالي ، في تنقية الأوضاع في المنطقة وعلى الصعيد العالمي . ويرى حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني احدى مهامه الرئيسية في تعجيل هذه العملية وإيجاد ضمانات ثابتة للسلام .

●

* نجيب الله (ولد عام ١٩٤٧) ـ خاض النضال الثوري منذ حداثة سنه . عضو في حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني منذ تأسيسه (عام ١٩٦٥) . أصبح بعد انتصار ثورة نيسان (ابريل) في أفغانستان سكرتيراً للجنة الحزب في مدينة كابول ، ثم زاول عملاً ديبلوماسياً ، وكان سفيراً في ايران . وعلى امتداد بضع سنوات ترأس أجهزة أمن الدولة . منذ ١٩٨١ ـ عضو في المكتب السياسي للجنة المركزية ، ومنذ١٩٨٥ ـ سكرتير للجنة المركزية . لقد انتخب في الاجتماع الكامل الثامن عشر للجنة المركزية (أيار/مايو ١٩٨٦) سكرتيراً عاماً للجنة المركزية لحزب الشعب الديمقراطيه الأفغاني . وفي نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧ انتخبته «لويا جيرغا» ـ الاجتماع الوطني العام الأعلى ـ رئيساً لجمهورية أفغانستان .

١) كل ٥٠ «أفغاني» تعادل دولاراً امريكياً واحداً» ـ المحرر .

لنتحل بالجرأة على التفكير!

غابرييل غارسيا ماركيز

كاتب كولومبي

إن اسم الكاتب الكولومبي الحائز على جائز نوبل ، ومؤلف النتاجات المعروفة عالمياً «مئة عام من العزلة» و«خريف البطريرك» معروف بين قراء العديد من البلدان . وبالإضافة إلى النشاط الأدبي يتركز اهتمام ماركيز على النضال في سبيل الحفاظ على الأصالة القومية للثقافة والادب والسينما في أمريكا اللاتينية . وحول هذه القضية يدور الحديث الصحفي الذي أدلى به الكاتب إلى أحد العاملين في مجلة «قضايا السلم الاشتراكية» .

ـ في السنوات الأخيرة شاركتم في عدد من اللقاءات العالمية المختلفة من حيث الطابَع والمستوى . فهل بينها ما هو مشترك ، ويعكس اتجاهات تطور الفكر الاجتماعي المعاصر ؟
ـ أعتقد أن أياً من هذه اللقاءات يمكن أن يكون مثالاً مُقنعاً على مسؤولية البشرية المتزايدة عن صيانة السلام ، وطموح الناس ، الذين يمثلون بلداناً ذات

أنظمة اجتماعية مختلفة ، إلى التعاون ، وإننا اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، بحاجة إلى الحوار والاتصالات .

وهنا تعطي الشخصيات الثقافية مثالاً جيداً . فعلى سبيل المثال ، حضرتُ في أثناء مهرجان موسكو السينمائي لقاء لسينمائيي الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، حيث نوقشت مشاريع اخراج مشترك . وفي البداية كنتُ في شك من الأمر ، لكن ، عندما فهمت أن الحديث لا يدور حول التعاون مع «مصنع الخيال» هوليوود ، وإنما مع منتجين ومخرجين مستقلين ، وعرفت تلك الأهداف الإنسانية التي يبتغيها المتعاونون ، وثقت بأن هذه الفكرة ستعود بنتائج جيدة وستقوم بتعزيز الثقة بين الشعوب .

ـ غالباً ما تزورون دولاً مختلفة في قارة أمريكا اللاتينية . فما الذي يميز حياتَها السياسية اليوم ؟

ـ الوعي بالوحدة الذي ينتشر بين شعوب بلدان أمريكا اللايتينية . . . وإني أتحدث عن وعي بضرورة اتخاذ القرارات والعمل بصورة مشتركة .

ـ في عام ١٩٧٣ ، عندما وقَع إنقلاب في شيلي ، علم القراء ، بأن ماركيز لن يطبع كتبه ما دام بينوشيت في السلطة . وفي أحد الأحاديث الصحفية التي أدليتُم بها قلتم : إنكم قد خسرتم هذه المعركة . . .

ـ إن حياة الكُتّاب غنيةٌ ، حتى بالمعارك الخاسرة كذلك . لقد خسرتُ هذه المعركة فِعلاً . ولكن النصر النهائي سيكون لنا . وقد توصلتُ الى استنتاجٍ مفاده أنني إذا كتبتُ كتباً جيدة ، فسألحق ببينوشيت ضرراً أكبر مما لو تخليتُ عن الكتابة .

ـ إن أدبكم ، ابتداءً من القصص القصيرة الأولى ، مُفعَم بالتفاؤل والثقة بالعقل البشري . إلا أنه يمكن اكتشاف تحليل العنف في غالبية نتاجاتكم . . .

ـ إذا لم يَعِ الناس أنَ مفاهيم مثل المساواة والحرية حقٌ ثابت لكل انسان ، وإذا لم يتعلموا فهمَ بعضِهَم البعض ، فإن هذا لن يؤديَ إلى أي شيء حسن . وفي هذا الصدد أنا واثق من أن على الفن والثقافة عموماً أن يضطلعا بدورهما النافع .

ـ أنتم ، بلا شك ، تقصدون الثقافة الحق ولكن شمة «ثقافة جماهيرية» أيضاً تدعو غالباً إلى

القسوة والعنف .

- نعم ! حقاً إن الفن التجاري ينشط في فرض قوالبه الجاهزة ، بما فيها الداعية إلى عبادة القوة . ومما يثير الأسف أن المثقفين والفنانين الحقيقيين في أمريكا اللاتينية وفي الغرب عموماً ، لا يقدرون خطرَ الوضع القائم . ولنأخذْ ، على سبيل المثال ، التلفزيون . فثمة كتاب يهملونَه لأنهم يعتقدون أنه يقع تحت سلطة «الثقافة الجماهيرية» . وأنا افترض أن هذا خطأ . اذ بتخليهم عن أداة هامة وقوية للتأثير في ملايين عديدة من الناس ، فانهم يضعون التلفزيون تحت رحمة أرباب الفن التجاري حتى بدون محاولة ردعهم .

- يُطرحَ أحياناً رأي يقول : إن ماركيز يكتب للمثقفين ، بل وحتى لدائرة ضيقة من النخبة .

- يبدو لي أن الثقافة المعزولة عن الجماهير لا حق لها في الحياة . وأنا لا أفهم ثقافات النخبة . وهي موجودة بالطبع ، ولكنها عاجزة عن القيام بأي دور هام على الصعيد التاريخي . إذ يجب أن تكون لكل ثقافة جذور شعبية وأن تخاطب الشعب .

وهذا ما تؤكده خبرتي الخاصة : فقد أصبحت كاتباً حقيقياً عندما فهمت فقط أن المصدر الحقيقي لأية ثقافة وطنية هو الشعب. وأصبحت تلك المادة الشاعرية الأدبية العظيمة الكامنة في الفرلكلور والموسيقى وحكايات سكان ساحل الكاريبي إحدى نقاط الانطلاق في أدبي .

وثمة جانب آخر للمسألة ذاتها . لقد كنتُ في ذلك الحين أفكر فعلاً بأني أكتب كتبي للمثقفين والقراء المؤهلين تأهيلاً مِهنياً ، إذا كان يمكن قول ذلك . ولكن ، تبين أن رواياتي يقرأها حتى أولئك الذين لم ينالوا سوى قسطٍ ضئيل من التعليم . وهذه الكتب لا تعجبهم فحسب ، بل وتثير رغبة الابداع الكامنة في نفوسهم . فعندما كنت أسأل عن رأيهم فيما اكتب ، كانوا يجيبون أنهم يعرفون قصصاً أكثر إمتاعاً ، وبالفعل حدثوني عن قصص أفضل مما كتبت .

- يؤكد النقاد الأدبيون التقدميون أن الاعتراف العالمي بالرواية الامريكية اللاتينية ناتج

عن شعبيتها الى حد كبير . فهل تتفقون مع ذلك ؟

ـ طبعاً . ففي خلال فترة طويلة ظهرت في أمريكا اللاتينية روايات ، وحتى روايات جيدة ، ولكن المؤلفين ذاتهم سعوا ، قبل كل شيء ، إلى ترجمة نتاجاتهم في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، حيث تاهوا في مجرى تيار النشر . وهكذا استمر الأمر عشرات السنين حتى برزت ظاهرة سميت فيما بعد «نهضة الرواية الأمريكية اللاتينية» . وفي ذلك الحين ، في نهاية الستينات ، أدركنا أن النهضة لم تحصل لأن كتبنا جذبت اهتمام العالم الخارجي ، وإنما لأنها أصبحت تقرأ في أمريكا اللاتينية . أي أن النهوض الفعلي في تطور الرواية الأمريكية اللاتينية حصل بعد أن نجحنا في التعبير عن مطامح وآلام ومعاناة وأفراح قراء بلداننا فحسب . والنجاح في القارة وحده أثار الاهتمام الحقيقي بهذه النتاجات في مراكز الثقافة الكبيرة . وحصل ما هو معاكس لتصوراتنا تماماً : فقد مضت الحركة لا من الخارج إلى عمق القارة الأمريكية اللاتينية ، بل على العكس ، من الداخل إلى العالم الخارجي .

ـ هل يمكننا القول بأن السينما في أمريكا اللاتينية في حالة شبيهة بحالة أدب القارة قبل ازدهار الستينات ؟

ـ لقد حققتِ السينما في أمريكا اللاتينية تقدماً كبيراً اليوم ، ولكنها مع الأسف ، غير معروفة لدى الجمهور الواسع . وتظهر عندنا أفلام كثيرة مشوقة وهامة ولكن ، ليس لهذه الأفلام جمهور : فتوزيع الأفلام في بلدان القارة يخضع لسيطرة الاحتكارات الأمريكية فوق القومية غير المهتمة اطلاقاً بمثل هذه الأفلام . ولا يوجد بالنسبة لها غير سينما اللهو التجارية وسينما «الثقافة الجماهيرية» . وهذا الواقع هو ما نحاول تغييره عن طريق «صندوق السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة» الذي أنشىء قبل سنتين .

ـ نرغب في أن تعرفونا بوصفكم رئيساً للصندوق على مهام منظمتكم .

ـ قبل كل شيء الاهتمام بتطوير السينما الامريكية اللاتينية . ثانياً : ضمان سوق لنتاجاتها . وثمة مهمة أخرى هامة ، وهي الحفاظ على الأشرطة السينمائية

الملتقطة في امريكا اللاتينية . فليست كل البلدان عندنا قادرة على انشاء أرشيف سينمائي وتسجيل الأشرطة الملتقطة وتنظيمها . وقد أدى هذا الوضع إلى ضياع بعض الأفلام الوثائقية نهائياً . علماً بأن من الصعب المبالغة في أهميتها التاريخية . وإذا استمر الأمر على هذه الحال ، فلن تبقى بعد عشرين عاماً في أمريكا اللاتينية لقطات تصور تشي غيفارا وسلفادور الليندي أو الدكتاتوريين . ولا يصح الاحتفاظ بجزء من الذاكرة فقط ، فذاكرة التاريخ ضرورية كلها .

ولهذا الهدف خطَّطْنا لمشروع باهظ التكاليف . إذ سنحاول جمع الأموال لتوفير تسهيلات في مكتبة سان ـ باولو السينمائية لحفظ الأشرطة السينمائية القديمة والحديثة ، والتي ستظهر في المستقبل .

ـ إن ضمان سوق يعني منافسة تلك الاحتكارات فوق القومية التي تسيطر على توزيع الافلام .

ـ نعم ، إلى حد ما . وقد قمْنا بشيء ما في هذا المجال . وأعتقد أنه ستحل قريباً مسألة الحصول على دار سينما في كل بلد من بلدان قارتنا للقيام بعرض أفلام مخرجي امريكا اللاتينية بصورة دائمة . ولهذا الهدف ذاته سنحاول تأجير قاعات سينما في بعض العواصم الأوربية .

ومع ذلك فان الأمر الرئيسي هو إحداث انعطاف نفسي في عقلية المشاهدين وموزعي الأفلام . وهذا ما ينبغي عمله ليس في البلدان التي تسيطر عليها الاحتكارات فوق القومية فحسب بل في الاتحاد السوفياتي أيضاً . . . ومهما بدا الأمر غريباً . فالمشاهد في الاتحاد السوفيتي كان في السنوات الأخيرة محروماً عملياً من إمكانية رؤية أفضل أعمال سينمائيي أمريكا اللاتينية . والحقيقة هي أن مشتري الأفلام السينمائية السوفيت لم يكونوا دائماً اختصاصيين . وإذ كانوا يعتمدون على ذوقهم الخاص ، فإنهم أحياناً يفضلون أفلام الترفيه على الأفلام الجدية . ونحن نرغب في تغيير مثل هذه الممارسة . ونعتقد أن هذا الأمر ممكن ، وخاصة الآن ، إذ تجري في الاتحاد السوفيتي تغيرات هامة تشمل مجالات الحياة الاجتماعية كافة . فإعادة البناء تنطوي على طاقة ايجابية هائلة ، وأعتقد أنه مع إرساء معايير فنية

جديدة سيزداد اهتمام الجانب السوفيتي بالأفلام الجدية التي تعكس الوقائع الحقيقية في قارتنا .

ـ في العام الماضي افتتحت مدرسة السينما والتلفزيون العالمية في كوبا ، في سان ـ انطونيو دي لوس بانوس . وكما يبدو ، فإن هذا يشكل الخطوة الأولى على طريق تحقيق واحدة من مهمات الصندوق الرئيسية ، التي اعتبرتموها «تطوير السينما الامريكية اللاتينية» ؟

ـ الأولى والأهم على الإطلاق . إن المشروع الأكثر كلفة لمنظمتنا . هو برنامج حفظ الأفلام السينمائية في القارة . أما المشروع الأكثر طموحاً فهو المدرسة . لقد طرحت ، بوصفي رئيساً للصندوق ، قضية تأسيسها على دول مختلفة في أمريكا اللاتينية ، ولكن لم تكن لذلك نتائج ملحوظة . أما كوبا فقدرت فوراً أهمية المبادرة وقدمت البناية التي تشغلها المدرسة حالياً هدية لنا . وفي هذه المدرسة يدرس أولئك الذين سيصبحون في المستقبل مخرجين ومصورين وكتاب سيناريو .

ـ يكتبون في الصحافة الغربية أن فكرة تأسيس المدرسة تعود للقيادة الكوبية ، أما ماركيز فليس سوى داعية لها .

ـ إني أساوي بين نفسي والثورة الكوبية ، وتربطني مع الشعب الكوبي علاقات متينة الى حد أنني لن أكون فعالاً كداعية لأفكار القيادة الكوبية في العالم الخارجي .

وإذا تحدثنا بجد ، فإنني أؤكد مرة أخرى : أنها ليست مدرسة كوبية ، ولا تندرج ضمن نظام التعليم في البلاد . ونحن ندير شؤونها وقضاياها المالية كلها . والمدرسة ديمقراطية في جوهرها ، والتدريس والدراسة فيها مجاناً . ويعمل المدرسون من البلدان المختلفة (وأشير ألى أنهم من ذوي المؤهلات العالية جداً) على أساس الطوعية . وبالطبع ، لا يستطيع الجميع قراءة المحاضرات على مدى العام الدراسي ، ويأتي البعض لمدة محدودة ، في أيام السبت والأحد أو لمدة أسبوع أو شهر . وأنا على سبيل المثال ، أشرف في خلال ثلاثة أشهر في السنة على دروس في ورشة «كيف تروى القصص» ، حيث ندرس مع الطلاب مقاطع من السيناريوهات المقبلة .

إن العمل في المدرسة بالنسبة لي يعني الحصول على خبرة ثمينة جداً . ولو كنت أعلم قبل عشرين سنة إن التدريس ممتع ، لما استطعت ، ربما الانغمار في الأدب إلى هذا الحد . أما الآن فإني أفكر بالجمع بين هذين النوعين من النشاط . فماذا أحاول تدريس طلابي ؟ قبل كل شيء القدرة على التفكير . والمهمة الرئيسية في ورشتي القضاء على القوالب الجاهزة وتعليم الشباب استقلالية التفكير ، ليستطيعوا التعبير عن مشاعرهم الحقيقية ومشاعر شعبهم . ولكن طلابي ، الذين يكونون قد انجزوا سيناريو أو فيلماً ، لا ينجحون دائماً في فعل هذا . فتجربتهم السابقة تترك حتماً أثرها وتعرقل خروجهم من الأُطُر المتعارف عليها .

ولهذا السبب فسأقبل في دورتي ، في كانون الثاني (يناير) من العام الحالي عشرة أطفال في التاسعة من العمر بدلاً من عشرة تلاميذ كبار سابقاً . وهم يختلفون عن رفاقهم في كونهم لم يشاهدوا السينما في حياتهم ولم يَروْا فيلماً تلفزيونياً واحداً بتاتاً . إنهم أطفال ريفيون ، وهم أقرب إلى التقاليد الشعبية والشعب ، ولا ينوء كاهلهم تحت ثقل التصورات التقليدية حول كيف يجب أن نكتب وكيف يجب أن لا نكتب . وبالطبع لا يصح الاعتقاد بوجوب أن نكون فارغين تماماً لكي نقدم نتاجاتنا الخاصة . ولكن لا يجوز الانحصار في أطر الثقافة التي استوعبْناها ، فمن الضروري أن نفكر . وخطر في ذهني أن أبدل عنوان دروسي من : «كيف تروي قصة» إلى «لنتحل بالجرأة على التفكير» .

إنني أثق بأن القسم الغالب من المثقفين المُبدعين في أمريكا اللاتينية يبقى متمسكاً بالتقاليد الإنسانية . والأمر الرئيسي : العمل والنضال . وهذا النضال سيكون ضمانة للمحافظة على ثقافة الشعوب الحقيقية في قارتنا والثقافة الأصيلة للبشرية كلها .

●

نعيش في عالم متغيّر جديد

رودني أريسمندي

السكرتير العام للجنة المركزية
للحزب الشيوعي في أوروغواي

لقد شهدنا بعد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي انقلاباً حقيقياً في العلاقات الدولية . وفي الوقت نفسه قام في احشاء الاشتراكية ذاتها صراع داخلي يهدف إلى استخدام أفضلياتها بشكل كامل وإضفاء طابع ديمقراطي عليها وتعجيل التطور الاقتصادي الاجتماعي وتغيير ادارة الاقتصاد . ويدور الحديث كذلك ، بمعنى ما ، عن تحولات فكرية وأخلاقية عميقة .

ويتم حل هذه المسائل الجليلة وفقاً للثورة الاشتراكية العظمى ، الأولى في العالم ، والدولة الشاسعة التي تحدد إلى حد بعيد مصير البشرية والتي تحولت ـ كما يمكن القول ـ إلى مركز مادي وفكري للحركة الثورية في العالم . ولذا يرتدي كل ما يجري في الاتحاد السوفيتي أهمية قصوى . وأعتقد أنه من وجهة النظر هذه يمكن أن نبرز ، بشيء من التبسيط ، من بين الموضوعات الكبيرة التي طرحت في المؤتمر السابع والعشرين وفي خطب ميخائيل غورباتشوف اللاحقة وفي سياق المناقشات

في الاجتماعات الكاملة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وأمام الجماهير العريضة من المواطنين السوفيت **موضوعتين** رئيسيتين ومترابطتين بشكل لا ينفصم ، هما : إعادة البناء ، والتناول الجديد للعلاقات الدولية بغية ضمان بقاء الحضارة .

إن المسألة الناجمة عن إعادة البناء والتفكير السياسي الجديد ، والتي تحتل مركز الصدارة في اهتمام الرأي العام العالمي ، هي إيجاد مجالات معينة في إطار المباراة بين النظامين (أو حتى خارج هذا الإطار) تمكّن من صيانة السلام على أساس تطور البشرية وحل قضاياها العالمية والنضال ضد الفقر والأمية وتلوث البيئة وإفنائها ، وهي لا تخص الشيوعيين وحدهم ، ولا السوفيت وحدهم ، بل جميع سكان المعمورة أيضاً .

إن الاحتفال بالذكرى السبعين لأكتوبر العظيم واللقاء الذي جرى بعده والذي حضره مئات المندوبين من الاحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية والحاكمة في بلدان «العالم الثالث» ورسل الاحزاب الثورية والشيوعية ، قد أظهرا ، في سياق حوار حر : إن مبادرات الاتحاد السوفيتي فتحت أمام البشرية ، في خلال فترة وجيزة لم يسبق لها مثيل ، آفاقاً جديدة ، الأمر الذي يشكل الآن النقطة الأهم .

وإذ أتطرق إلى مسألة ملتبسة بعض الشيء حول جوانب الاشتراكية ، التي يجب أن نحتفظ بها ونطورها ، وجوانبها التي يجب أن نصححها ، أريد أن أقول أنه في ضوء التاريخ الطويل يمكن تأكيد الآتي : لقد انتصرت الاشتراكية ، أي انتصرت القضية العظيمة ، قضية تحويل الاشتراكية من الطوباوية إلى واقع ، هذا التحويل الذي قام به لينين ـ متمسكاً بوصايا ماركس ـ في ظروف ملموسة لبلد شاسع ، وبشكل تفتحت معه آفاق أمام البشرية بأسرها .

لقد تحقق ذلك في أوضاع صعبة جداً . وليس سعياً وراء شروح سهلة ، أدعو دائماً ، وبإلحاح ، إلى أن نتذكر أن الحديث كان يدور حول إحدى الدول المتأخرة ، ذات المناخ القاسي جداً ، والتي ثلثا سكانها من الأميين ، وجزء كبير

منهم آسيويون عاشوا عيشة بائسة في ظروف القرون الوسطى ، وجرت فيها تغيرات عظيمة ، بالرغم من دمار الحرب الأهلية والحصار الأجنبي وحرب أخرى أزهقت ٢٠ مليوناً من الأرواح البشرية ، وبالرغم من الابتزاز الذري من قبل امبريالية الولايات المتحدة الامريكية بعد هذه الحرب مباشرة . وبتعبير آخر ، مرت الاشتراكية بأقسى امتحانات واصطدمت في مجرى تذليلها بوقائع لا يتخيلها أحد .

رأى المنظرون البارزون للاشتراكية العلمية اتجاه الحركة العام بوضوح . وعمق لينين استقصاء الدروب غير المطروقة ، ولكن المهمة التي كانت مطروحة في جدول العمل آنذاك هي : جعل الاشتراكية واقعاً قائماً في بلد ملموس وفي أوضاع ملموسة وفي عالم ملموس . ومن وجهة النظر هذه ، فإن الاشتراكية قد انتصرت . لقد انتصرت كما تؤكد الحياة ، ليس فقط لأنه بني مجتمع جديد وتم التصنيع وإشاعة التعاونيات في الزراعة والثورة الثقافية وارتفع مستوى السكان التعليمي والمادي ، بل لأنه تسنى ، حتى قبل الحرب ، تحويل الاتحاد السوفيتي إلى الدولة الصناعية الأولى في اوروبا أيضاً . هذا يعني أن الانتصار قد أحرز في المسألة الرئيسية ، وكانت الحرب بمثابة محك لوحدة صفوفه وبطولته وقدرته على نكران الذات . وفي الوقت نفسه تعرض النظام نفسه للاختبار ، لأن ألمانيا الفاشية قد أصبحت ، بدعم من رأس المال الأوربي ، البلد الأكثر تطوراً من حيث التكنولوجيا . إلا أن كل قواتها المسلحة والتقنية منيت بالهزيمة ، وأنقذت البشرية من الطاعون البني . لقد انتصرت الاشتراكية في المعارك ، ولكنها انتصرت أيضاً في مجرى النهوض بما دمرته الحرب . وترتب عليها بذل جهد جهيد لاقتحام الفضاء الخارجي بأقمارها الصناعية ، وفي ظروف صعبة جداً وفي آجال قصيرة ، والتوصل إلى تلك الحدود الأمامية للعلم والثقافة ، التي يعرفها اليوم العالم أجمع .

وبطبيعة الحال ، نعرف ، نحن الشيوعيين القدامى ، قبل غيرنا ، أنه في سياق هذه الأحداث التي غيرت معالم العالم جذرياً وقعت أخطاء وانحرافات عن الطريق المرسوم ، وحتى فواجع أيضاً . إن خطاب ميخائيل غورباتشوف في

احتفالات الذكرى السنوية السبعين لثورة اكتوبر يسمح برؤية القضية بمزيد من الوضوح والترتيب . ذلك أن عبادة شخصية ستالين أثرت ، بشكل مأساوي جداً، في الواقع السوفيتي وأدت إلى اختلافات في الحركة الشيوعية .

هل من الجائز ، فضلاً عن عبادة الفرد ، فرض الجمود العقائدي والاستعاضة عن الديالكتيك اللينيني الغني جداً بمعادلات جامدة وعدم فهم العلاقات المتبادلة بين الحزب والطبقة العاملة والمثقفين على النحو المطلوب ؟ أو التقييمات غير الصحيحة التي أعطيت أحياناً للواقع الدولي والعلاقات مع الحركة الشيوعية ؟ أي : ثمة طائفة كاملة من الأخطاء والنواقص أمامنا . ولكن الشيء الرئيسي يتلخص في أن الاستنتاج لا يمكن أن يكون ، عند عرض نتائج العملية التاريخية ، إلا كما يلي : لقد انتصرت الاشتراكية .

ولو تساءلنا عن مصيرنا بدون هذا الانتصار ، بدون الثورة الروسية ، بدون الاتحاد السوفيتي ، لكان الجواب ذا مدلول واحد أيضاً : لكان العالم اليوم يعيش تحت سيطرة الدكتاتورية النازية أو تحت «عقب» الامبريالية «الحديدي» ، حسب تعبير جاك لندن ، ولكانت الغالبية الساحقة من سكان الكرة الأرضية تعيش عيشة تعسة تحت نير الاستعمار وبقيت عبيداً للمتروبولات ، ولكانت أميركا اللاتينية - رغم مستوى تطورها الأعلى بالمقارنة مع آسيا وافريقيا - لا تعرف بعد الثورات التحررية للحرب الثانية من أجل الإستقلال ، لا تعرف انتصار كوبا وانتصار نيكاراغوا . ولما شهدنا الاتجاهات الجديدة في الواقع المعقد لقارتنا التي تغيرت جغرافيتها السياسية والتي توجد فيها ، على حد سواء ، عناصر ثورية وديمقراطيات حديثة الولادة وحركة شعبية ديمقراطية متعاظمة معادية للامبريالية عموماً .

غير أنه ، لو شرع المرء ، مندفعاً بسذاجة تاريخية وعلى غرار بعض الناس ، في افتراض ماذا كان سيحصل لو لم يحدث هذا أو ذاك ، لو لم يمت لينين قبل الأوان ، لكنا نستطيع طبعاً ، أن نفكر في شكل محتمل آخر لتطور الاشتراكية . ولكن التاريخ لا يتكون على هذا النحو ، بل ينجم - بشكل عضوي - عن الحياة ، ويصنعه الناس الذين يمتد ماضيهم بجذوره الى الرأسمالية ، الناس الذي تربطهم

قوانين التاريخ والذين هم رهن شتى العوامل : الذاتية ، المصادفة ، المبادرة الخاصة ، الأخطاء . ولذلك ، فإن المهمة الرئيسية اليوم بالنسبة لي ، كشيوعي قديم لا تتلخص مطلقاً في إعادة النظر في دور الثورة الروسية لدى عرض نتائجها . ولا يمكن أن تساورنا الشكوك في هذه المسألة .

ها هنا بين يديّ كتاب سجلت فيه الأحاديث التي أجراها معي أحد الصحفيين في أورغواي[1] ويعرض في ٢٠٠ صفحة كل ما سألني عنه بحرية كاملة ، بما في ذلك بخصوص ستالين . ويسرني جداً الآن ، بعد التعرف على خطاب ميخائيل غورباتشوف ، واقع أن أجوبتي تتفق من حيث الجوهر وأفكاره العميقة حول هذه المرحلة الصعبة جداً بالنسبة للحركة الثورية .

وإذ نرد على الأسئلة عن التاريخ الجليل ، يجب أن نقول : لقد استطاع لينين ، لحسن حظنا ، أن يفهم ـ بما اتصف به من عبقرية ـ قوانين تطور الرأسمالية الروسية في عهد الامبريالية ، وصاغ النظرية والاستراتيجية الثوريتين ونظام التحالفات ، وحدد القوى المحركة ودور البروليتاريا ، وأسس حزباً ، مكّن في أصعب الظروف من الإستيلاء على السلطة . وبتعبير آخر ، عمل لينين كعالم اختار لاختبار نظريته الطريق الأصعب ، وتوصل إلى انتصار الثورة الاشتراكية . وحددت العقود السبعة التي مضت منذ ذلك الحين ـ وليست هي إلا لحظة في حياة البشرية ـ كل مصيرها اللاحق وكل اللوحة العصرية للعالم الذي يعيش فيه مليار ونصف مليار انسان في ظل الاشتراكية ويستلهمون مثلها . وكانت السنوات المنصرمة مصيرية من ناحية أخرى أيضاً : فلم نحترق نحن في لهيب حرب نووية ، في نهاية المطاف بفضل العالم الاشتراكي الذي يملك في حوزته قوة كافية لكي يفشل النوايا الامبريالية في المغامرات الحربية بالاعتماد على الرأي العام العالمي .

لقد قلت في الخطاب الذي ألقيته في قصر المؤتمرات بالكرملين أن أفضل طريقة بالنسبة لي للاحتفال بالذكرى السبعين لثورة اكتوبر ونجاحاتها هي الترحيب بالأحداث الجارية الآن في بلاد السوفيتات ، أي إعادة البناء . وبتعبير آخر ، نحن

نرحب بقدرة الاشتراكية على الانتقاد الذاتي ومواصلة الثورة واستعدادها لحل القضايا بجرأة والانتقال في مدد وجيزة إلى مرحلة إبداعية جديدة من تطورها ، ليس بالاعتماد على الحجج الاقتصادية والعلمية والتقنية فحسب ، بل بالتوجه إلى عقل المواطن السوفيتي وفؤاده . فإن إعادة البناء تتحدد ، في نهاية المطاف ، بهذه المسائل المذكورة . ولكننا نعرف جميعاً أن تحقيقها معركة تشبه تماماً المعركة التي خاضها الشعب وهو يشيد محطة دنيبر الكهرمائية أو يحطم العمود الفقري للفاشية . ولا يمكن إحراز الانتصار فيها إلا بمشاركة جميع السكان وكل الحزب وبشرط تحسين الاشتراكية على طريق الادارة الذاتية وإشاعة الديمقراطية . ويفترض ذلك نضالاً بلا هوادة ضد البيروقراطية والجمود العقائدي وجميع الامتيازات غير المستحقة و«المناصب المربحة» التي ظهرت في ظل النزعة الإدارية البيروقراطية وانعدام العلانية . ولا يمكن الاحتفال بذكرى اكتوبر بطريقة أفضل مما فعل ذلك الشعب السوفيتي . ولا يدور الحديث فقط حول التدابير الجماهيرية والاجتماعات الحافلة والخطب ، التي تلخص منجزاته فكرياً ، وتتصف ممارسة إعادة البناء ذاتها بأهمية : إذ تتفتح في سياقها أفضليات الاشتراكية وقدرتها على التجدد وزيادة دور المواطنين في جميع مجالات النشاط الاجتماعي إلى أقصى حد .

كما لا يجوز نسيان ما يأتي : إن المبادرات السياسية الخارجية الجريئة الرامية إلى تفادي الكارثة النووية قد كونت سمعة راسخة للاتحاد السوفيتي والاشتراكية بين الشيوعيين وشعوب العالم في حل القضايا المتعلقة بمصير الحضارة . ونحن ، إذ ندعو الناس إلى فهم إنه ليس إمامهم إلا طريقين ـ أما نزع السلاح النووي واما الموت ، نعرض على البشرية بالتالي الاختيار بين معسكر الامبرياليين المتطرفين ورؤساء المجمع الصناعي العسكري و«المرتزقة» الذي يحلمون باستعباد الأمم الأخرى وإرجاع التاريخ إلى الوراء وبين الغالبية الساحقة لسائر سكان الكوكب ـ شيوعيين كانوا أم اشتراكيين ديمقراطيين ومسيحيين ، وديمقراطيين برجوازيين ومواطنين غير حزبيين ، وقساوسة ومفكرين وايكولوجيين ، خلاصة القول ـ الجزء الأساسي من البشرية ، ومن ضمنه ممثلو البرجوازية الامبريالية الذين يرفضون

البقاء ظلاً بعد الانفجار النووي أو التحول إلى غبار نتيجة استخدام أحد الأنواع الفظيعة للسلاح المعاصر .

ولا نرى تناولاً مثمراً فعلاً للمسألة ، كما قلت في اللقاء ، إلا هنا . فتصوروا أن العالم كان ، وقت انعقاد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، في مأزق ، في مصيدة حقيقية ، وكأنه يحضر تأبينه بالذات ، محاصر بالصواريخ المصوبة إليه ! وكان يمكن في ذلك الحين أن يقول شيوعي ساذج التفكير : «لن يصدق أحد ، ببساطة ، أن يوافق ريغان وشولتز والامبرياليين والجنرالات الأمريكان القتلة على تصفية الصواريخ المتوسطة المدى والأقصر ! فهل من المعقول أن يوافق ريغان الذي يسمي الإشتراكية «وليدة الشيطان» وغورباتشوف ـ قائد ـ «امبراطورية الشر» ، حسب تعبير سيد البيت الأبيض ، على اللقاء للتوقيع على معاهدة مناسبة وحل قضايا أخرى ؟ «وهل كان من السهل تحقيق الخطوة الأولى ؟ كلا ، لم يكن ذلك سهلاً ، بل صعباً جداً . ولكن ، يالها من عاصفة تطهيرية للنشاط السياسي والمعنوي اقتحمت الكوكب لكي تتخذ هذه الخطوة !

لقد تجلى جوهر الموقف السوفيتي المثمر في مسألة أخرى أيضاً . فمن كان يستطيع أن يحدس ، ملتزماً بمستوى التفكير السابق ، أننا سنجتمع جميعاً مع زعماء الأممية الاشتراكية ، مع ممثلي الاشتراكية الديمقراطية على اختلاف ألوانها ، مع رؤساء دول القارات العديدة من أجل حديث بسيط ، بدون محضر ، بدون جدول أعمال متفق عليه سلفاً ، ومع هدف واحد هو البحث في موضوع عظيم ، موضوع البقاء على قيد الحياة والسلام وإيجاد طريق للتفاهم في عمل مشترك .

تصوروا كل عظمة هذا الانتصار الجديد للاشتراكية على الصعيد العالمي ! لقد انتصرت الاشتراكية عندما اخترقت طوق الحصار الرأسمالي . وانتصرت عندما حطمت النازية . ولم تصمد هي بالذات فحسب ، بل انقذت كل البشرية من الهلاك أيضاً . وانتصرت فيما بعد ، إذ برهنت على أهليتها للتطور وإيجاد التوازن العسكري الاستراتيجي في مرحلة معينة . وهاهي الاشتراكية الآن تنتصر مجدداً ،

إذ تتقدم باقتراحات موجهة إلى عقول وأفئدة الغالبية الساحقة من سكان الكوكب . وتنشأ إمكانية استخدام الوسائل المتوفرة من أجل التطور وتفادي الكارثة الايكولوجية وإنقاذ الناس من شتى أنواع الكوارث الطبيعية . ويرتدي البرنامج السوفيتي طابعاً شاملاً ، وعالمياً . والآمال التي يبثها ، وإن كانت من نوع آخر بعض الشيء ، تذكرنا بتلك اللحظة الانعطافية التي دوت فيها طلقة «اورورا» وكلمات لينين عن انتصار الثورة . ومن جديد ، بعد ٧٠ سنة خلت تتجه أنظار البشرية إلى وطن اكتوبر العظيم .

طبعاً ، لا يجوز الاعتقاد بأن أحداث اليوم في العالم يمكن اعتبارها لعبة شطرنج أو مبارزة بين ريغان وغورباتشوف ، يدافع فيها أحدهما عن كل ما هو قديم ولّى زمنه ويذود الآخر عن كل ما هو طليعي وجديد . إذ تعود الكلمة الحاسمة إلى شغيلة الكوكب والشعوب والحكومات وتبين الحياة ذلك بأمثلة يومية .

لننتقل الآن إلى موضوع أمريكا اللاتينية . والحال ، ان العالم الشيوعي لا يفهم ، أحياناً ، قضاياها بوضوح تام . لقد أصبحت الثورة الكوبية ، التي قامت بعد سنوات طوال من اضطهاد شعوب القارة ، انفجاراً اجتماعياً قوياً غيّر تاريخ منطقتنا ومعالمها في الستينات . وبمساعدة الاتحاد السوفيتي وشعوب امريكا اللاتينية ، فإن كوبا لم تنتصر في الدفاع عن حريتها فحسب ، بل انتصرت على الولايات المتحدة أيضاً . ثم يمكن القول ، بشيء من التبسيط ، أن الامبريالية الامريكية الشمالية قد انتقلت الى الهجوم المضاد ، جاعلة من الفاشية أداتها . أجل ، أجل ، تلك الفاشية التي سماها العلماء الخجولون جداً بـ «النزعة التسلطية اليمينية» وبغيرها من المصطلحات الغامضة ، رغم كونها الفاشية بالذات ، الفاشية الامريكية اللاتينية الاعتيادية جداً والمتأصلة . وسرعان ما سادت في العديد من البلدان . وسادت ، في رأي المراقبين السطحيين ، بشكل جدي ولمدة طويلة . بيد أن مقاومة الجماهير ونضوج العمليات الثورية كنتيجة للثورة الكوبية جعلا من الممكن الانتقال إلى مرحلة جديدة سجلها انتصار الساندينيين في

نيكاراغوا ونهوض النضال المسلح في أمريكا الوسطى وانهارت دكتاتوريات المخروط الجنوبي ، واحدة تلو أخرى ، الأمر الذي حتم حلول أوضاع مغايرة تماماً .

تشكل الحرب التي شنتها الولايات المتحدة ضد نيكاراغوا جزءاً مكوناً من المخطط الرامي إلى الحيلولة دون تقرير شعوب قارتنا لمصيرها بنفسها . ولكن الثوريين ليسوا وحدهم في الدفاع عن وطن ساندينو . وحتى الناس البعيدين عن معاداة الامبريالية يؤيدون حكومة نيكاراغوا ، كما حدث ذلك في كونتادورا أو مؤخراً في اسكيبولاس[٢] . وهم الذين يصوتون في منظمة الدول الامريكية للسلام في أمريكا الوسطى وسحب القوات المسلحة الأجنبية منها ، مساهمين بالتالي في عزل الولايات المتحدة الامريكية ، كما نشهد هنا ، في نصف الكرة الأرضية الغربي ، كيف تقيم الأنظمة الديمقراطية في جمهوريات أمريكا الجنوبية العلاقات الدبلوماسية مع كوبا والبلدان الاشتراكية ، وتصوت في هيئة الأمم المتحدة مع الاتحاد السوفيتي والدول النامية وغير المنحازة ضد السلاح ، ضد الفصل العنصري ولصالح السلام .

إننا نعيش ، حقاً ، في عالم مغاير ظهرت فيه مجالات شاسعة للتعاون . ومن البديهي أن الشعوب في قارتنا أيضاً ، أمريكا اللاتينية ، تشارك في صنع مصائرها . ولكن ثمة بين الطبقات الحاكمة في القارة أيضاً عناصر معينة ـ غير ثورية مطلقاً ـ تعارض الامبريالية ، إذ لا يعجبها أن الولايات المتحدة «تحلبها» مستخدمة آلية الدين الخارجي ، وتنهب ثرواتنا الطبيعية وتعرقل تطور رأس المال المحلي ، ولأنها كانت تحمي الإرهاب الفاشي الذي كلفنا ، نحن الشيوعيين ، ألوفاً من الأرواح البشرية والذي «عرّف» عدداً كبيراً منا على السجون والمعسكرات والمنفى .

أعتقد أن الأمثلة التي ضربتها كافية لفهم تلك الدرجة من العلانية ، التي يمكن رؤيتها في مناطق أخرى أيضاً . أما الاتحاد السوفيتي ، فإن لعلانيته صلة مباشرة بضمان السلام وتخليص البشرية من الخطر النووي . وفضلاً عن ذلك ،

تساعد سياسة الاتحاد السوفيتي على مقاومة النزعة العالمية الجديدة في أمريكا اللاتينية أيضاً . وعلى الدفاع عن الديمقراطية وإنقاذ نيكاراغوا . وبطبيعة الحال ، لا يعني ما قلناه أعلاه أننا ، نحن سكان أورغواي ، نحصر الاستراتيجية في ذلك فقط . فيدور الحديث حول ضرورة أن نكون أناساً نفكر بسعة وعمق ونطبق نهجنا كذلك بشكل واسع وعميق . غير أن من لا يفهمون أن الأمر يتطلب الآن في أمريكا اللاتينية دعم الديمقراطية لا يفهمون شيئاً في نهاية المطاف ! وبديهي أن نتوخى ، في إطار الديمقراطية ، رص صفوف الحركة الثورية ، الأمر الذي يعني بالنسبة لنا ، بالتحديد ، تطوير الأعمال عمقاً . ويجب توحيد الطبقة العاملة والفئات الوسطى والمثقفين من أجل إقامة جبهات سياسية عريضة وفعالة وقوية . كما يرتبط بتوطيد الديمقراطية ، بشكل لا ينفصم ، تعاظم دور البروليتاريا والفئات الوسطى وتطور الاحزاب الشيوعية الكبيرة .

ليس بمقدور أي حزب كان أن ينفذ رسالته التاريخية ، إذا لم يكن يجيد قيادة الجماهير العريضة من الطبقة العاملة ويسترشد بسياسة واضحة في علاقته مع الفئات الوسطى في المدن والريف ، وخاصة المثقفين والطلبة ، وإذا لم يكن قادراً على إقامة نظام تحالفات كأساس لجبهة ديمقراطية معادية للامبريالية تفتح الآفاق للسلطة الشعبية ، وإذا لم يكن يستطيع ، أخيراً ، أن يصبح قوة فعالة تمتد بجذورها إلى أعماق الجماهير وتسير على نهج سياسي إبداعي يستجيب لوقائع البلاد . وأن الحزب يحتاج إلى نمو دائم، وتضمن ذلك صلاته بالشغيلة ونهجه الصحيح والتحالفات الواسعة واحترام الرأي العام له . ويجب أن تبنى حياة الحزب الداخلية على تطوير الديمقراطية الى أقصى حد وتوعية الكادر وإيجاد نواة قيادية تتميز بتواضع وقدرة على العمل ، وتتمتع بالنفوذ بين الشعب وفي منظمتها بالذات . وأعتقد أن الآراء المذكورة يمكن أن تشكل موضوعة كبيرة توجه الحركة الشيوعية العالمية .

من المعروف أن الحزب الشيوعي في اورغواي عاش في عام ١٩٥٥ أزمة عميقة أدت إلى تغيير القيادة . ولكننا لم نعتبر أن كل المشكلات وليدة القادة

السابقين . وأعاد الشيوعيون في اورغواي النظر في مسائل النظرية والايديولوجيا والسياسة وأساليب العمل بين الجماهير وأشكال حياة الحزب الداخلية وتنظيم القيادة ونشاطها . وتمت صياغة البرنامج والنظام الداخلي والاستراتيجية التي سميناها بنظرية الثورة في اورغواي . وتتلخص مهامها : في رص صفوف البروليتاريا حول مركز نقابي طبقي موحد يضطلع فيه الحزب بدور قيادي في جر المثقفين والطلبة إلى التحالف مع الطبقة العاملة ، وفي النضال من أجل إنشاء جبهة للوحدة السياسية للقوى اليسارية ، ورفد صفوف الحزب .

تم انجاز كل ذلك قبل أن تصل إلى السلطة الدكتاتورية التي حاولت تصفية منجزاتنا . ولكننا صمدنا ، وكلفنا ذلك ثمناً غالياً من مئات الشهداء والمفقودين وعشرات الألوف من سكان اورغواي المعتقلين والمعذبين . لقد خرج الحزب الشيوعي من مرحلة النشاط السري محاطاً بهالة من البطولة والصمود وواثقاً بصحة خطه . وفي المعركة من أجل تعزيز الديمقراطية وتطبيق النهج الديمقراطي المعادي للامبريالية تسنى للحزب من جديد أن يعيد وحدة الطبقة العاملة بشكل تام . ويعمل في اورغواي مركز نقابي موحد يوحد جميع الشغيلة الأجراء : العمال والمستخدمين والموظفين والمدرسين . ويضطلع بدور بارز في هذه المنظمة النافذة رفاقنا الشيوعيون النشطاء في الحركة النقابية .

كما أنجزنا غير قليل في مجال حماية التعليم العالي والثانوي ، وصياغة سياسة إزاء المثقفين . وأعتقد أن انعدام نهج واقعي بعيد النظر ، خاص بهذه الفئة من المجتمع دليل على نضوج غير كاف لدى الأحزاب الشيوعية . وفي الوقت الحاضر حققنا نجاحات كبيرة في العمل بين الأجيال الكبيرة والناشئة من الناس الذين كرسوا أنفسهم للعمل الذهني المبدع . وثمة ناد للثقافة تابع للحزب الشيوعي ، ينشط في اتجاهات عديدة . ونعزز صلاتنا بالمثقفين ليس على أساس نظرية الحزب السياسية فحسب ، بل كذلك بفضل اننا لا ندعي دور واضع قوانين علم الجمال ولا نحل محل الأدب أو الفن . ويشكل المثقفون في الحزب قوة جدية ، وهم يساعدوننا على القيام بعمل كبير هو : تعزيز «الجبهة الواسعة» التي تضم الشيوعيين

والاشتراكيين والمسيحيين الديمقراطيين والديمقراطيين اليساريين وممثلي الأوساط الدينية والعسكريين وذوي المهن الحرة وزعماء العمال وهلمجرا . ويشكل كل ذلك بديلاً من السلطة القائمة على أساس تمثيل برلماني واسع . ويعتبر الحزب الشيوعي جزءاً مكوناً هاماً من الجبهة ، ولكنه في الوقت نفسه يتطور كمنظمة مستقلة .

لقد خرجنا من الدكتاتورية نلعق جراحنا . وبالرغم من الدمار الشامل تقريباً ، واصلنا العمل بنشاط : بدأنا إصدار صحيفة اسبوعية ، ثم جريدة يومية ، دخلنا في قيادة محطة اذاعية كبيرة ، نصدر مجلة نظرية ونشرات خاصة بالمثقفين ، نمتلك قاعات ضرورية ، الخ . ونتيجة لذلك ، ازداد عدد أعضاء الحزب الشيوعي في اورغواي بمقدار ٣٠ ألف شخص ، فضلاً عن ١٥ ألف عضو جديد في اتحاد الشبيبة الشيوعي . ومن حيث التركيب النوعي يشكل العمال ٧٥ في المئة من أعضاء الحزب . والشباب ٦٥ في المئة ، والنساء ٣٨ في المئة ، ويشكل المثقفون فئة ملحوظة في الحزب . ويجري الآن البحث في مسألة الانتقال إلى المرحلة التالية ، لأنه رغم أن الشيوعيين يمثلون قوة ملحوظة على صعيد البلاد ، يبدو أن المشاركة في الحكومة ستتطلب حزباً أكبر وأكثر عدداً وقوة .

وتتلخص مهامنا الأساسية في النمو والتنظيم وتوعية الكادر . ويجب العمل على حلها على أساس منظومة واسعة التثقيف الحزبي تشمل ألوف الناس الذين يحتاجون إلى إعداد نظري وايديولوجي وتعليمي عام . ونعتقد أن هذا العام الجديد سيصبح مرحلة هامة جداً في عمل الحزب من وجهة نظر الأهداف المذكورة . لقد جرى منذ وقت غير بعيد اجتماع للجنة المركزية دام ثلاثة أيام حيث نظر في آفاق السنتين المقبلتين . ومما لا شك فيه أننا سنشارك مشاركة نشيطة ، في إعداد وإجراء الاستفتاء الكبير الذي سيجري قريباً في اورغواي[٣] . ومن المزمع عقد المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي في اورغواي في نهاية عام ١٩٨٨ . وفي عام ١٩٨٩ ستجري الانتخابات العامة .

أريد أن أقول في الختام أن الاحتفال بالذكرى السنوية السبعين لثورة اكتوبر وإعادة البناء ، التي بدأت في الاتحاد السوفيتي ، يعتبران بالنسبة لي ، الشيوعي

ذي الـ ٥٧ عاماً في الحزب الذي كرس ما يزيد على ٦٠ سنة للنضال الثوري ، كما بالنسبة للأحزاب الشقيقة كافة ، حدثين ملهمين ومفرحين جداً . ونستحسن تماماً التحولات الجارية ، وان لاحظنا عند بحثها في اجتماع لجنة حزبنا المركزية أنه ينبغي أن تكون عقولنا في رؤوسنا ، ونحن نؤيد كل شيء جديد . ذلك أن قضايا عديدة تخص الاتحاد السوفيتي بشكل استثنائي ولا تمسنا . إلا أن ثمة عدداً غير قليل من المسائل التي تخصنا . وتنجم عن ذلك ضرورة النظر فيها بروح النقد والنقد الذاتي وفي أثناء التطور . ولا يسعنا عموماً إلا أن نبتهج بقدرة النظام الاشتراكي على التطور الذاتي والنمو والتحولات التي برهنت ، مرة أخرى ، على القوة الحيوية لأفكار ماركس وانجلز ولينين . ويعتبر لنا مثالاً على ما نستطيع انجازه ، نحن الشيوعيين ، حين نقطع صلاتنا فعلاً بالجمود العقائدي ولا نخاف من الانتقاد الذاتي ونندمج تماماً بالجماهير الشعبية التي نتوخى قيادتها بحيث نبقى جزءاً لا ينفصل منها .

●

١) المقصود هو كتاب A. Barros - Lemez. Arismendi: Forjar el viento Montevideo, 1987.

٢) يقصد المؤلف الاتفاق الذي توصل إليه في غواتيمالا رؤساء الجمهوريات الخمس الواقعة في أمريكا الوسطى حول البحث عن طرق تؤدي إلى إقامة سلام دائم ووطيد في المنطقة - المحرر .

٣) يدور الحديث عن الاستفتاء حول إلغاء القانون الذي يرفع المسؤولية عن مرتكبي الجرائم في مرحلة الدكتاتورية العسكرية - المحرر .

« لماذا »

● حامد بدرخان

انظر الى صفحات مذكراتي
مملوءة بالاخطار
وتهرب القصائد
الى مخابىء الخمور
راكبة الى الرياح
والى الساحات التي
تنقلب الى المقابر
الى المشانق المنصوبة . . .
اسراب من العصافير
والدهشة
في عيون الصغار
الذئاب المفترسة
قادمين من حافة الأفق
أسيادهم يشيدون السجون
فوق الجبال
والسهول . . .
ومستقبليهم يوزعون
النبيذ من كرومنا
فدماؤنا تسقي الارض
الذي يرتجف
تحت سنابل الخيول الدخلاء
وفي استقبالهم
ذوو صدور مزينة بالنياشين
وبابتساماتهم الموروثة
يوزعون الويسكي
ويعلنون ولاءهم لهؤلاء الغزاة

- ٢ -

الزمن الزاحف
نحو الحوانيت والسجون
وغرف النوم . .
والجسور المغلقة
مررنا من أنقاض القرى
والمدن . . . .
بكينا لأولئك الذين
سقطوا في الشوارع
كانوا هم يشربون
الخمر الرخيص
أثناء القصف
على سطوح المباني
وأمام الله
وأنا أحرس نفسي
من الحزن
ومن صخب المحتفلين بالنصر

- ٣ -

ينقبون عن الآثار
ويسرقون . . .
يستولون على الأنهار
وينابيع المياه . . . .
وأحلام الاشجار . . . . .
الدبابات والطائرات
وقاذفات القنابل
سرقوا الثمار . . . . . .
والضياء من عيون الاطفال
والبسمات من شفتي النساء . . . .
والهواء الطلق

- ٤ -

غيمة كبيرة أثقلت
فوق المدن
والقرى . . . . . .
والسواقي . . . . . .
حطموا كل الجسور . . . .
ولذا تهرب القصائد
- من حفاري القبور -
نحو المخابز والى حضن الشفق
تهرب القصائد
لتحاصر الدخلاء
والقبض على القاتل
تهرب القصائد
من الصمت
من الصمت المريب
من أوراق السوداء

وراء النوافذ . . . .
ومن ترتيلة الجنائزي . . . .
من قلاع الضجر
من الملل . . . .
من الإهانة
من الفرق الأرجوانية
من سلالم !
الى حضن الارض . . . .
الى الصخور . . .
والأمواج
والشمس

من هنا
تهطل على التراب

خِصباً
غضبا
وميلاد
وتتحول الى الجذور
والبذار
الى القُبلات الحارة . . .
والى الرصاص .
كل هذا ما نريد نحن
كل هذا يلائم احلامنا . . . .
قرنفلة
زنبقة
و وردة

وياسمين

●

ثقافة وأدب

من المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي

بقلم الدكتور محمد جمعة

لقد أثارت أحداث الانتفاضة العارمة الباسلة ، وخاصة دور الاطفال والنساء ، أثارت مشاعر الاعتزاز والإكبار للشعب الفلسطيني المناضل وكان الحادث الفظيع الأخير ، حيث شنق المستوطنون الصهاينة طفلاً في الحادية عشرة من عمره ، على جذع شجرة قرب القدس ، التي تعتبرها جميع الاديان مدينة السلام .

أن الألوف في كل انحاء العالم يقارنون بين هذه الجرائم وبين ما ارتكبته النازية في البلدان التي احتلّتها في الحرب العالمية الثانية .

وقد أوحى هذا الحادث للدكتور محمد جمعة بالمقال المؤثر الذي ننشره فيما يلي :

الأحياء من الفرنسيين يذكرون اليوم تلك السنين السود التي كادت تقضي عليهم جميعا كزوبعة هوجاء أو زلزال مدَمِر

قبل ذلك شاهدوا صعود هتلر المخيف إلى الحكم في المانيا ، وكانت نفوسهم ترتعد من جرّاء ماحدث في إسبانيا ، بعد أن تم سحق الجمهوريين الاسبان من قبل الفاشيست .

لقد بدأت النازية من هناك من أسبانيا فقد كانت الطائرات الالمانية تحصد اللاجئين المدنيين الإسبان حصداً ، وقُصِفت المدينة الاسبانية الصغيرة (كورنيكا) ، وزالت من الوجود ولكن (بيكاسو) خلّدها في أذهان الناس في كل مكان وزمان .

كان الناس في فرنسا يسمَعون عمّا يجري في اسبانيا ولكنهم لا يريدون أن يفكروا فيه . لا يريدون ان يعكر مزاجَهم احد ، أو ينتزع منهم سعادَتَهم وهم يرشُفون القهوة صباحاً ، وهم مطمئِنون وادعون . لقد كانوا يوهمون أنفسَهم بأن إسبانيا بعيدة عن فرنسا ولا يريدون أن يتخيّلوا أنَّ أموراً تجري هناك سوف تطولُهم .

هكذا اجتاحَت إسبانيا جيوش قَدمَتْ من أفريقيا ، فقطعت أوصالها وذبحت أبناءَها . ولم يخطر في بالهم أن إسبانيا كانت المرحلة الأولى نحو احتلال فرنسا واجتياح أراضيها وإذلال شعبها .

كما لا يخطر في بال الكثيرين اليوم أن ما يجري في فلسطين ، أمر يخصهم ويتوهمون أن الصحارى بينهم وبينها ، ولا يريدون من أحد أن يمَسّ رغد عَيْشِهم وطيبَ مُقامِهم .

في ١١/مايس ١٩٣٨ ضم هتلر النمسا وفي ٣٠/ ايلول ١٩٣٨ كانت ميونخ ، وفي ١٥/ آذار ١٩٣٩ دخل النازيون براغ واجتاحوا تشيكوسلوفاكيا .

كان أعوان هتلر يقولون : إن الله مع هتلر وكذلك مصانع (كروب) للحديد والصُلب . وكانوا يقولون إن هتلر لا يريد إلا العدالة (ألف عام من حكم العالم من قبل العرق الآري ، من قبل السوبرمان الالماني) .

في شهر حزيران ١٩٣٩ استقبل رئيس وزراء فرنسا (دالاديه) السفير الألماني ، وفي ٢٧ حزيران ينذر رئيس وزراء فرنسا الرأي العام الفرنسي قائلا : (الخيانة ، احذروا الخيانة أيها الفرنسيون ، احذروا الشيوعية السوفياتية التي تسللتْ إلى فرنسا احذروا الشيوعيين . . .) .

وفي ١٢ تموز يُطمْئِن وزير الخارجية الفرنسية، السفير الالماني قائلاً له:

(سنعيد الشيوعيين الى رشدهم..) وكان هذا يعني ان السجون التي كانت مخصصة لمرتكبي الجرائم، ستخصص بعد اليوم للشيوعيين. وكان على الحكومة الفرنسية ان تختار عدوها، إما أن يكون الشيوعيون أعداءهم أو الفاشيست، وقد اختارت الشيوعية.

وبعد ان اجتاح هتلر بولونيا وقف مخاطباً العالم: (لا يمكن لاحد ان يحكم على معركتنا من خلال الشرعية أو عدم الشرعية..) وأمام هذا الخطر الداهم تجمّع الفرنسيون.. أمام خطر الموت تجمع الكاثوليك والبروتستانت والشيوعيون، كلهم توحدوا من أجل تخليص الانسان المصلوب من جديد.

ويقف في البرلمان الفرنسي، حتى النائب اليميني المتطرف (هنري كيربس) منددأً: (واعجباً كيف تريدون ان تقنعوننا أن عدونا هو الاتحاد السوفياتي الذي لا يحاربنا، وأنه ليس المانيا التي تهددنا بالدمار)...

واعتباراً من تموز ١٩٣٩ بدأت حملة اعتقالات ضد الشيوعيين الفرنسيين. هكذا كان الوضع في فرنسا قبل اجتياح هتلر لفرنسا. وفي شهر نيسان ١٩٤٠ نشرت الحكومة الفرنسية في الجريدة الرسمية القانون التالي: (يُحكم بالإعدام على كل شخص هيأ أو قدم أو خزّن وسائل دعاية شيوعية تؤيد الأممية الشيوعية الثالثة...).

وفي ١٣ مايس ١٩٤٠ تخترق القوات النازية فرنسا، وفي ٢٠ منه يصل رومل إلى بحر المانش.

ويعترف الجنرال (ويغان) بقوله: (إن الخطأ الجسيم الذي ارتكبناه كان دخولنا الحرب دون أن نملك العتاد اللازم ولا النظرية العسكرية). بينما كان يصرح قبل عام فقط: (إن فرنسا لم تكن في يوم من الايام اقوى مما هي عليه الآن).

وفي ١٤ تموز دخل الالمان باريس، وعلى جدران المدن والقرى الفرنسية، ظهرت الاعلانات الالمانية تخاطب الشعب الفرنسي: (أيها الفرنسيون، ضعوا ثقتكم بالقوات الالمانية بعد أن خذلكم حكامكم). يا لبؤس المهزومين (لقد ربح

النازيون الحرب على فرنسا، وأخذت الفرق الموسيقية الألمانية تعزف السمفونيات في حدائق باريس، بينما كان مئات الألوف من الفرنسيين في أتون المعتقلات يجترون آلامهم.

وتشكلت المقاومة، ودخل الشعراء والأدباء في المقاومة. إلى جانب العمال والمثقفين الثوريين تاركين وراء ظهورهم كل ما اعادوا عليه من حياة وادعة رغيدة.

وهذا أحد الشعراء الذين انضموا الى المقاومة يقول:

الله يعلم أنه من الخير لي أن أضطجع على فراش وثير
ومخدة من حرير.
أنعُم بالحب، وأغفل وأنا اداعب حبيبتي
أشعر بضربات قلبها، وأنفاسي تمازج أنفاسها.
يعلم الله أنه ليس هناك أسعد من الصمت الذي
أشعر به من حولي.
عندما أستيقظ صباحاً وهي نائمة قربي وأنا
أنظر إليها وأطيل النظر..
ولكن... ولكن أنا على ميعاد مع الموت في
الهزيع الاخير من الليل، في بلد تلتهمه النيران
أنا على موعد مع الموت حينما ينزح الربيع نحو الشمال
ثقوا أيها الرفاق إني لن أتراجع وسأكون في الموعد
الذي حددتموه..).

واندفع آخرون يقاومون المحتل دون أن يكون لهم رؤساء يقودونهم أو أي انتماء لهم، يخربون أسلاك التليفون ويضعون الألغام في الطرقات ويوزعون المنشورات. وراح العدو يضع خطة لتمويت الوعي، لسلب إرادة الشعب منوهاً بأنّ: (من يريد أن يعيش بسلام يجب أن يطلب السلام بأي ثمن) وبذلك تنهار كل القيم.

هكذا تكلم هتلر: (ألف عام من حكم الالمان للعالم، هذا هو قَدَرُ العالم)

تحت شعار (أنّ تعيشوا وأنتم راكعون طوال حياتكم أفضل لكم من أن تموتوا).

ما إن زالت المفاجأة الرهيبة، ما إن هدأ الزلزال، حتى بدأ الناس يرجعون الى أنفسهم، وأخذوا يستمعون إلى صوت المقاومة وجاء صوت (ديغول): (المقاومة! لسنا وحدنا في المعركة)، وجاء صوت الحزب الشيوعي الفرنسي في منشور وزع على الفرنسيين (إن فرنسا لا تريد، ولا تستطيع، ولا ينبغي عليها ان تفنى.. لقد دقّت ساعة التجمع تجمّع كل الفرنسيين من أجل الضربة النهائية، من أجل تحرير وطننا، يجب علينا جميعاً أن نبقي على حبنا للوطن متأججاً في نفوسنا، وأن نتحلى بالنظام، وأن ننمي في قلوبنا حب التضحية، لتبقى فرنسا حرة وقوية..

أيها الفرنسيون: إن المعركة الاخيرة لم تقع بعد، لا تتركوا للقنوط مكاناً في قلوبكم)..

وفي تشرين أول ١٩٣٩ بدأت جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي (الاومانتيه) بالصدور بشكل سري ورفعت شعار (من اجل الاستقلال، من اجل بعث فرنسا من جديد)، ومن أجل إبطال فعّالية هذه الصحيفة، أخذت السلطة النازية توزع اعداداً مزورة منها.

وفي تشرين أول يقابل الماريشال (بيتان) هتلر ويشد على يده مصافحاً. وفي ختام الاجتماع يوجه (بيتان) بياناً إلى الفرنسيين: (أيها الفرنسيون: بالامس قابلت مستشار الرايخ، ان هذه المقابلة قد بعثت الآمال في نفسي. لقد قررنا مبدأ التعاون بين فرنسا وألمانيا، ولم أفعل ذلك إلا من أجل وحدة فرنسا، من أجل بناء أوربا جديدة، وهذا التعاون يجب أن يكون مخلصاً!!).

وكانت نتيجة ذلك حشر آلاف الفرنسيين في المعتقلات، وبقاء مليون ونصف جندي فرنسي في الأسر.

وجاء صوت المقاومة، صوت لجنة الخلاص الوطني لتعلن: (المقاومة، المقاومة. هذه الصرخة النابعة من أعماق القلوب، والتي يجللها البؤس والحزن اليوم، انتم تشعرون أنكم معزولون، ولكن تكتلوا وتجمعوا، وإن كنتم لا تعرفون

بعضكم بعضاً فمدوا أيديكم، ولا بد أن تلتقي. احذروا الثرثارين، احذروا الخونة أبعدوا عن نفوسكم الغرور، وحب الظهور، حاولوا أن تؤمّنوا حاجاتكم بأنفسكم. اننا اليوم عاجزون عن مدكم بالاعتدة، ونحن إذا قبلنا أن نكون قادة لكم، فذلك لاننا قبلنا أن نُضَحِّي بأنفسنا قبلكم.

ودوى صوت (أراغون) في قصيدته:

أيتها الحرية، أيتها الحرية الحبيبة.

وفي ٢١/حزيران ١٩٤١ هاجمت الجيوش الهتلرية الاتحاد السوفياتي. هذا التاريخ يجب ان يبقى في ذاكرتنا. لان هتلر في هذا اليوم وقع وثيقة موته.

فلجأ الاتحاد السوفياتي الى سياسة الأرض المحروقة، وهبت رياح من الشرق رياح الامل والخلاص، الى كل أنحاء فرنسا وأوربا.

وها هو العدو، وفي خلال بضعة أشهر، تقف دباباته قرب (سمولنسك) وتحاصر (لينينغراد) وتحتل (كييف). وها هم يقفون أمام موسكو، ولم يخطر ببال هتلر أن نهايته بدأت عند أبواب موسكو.

وتزداد حملة القمع ضد الشيوعيين الفرنسيين ففي عام ١٩٤٤ يلقي الجستابو القبض على المناضلة الشيوعية (مادلين ريفو) التي قضت على أحد أفراد النازيين بطلقة مسدس واقتيدت الى الاستجواب وها هي تسجل ما حدث:

(انتهى الامر، لقد اكتشف أمري، لقد ألقي القبض علي، أخذوني إلى أحد الابنية، صعدنا درجاً لا يكاد ينتهي، وكان يدفعني أحد إفراد الجستابو بعقب بندقيته في ظهري...

لا أدري في أي طابق كانت الغرفة التي أدخلوني فيها للاستجواب. كان بداخلها أفراد من الغستابو يلبسون زياً رمادياً فولاذياً، واحد منهم ربطني إلى أحد الكراسي، وتقدم مني آخر وعلى شفتيه ابتسامة صفراء وقال لي: (أنصحك أن تتكلمي من تلقاء نفسك وإلا سنضطر إلى اتخاذ وسائل أخرى، أنا كنت أستاذ ا في ألمانيا وأنت طالبة. هذه نصيحة صديق أقدمها لك).

وعندماخرجت من الغرفة ذاك اليوم، كان الدم يغطي وجهي، كانت شفتي

العليا قد تمزّقت، وكان وجهي لا يُعرف من الكدمات، وكانت ركبتي ممزقة، وساقي كذلك من ضربات سوط جلدي مصنوع من عصب ثور. . وفي يوم آخر جاؤوا بي لأحضر قصداً استجواباً لا يخصني، وقد دام وقتاً طويلاً: كانت امرأة قد أوثقت وتكاد تفقد صوابها، وكان الالمان ينتزعون أظافر زوجها أمامها، وأمام هذا المنظر أغمي علي. . .

وفي يوم آخر، جاؤوا بصبي يلبس بنطلوناً قصيراً، وتوجه أحدهم إليّ قائلاً: (هذا صبي مثلك، قام بأعمال ارهابية ولكن كما ترين أصغر منك سناً. ونحن لن نؤذيه إذا تكلمت، وإذا ابيت الكلام فاننا سنضطر الى ضربه، وسيكون ذلك بسببك).

فقلت لهم: (إني لا أعرف شيئاً عن المقاومة، أؤكد لكم، فلا تضربوه اتركوه وشأنه. أنا التي يجب أن تضربوها). ولكن الالماني هز رأسه، وأخذ يضرب الصبي بكل قواه بالسوط، ولم يكن هناك أفظع من ذلك، كان الصبي يصرخ من ألمه. وأنا أصبت بحالة إغماء.

كانت الدماء تسيل من كل انحاء جسمه، وكان السوط قد رسم خطوطاً من الدم على ساقيه، وبعد برهة سقط أرضاً، فأنهضوه ثانية بضربات أقدامهم، وكان الصبي يبكي بكاء يمزق القلوب، واختلطت الدموع بالدم.

وعند هذا الحد قررت أن أعترف وهنا يحدث ما لم أكن أتخيله أن يحدث، فلقد أدرك الصبي أني على وشك الانهيار، فنظر إليّ بشكل خفي، وهو يهز رأسه بحركة تشنجية يطلب مني أن لا أعترف ولم أشاهد هذا الصبي بعد ذلك أبداً. .).

وبعد فترة رأيت نفسي في غرفة أخرى عارية، ويبدو أني فقدت الوعي على أثر التعذيب الشديد الذي مارسه الالمان عليّ، في وسط (بانيو) ماء بارد، فقررت الانتحار، وأخذت أبلع الماء بأقصى ما أستطيع، ولكن يد أحدهم امتدت إليّ وأمسكني من شعري وجرني من البانيو في اللحظة المناسبة).

وفيما بعد حكم على (مادلين) بالموت، واقتيدت الى أحد المعسكرات ثم أرسلت في أحد القطارات لتنفيذ هذا الحكم مع الكثيرين كانوا معها، وأثناء

الانطلاق، استطاعت (مادلين) مع رفيقين آخرين لها أن يهربوا ولكن الألمان القوا القبض عليهم من جديد ووضعوهم في زنزانات تمهيداً لارسالهم من جديد لتنفيذ حكم الاعدام.

وفي أثناء الهدنة التي عقدت لمدة أربع وعشرين ساعة بعد تحرير باريس، حاول قنصل السويد أن ينقذ حياة الثلاثة بمساعدة الصليب الاحمر. وقد وافق الغستابو على تسليم الاثنين الآخرين وقال: (ولكن هذه لا! وهي التي قتلت أحد الضباط الالمان) ولكن الفتاة أسرعت ووقفت وراء القنصل الذي حماها.

إن هتلر الذي أراد أن تحكم المانيا العالم ألف عام ذهب الى مزبلة التاريخ، واسترد الشعب الفرنسي حريته.

وإن الشعب الفلسطيني، الذي يقاتل بالحجارة العدو الاسرائيلي سينتصر ايضـا مهما طال الزمن وأطفال فلسطين المعذبون المضطهدون اليوم ستكسو الابتسامة وجوههم. لأن هذا هو منطق التاريخ.

●

قصة

مصير بطل

نهاد سيريس

ما أن توقف الباص حتى التقطت حقيبتي الصغيرة بسرعة البرق وقفزتُ إلى داخله كأنني أخاف أن ينطلق من جديد دون أن أرحل معه . أو كأنني ضقت ذرعاً بالمدينة وأهلها إلى حد أنني لم أعد أرغب بالمكوث ثواني أخرى .

جلست في المقعد الثالث من الطرف الايسر للباص الى جوار النافذة . أخرجت علبة سجائري وعلبة الثقاب ووضعتهما إلى جانبي . خلعت سترتي وعلقتها الى خطاف مثبت في جدار الباص لهذا السبب ثم أخذت وضع من سيطول سفره ، فتفرست في وجوه المسافرين الآخرين وجهاً وجهاً ثم .. انطلق الباص يهدر بصوت مشؤوم ينفث روائح النفط إلى الداخل .

سار الباص في الشوارع ثم توقف على إشارة مرور منسية منذ الليلة الماضية وما لبث أن عاود سيره في الطرقات الفارغة مزعجاً عصافير الصباح التي كانت قد شرعت في زقزقاتها الأولى .

اطفأ السائق أنوار الداخل فبانت مباني المدينة وأرصفتها بشكل أوضح عبر الزجاج . كان الناس نياماً . فالفجر يطلق انفاسه الأولى والمسافرون عادوا إلى النوم بعد أن انتزعهم موعد انطلاق الباص من فراشهم متجهمي السحنات ، والسائق يحترم راحة المسافرين فيقرر عدم اشعال المذياع او اطلاق المسجلة ، مفضلاً عن ذلك اشعال سيجارته الأولى لهذا اليوم أما معاونه فكان يسعل ثم يبصق ثم يسعل من جديد ليبصق من جديد ، كل ذلك والباص يهدر والمسافر الذي تكوّم في مقعده ، خلفي مباشرة ، يُصدر شخيراً عالياً ومديداً دون توقف .

أما أنا فلم أنم ، ولم تذبل عيناي ولم أشعل السيجارة الأولى بعد . رغم أنني لم أنم هذه الليلة بل بِتُّ سهران ، انتظر الساعة الخامسة والربع لأرحل أخيراً عن هذه المدينة ، تاركاً مبانيها ونوافذها ومداخل حاراتها وطرقاتها المسفلتة إلى الأبد .

لن أعود اليها ، أقسم أنني لن أعود اليها ، قلت ذلك في نفسي حين خرج الباص من المدينة فاستقبلته اطراف الحقول مسرعة إليه فارتحت أخيراً لأنني تركت المدينة إلى الأبد .

في تلك الليلة المقمرة ، وعندما كنا نسير على الطرقات الترابية على مهل ونتحادث ، سألني عن يدي ماذا قال الطبيب ؟ قلت له : شلل تام في اصابع اليد اليسري . نعم ، لقد انكمشت أصابعي وبقيت منكمشة إلى الأبد . نهاية حزينة ليد مقاتل . أنا أعترف بذلك . طلق ناري أخترق

ظاهر الكف قريباً من ا... لي عمليتين جراحيتين ، ثم أرسلوني إلى برلين لانقاذ يدي ، عدت من هناك بعد شهرين ... . أصبحت أحركها . أما أصابعي فمستحيل . اصبح وضعها كأنني ممسك ببرتقالة ثم نزعت ...الة وبقيت اليد ممسكة فراغاً بحجمها .

قال لي وهو يلتقط عسلوجاً من الأرض ويهم بتقطيعه الى اجزاء : انظر أيها البطل . الا يكفيك خمس سنوات من القتال ؟. لماذا لا ترحل الى المدينة فنحن بحاجة اليك هناك .

غاص قلبي . أطرقت صامتاً ونحن نسير على الدرب الترابي . ليلة تموزية جميلة ، والقمر بدر ينير الوديان والهضاب والسهول الى ما وراء الخط الساخن . صفير الجنادب . اصوات تحرك فئران الحقول بين الحشائش وشجيرات المسج المتيبسة . حفيف الرياح الهادئة في الاذن ، اصوات طلق ناري متفرق من بعيد . كل ذلك ا...ط في شعوري فأحسست بأنني سأنفصل مرة أخرى عن هذا العالم . سأقتلع منه .

قلت له : القول الأخير لكم لكنني أرجوكم ألا تفكروا في هذا الأمر . إنني أقاتل منذ خمس سنوات ، اصابة بسيطة كهذه لا ...دني عن حياتي التي اعتدتها . اجعلوني مدرباً على الأقل . عدنا إلى المهاجع الأرسية . ... قال : غداً سنبت في الأمر .

استيقظ المسافر الذي كان ... وراح يمد جسده ويطقطق عظامه . أطلق شتيمة نابيةً بحق السفر ، ثم راح يعبث في كيسه . اخرج قطعة خبز وجبن وخيارة وشرع يأكل . سمعت أسنانه تطحن الخيارة بصوت يطغى على هدير الباص ولما انتهى مسح شاربيه بباطن يده ثم تجشأ مرتين وحمد الله ثم عاد وتكوم وسرعان ...اح يشخر .

كان قرص الشمس قد انبثق فجأة من خلف منخفض ارضي وراح يشع باتجاهي . أحسست بعداء نحوه كما المدينة . خبأت وجهي وأغمضت عيني . كأن الشمس كشفت هروبي ، فضحتني . كنت أخجل من نفسي .

جاء في التقرير ما يلي :

«أننا نقدر عالياً نضال الرفيق ن.ع. المكنى بـ«البطل» وكل ما قام به خلال السنوات الخمس الماضية سواء في تنظيم المجموعة التي يقودها أم في قيادته لها أثناء المعارك العنيفة التي خاضتها ضد العدو المحتل والبالغ عددها أكثر من سبعين معركة . لقد منح ن.عَ. اكثر من وسام وكان اسمى الأوسمة ، وسام البطل الذي نعتز بان حامله هو رفيقنا العزيز . اننا على ثقة ان البطل سينجح ايضاً في مهامه الجديدة التي أوكلناه إياها ألا وهي المشاركة في العمل السياسي والتنظيمي في المؤخرة ..»

ارتعشت . سمعت معاون السائق يسعل ثم يبصق . مسحت عيني بيدي اليمنى وقد أحسست بحرارة تنبثق من وجهي . كان السائق يشعل سيجارته الثانية أما أنا فلم أشعل الأولى بعد ، تكفيني رائحة النفط التي تنفذ الى الداخل باستمرار . لم أكن أحمل حقيبة بل محفظة صغيرة وضعت فيها فرشاة أسناني وبعض الأوراق ومذكرة العام ذاته . ماذا كان علي أن أحمل من القاعدة الى المدينة ؟.

نزلت من الشاحنة العسكرية التابعة للسوريين في وسط مدينة ب ثم اتجهت الى مقهى «البير» في هذا المقهى اعتدت شرب فنجاني الأول من قهوة «الاكسبريس» . انا أحب احتساء هذه القهوة مرة في اليوم ، إن كنت في مهمة ما في المدينة . شربت قهوتي ودخنت بعض السجائر وأنا استمع إلى احاديث الناس عن جريمة وقعت ليلة أمس في الضواحي . وضعت خمس ليرات ثم خرجت أتمشى باتجاه كراج دمشق . كانت الشوارع ملأى بالمسلحين والسيارات العسكرية ، وكان الباعة يجلسون أمام حوانيتهم وهم يحتضنون الكلاشنكات .

في أحد الشوارع استوقفوني وطلبوا هويتي . تأكدت أنهم من تنظيم صديق فأخبرتهم من أنا .عرفوني فوراً . أحدهم قبّلني ، سألوني عما اذا كنت أحتاج إلى مساعدة . عرضوا علي ايصالي الى أي جهة اريد . رفضت . سرت من جديد أتفرج على الفترينات . وجدت الحل . ابتعت بنطالاً وقميصاً وحذاء ، فخرجت من الحانوت مدنياً بحتاً .

لم أمر على مكتبنا في مدينة ب بل اتجهت فوراً إلى الكراج واستقليت أول سيارة الى دمشق .

ارتفع قرص الشمس الى الأعلى فغمرت أشعتُها الباص وراحت تسمع حركة المسافرين وهم يستيقظون ويتثاءبون ويتمطؤون . استيقظ ايضاً الرجل الذي تكوّم في مقعده خلفي . معظم المسافرين أشعلوا سجائرهم وكأن ذلك إيذاناً ببدء الحياة . مد السائق يده الى المسجلة يدس في شقها شريط كاسيت لأم كلثوم . «اذكريني» . كنت قد نسيت منذ سنوات طويلة أن لأم كلثوم أغنية تحمل هذا الأسم . جاء الصوت مرتجفاً وباكياً . اختلط حزن الأغنية بفرح الصباح النضر :

اذكريني كلما الفجر بدا ...

رحت أستمع الى الاغنية وكأنها تخصني وحدي . كيف لا وقد كان المسافرون جميعهم يثرثرون دون توقف . أحدهم قال أنه خائف من بيروت . فسأله الآخر : ولماذا ترحل الى هناك اذن ؟ فأجاب أنا ذاهب للبحث عن ولدي ، انه يدرس في جامعة بيروت . انقطعت عنا أخباره منذ مدة . تنهدت امرأة في الخمسين وقالت : يا لطيف !.

اذكريني كلما الطيرُ شدا ...

أحسست بغصة في صدري . كيف ستذكرني يا ترى ؟. متى ؟ وهل ستذكرني فعلاً ؟ ولكني الآن اذكرها واذكر ملامحها الرقيقة . هنا في الباص بين هديره وصوت أم كلثوم وثرثرات الركاب وسعال المعاون . ولكن اين عهدي على نفسي ان انساها ؟ لماذا عادت الآن ، أبسبب الأغنية ؟ محوتها من ذهني ورحت أشغل نفسي بشيء آخر ، اشعلت سيجارة ، تسليتِ باطفاء عود الثقاب في آخر لحظة ، راقبت السائق وهو يتمايل مع انغام الأغنية ، المعاون وهو يغفو ثم يستيقظ ليسعل راقبت الحقول الخضراء والجواميس التي تقضم العشب بلذة ، أحصيت ما بقي من نقودي . فعلت كل ذلك ولكن الغصَّة بقيت ساكنة في صدري . كان قد مضى على وجودي في دمشق شهراً كاملاً . استأجرت غرفة ، اشتريت شراشف جديدة وغطاء للطاولة ، اشتريت أيضاً جهاز تلفزيون أبيض

وأسود مستعملاً كنت أتناول طعام الغداء في المطعم «العصحي» والعشاء في البيت . أما القهوة فكنت اشربها في المكتب صباحاً وفي مقهى «النجمة» في المساء كل شيء ممل . المكتب والمطعم والمقهى والبيت . في بعض الأحيان كنت أشعر بالاختناق ، خصوصاً عندما تبدأ الشمس بالغروب . حينها أشعر كأنني برئة واحدة وانني الهث . افتح ياقة القميص ويصيبني الصداع . اعتذر من اصدقاء المقهى وأغادر . أمشي بوجه أحمر ضرّجه الدم الصاعد بنزق الى الرأس . أخرج نصف ليرة وأبحث عن هاتف للعموم ، أضيّع ساعة وعندما أجد الهاتف أفقد الرغبة في الاتصال بأحد . أعود إلى غرفتي أصعد مئة وعشر درجات . استلقي على سريري وأدخن السجائر المهربة . وعندما يطرق بابي أحد تجتاحني سعادة ما ثم ما تلبث أن تغادرني لتحتلني الكآبة والنزق والصمت .

كلهم يريدون أن يسمعوا شيئاً عن بطولاتي : قل لنا ماذا حصل حينئذ أيها البطل !. كان علي أن أسرد ولكنني لم أكن أسرد . يضجرون من بطولاتي ويرحلون . أي بطل أنا في هذه المدينة ؟ بطل العمل السياسي والتنظيمي !!. هذا الشيء مدعاة للسخرية خصوصاً انك تفقد القدرة على الكلام حين يطلبون ذلك منك . أجلس في أحد المهرجانات الخطابية ويدي اليسرى تقبض على برتقالة وهمية . اشعر ببعض الأشخاص ينظرون إلي بحسد واعجاب . ما قمت به عظيم ، ما أقوم به تافه . بعد الخطب والكلمات يضربون حولي طوقاً اثناء الخروج . كل الناس يريدون تحيتي وأنا أريد الهرب مصاباً بداء الكآبة ، ادخن بشراهة ، تنتظرني ساعات أرقٍ طويلةٌ في البيت وفي بعض الأحيان أحطم كأساً على الجدار .

كل ذلك كان يحصل عندما التقيت بنبيل .

احتضنني وجعل يقبلني . قبلته أنا أيضاً ، وأنا أشد على يده مصافحاً . أين أنت يا رجل ؟ قرأت عنك الكثير . أنت الآن بطل حقيقي . يقولون إنك قهرت جيش لحد ، ماذا .. ألم تقهرك امرأة ما ؟. ضحكنا ثم انطلقنا الى مكان ما لنأخذ كأساً أو اثنين من الخمر .

قعدنا وشربنا الكثير . تحدث نبيل الكثير أيضاً . إنه مرح في طبعه ، والدنيا لا تستطيع تبديل شخص مثل نبيل . إنه كاتب وثوري وتاجر في آن معاً . يقول النكات كما يتنفس . يضحك لأتفه تعليق ، يقول نظريات مهمة ويناقش النساء حتى الصباح ، وبعد أن يغادرهن يشعر بالأسف لأنه ناقشهن فقط . تذاكرنا معاً أيام زمان وتداولنا مواضيع هذا الزمان . لا ينسى شيئاً ، يتذكر كل شيء والأهم من ذلك أنه لا ينسى أن يرفه عن أصدقائه .

المهم .شرب وضحك وأطلق وأطلق النكات وحدثني عن نظرياته وعن تجارته ، خطر في باله أن يسألني عما أفعل الآن .

بماذا أجيبه ؟. احمر وجهي وزفرت وأصابني الغم فجأة . وبما أن نبيل هو نبيل فقد قلت له كل شيء . أخبرته عن إصابة يدي والشلل والعمليات الجراحية والرحلة الى برلين . ثم أخبرته عن قرار التنظيم في إبعادي عن العمل العسكري حمايةً لي ، ولأنني اصبحت عاجزاً . حدثته عن حياتي

في مكتب المدينة وعن الكآبة التي تصيبني كلّ مساء عند الغروب . أخبرته بأنني أبتعد عن الناس وأنهم يبتعدون عني وأنني أسوأ رجل سياسة في هذه المدينة . لم أبق شيئاً لم أقله ولم أُخف عنه شيئاً . قلت له حتى إنني أحطم الكؤوس على الجدران وأمارس العادة السرية .

فوجيء نبيل بكل هذا . كان يستمع وهو صامت ، وصمتّ بدوري وقد عاودني القلق . اطفأ السائق المسجلة عندما كانت أم كلثوم تعيد مقطع اذكريني كلما الليل سجا ... ثم خرج بالباص عن الاسفلت وأوقفه . صمت المسافرون قبل أن تنتهي الحكايا وراحوا يستفسرون عن سبب التوقف . خرج السائق من خلف المقود بصعوبة ثم ترجل مع المعاون بينما نهض المسافرون ليراقبوهما عبر زجاج النوافذ . أعلنوا جميعاً وبشكل متتابع أن دولاب الباص قد «برشم» . هرع بعض المسافرين لتقديم المساعدة الى السائق والمعاون بينما سار آخرون بعيداً كي يتبولوا . سمعت السائق يشتم أم الدولاب . نهض المسافر الذي كان متكوِّماً خلفي . استفسر عن الموضوع من امرأة صبية متحجبة فلم تجبه شيئاً . سألني فرفعت له كتفي وأنا أقول له : الدولاب . هدأ اذ كان يحسب أن حاجزاً قد أوقفنا . أخرج خيارة وراح يقضمها بصوت عال وشهي . أصدر أحد المتبولين صوتاً بشعاً فاحمرّ وجه المرأة المتحجبة . تكومت في مقعدي وأغمضت عينيّ طلباً للنوم .

في اليوم التالي هتف الي في المكتب . قال إنني لم أعجبه في الأمس . قلت له أنني لم أعد أعجب أحداً . فقال انه سيمر علي مساء في البيت لنتحدث أكثر في الموضوع . أغلقت الخط وأنا غير متحمس للموضوع .

وفعلاً جاء . كنت نائماً فأيقظني . أشرعنا النافذة طلباً للهواء النقي . فقد كان جو الغرفة كريهاً . سألني منذ متى وأنا نائم ؟ فاستنتج أنني نمت خمس ساعات . اغتسلت وعملت كوبين من القهوة شربناهما صامتين . أراد أن يخلق جواً من المرح الا أنني قمعته بتجهمي . بعد قليل كسر الصمت وقال :

ــ انهض واحلق ذقنك وارتد ثيابك .

ــ ماذا هناك ؟.

ــ سوف أعرفك بفتاة .

قلت له لا أريد ، عرفت الكثيرات خلال مكوثي في المدينة ، إنهن تافهات ، ثم أنني أخاف أن أخذلك . أصرّ نبيل ، قال انه سيعرّفني بنوع جديد ومتميز من النساء . هذا النوع الذي سيعيد علاقتي بالحياة على أسس جديدة . هكذا قال حرفياً ولذلك نهضت وفعلت ما طلب وقد زال عني نصف الكآبة . مشينا صامتين باتجاه شارع العابد حيث اشترينا كيلوغراماً كاملاً من المشاوي وليتر ويسكي مقلّد ثم استقلينا سيارة باتجاه ركن الدين . وجدت الأمر مسلياً بالنسبة لي فابتسمت لاحدى نكات نبيل . منذ زمن بعيد لم أذهب مع أحد الى بيت فتاة . ربما خطط الرجل لأمسية جميلة تجعلني أنسى كآبتي والغصة في الصدر والشعور بالوحدة لليلة واحدة على

الأقل . ترجلنا ثم صرفنا السيارة أمام بيت من طابقين له حديقة منخفضة . كان الشارع هادئاً ومعتماً . فتح باباً حديدياً ثم قادني بواسطة الدرج إلى الأسفل . طرق نبيل باباً مصنوعاً من الحديد والزجاج وأنا أتطلع إلى أحواض الزرع التي تحوي أي شيء ما عدا المزروعات .

فتحت الباب امرأة في الخامسة والثلاثين . هللت لمجيئنا . ادخلتنا وهي ترحب بنا وكأن أسعد شيء يمكن أن تتوقعه قد حدث . امرأة لطيفة تجدها في الأماكن الراقية . مثقفة بدلالة لكنتها ومئات الكتب المصفوفة على الجدران الأربعة .

ـــ السيدة هدى ـ السيد ن.ع.

شدت على يدي بطريقة لطيفة جداً . انها تعرفني وتعلم بمجيئي . اعتذرت بسبب بساطة بيتها والأثاث . جلستُ أنظر حولي وأنا أخفي يدي المشلولة . لاحظت أنها وبذكاء تراقب يدي .

فتح باب المطبخ ودخلت امرأة ثانية . امرأة في الثلاثين ، ناعمة ، رأسها يصل الى كتفي . ذات شعر مُسدَل على كتفيها . امرأة عادية نحيلة سمراء تحسب أنها بلا عظام لليونة التي تتحرك بها امرأة بجمال غريب لأنه عادي ، لطيفة ومثقفة أيضاً . حاولت أن لا تزيح عينيها عني . قدّمها باسم ليلى وقدمني باسمي . صافحتني بيدها اللا عظمية . اثناء ذلك أحسست أن لها أعمق عينين صادفتهما في حياتي .

أعلنت المرأتان أن هذه الليلة ستكون أعظم ليلة في حياتهما . تسلقت ليلى المكتبة والتقطت من رفها العلوي زجاجتي نبيذ فرنسي معتق . نظرت إلي اثناء نزولها . خرجتا وبدأتا بتحضير السُفرة . كانت ليلى ترمقني في الرواح والمجيء . أحسست بالحرج في البداية ثم اعتدت على نظراتها . الليلة هي ليلة البطل فشربنا النخب الأول .

ليلى تملأ لي كأسي ، تملأ لي صحني ، تشعل لي سيجارتي ، ترمق وجهي ، توجه الحديث نحوي تحكي لي النكات ، إن لم أضحك تحسب أنني لم أفهم النكتة ، تعيدها من أجلي ، أعلنت انها ستضع في المسجلة أحب شريط اليها .. أيضاً من أجلي . سألتني إن كنت أتذكر نكتة . سردت لهم نكتة عن رجل حمصيّ ، ضحكت ليلى حتى غشيت من الضحك . كانت النكتة سخيفة . بدأت تسابق الريح في إطلاق النكات حول «الحماصنة» . أخيراً طلبت مني أن نرقص على أنغام«شيرلي باسّيْ»لم أكن محرجاً لأنني كنت قد شربت بما فيه الكفاية . سألتني وهي تحافظ على مسافة بين جسدينا ان كنت أعرف الانجليزية . قلت لها نعم ومع ذلك ظلت تشرح لي معاني أغنية شيرلي .

أحبك ، أكرهك ، أحبك ، أكرهك ، أغنية جميلة والمرأة التي بين يدي جعلتها أجمل . كانت تتمايل مع الأغنية وشعرها يتمايل معها والغرفة تتمايل أمام عيني .

انتهت الأغنية فعدنا ونحن نضحك . ضحك نبيل بسعادة لقهقهاتي . لقد نجح ، وكعادته يطرب لنجاحاته . صرخ بأعلى صوته طالباً زجاجة الويسكي . حان دورها . بدّلت هدى الكؤوس

واحضرت الثلج وبدأنا بشرب السائل المزيّف . ثم طلبت ليلى مني أن أحكي لهم عن بطولاتي . لم أشعر بشيء إلا وأنا أحكي لهم عن التسلل والكمائن والضرب والتراجعات وتصفيات الخونة وانقاذ الجرحى وتفجير مباني القيادات وكشف الجواسيس . حكيت لهم اشياء كثيرة . كنت أحكي لليلى ، وليلى كلها آذان صاغية . كانت تعابير وجهها تأخذ شكل ما كنت أسرده . وعندما حكيت لها كيف اصبت في المعركة الأخيرة وكيف انسحبت من المعركة زحفاً ، بكت .

في تلك اللحظة احسست أن علي أن أنهض وأن أعانقها ولكنها هي التي فعلت .

وقفت بكل هدوء ثم اقتربت مني وعانقتني .

اصلحت جلستي على مقعدي . كان جاري يتابع أكل الخيار . بدأ الركاب في العودة الى الباص وهم يضحكون . قال زوج المرأة المتحجبة أنهم أنهوا تبديل الدولاب وسينطلق الباص فوراً . صرخ أحدهم أن الباص سيسير بدون بَدَلٍ . ردّ آخر : خذ حسبك الله وامش . ردد الجميع : لا اله إلا الله . صعد السائق والمعاون إلى الباص وأخذا مكانيهما . وضع السائق شريطاً جديداً . كانت أغنية الآهات لأم كلثوم أيضاً . انطلق الباص وانطلقت الأغنية : آه من لقياك في أول يوم .. تذكرت نهاية أول يوم . كنت في غرفتي وحيداً بعد أن ودّعت هدى وليلى ثم ودعت نبيل الذي سيسافر صباحاً إلى أبو ظبي . كنت

جالساً في غرفتي أدخن السجائر وأستعيد وقائع الليلة . ليلى هذه تركت انطباعاً هائلاً في نفسي . تذكرت نكاتها وحركاتها فابتسمت ، تنهدت ثم زفرت ثم سألت نفسي ان كنت قد وقعت في الحب .

كنا قد تواعدنا للذهاب إلى السينما . انتظرت بفارغ الصبر انتهاء عمل المكتب . وفي الساعة السادسة كنت انتظر أمام سينما الكندي وفي جيبي ثلاث بطاقات ، وما أن وصلتا حتى دلفنا إلى الداخل وجلسنا نتحدث ونضحك ، وعندما أطفئت الأنوار لم يسترع انتباهي شيء سوى التي الى جانبي . حتى اننا وقّعنا في العتمة بطريقة خرقاء على بطاقات الدخول وتبادلناها .

ما أن انتهى الفيلم حتى تنفسنا الصعداء وانطلقنا باتجاه ركن الدين . وهكذا كنا نفعل كل يوم كنا نمضي ساعتين أو ثلاث في الخارج ثم نذهب الى البيت ، وهناك كانتا تحضران السفرة ثم نقعد لنأكل ونشرب ، لنستمع إلى الموسيقى ونرقص على انغام شيرلي باسّي . وكنا في بعض الأحيان نغني أغنية معاً بصوت هادىء بعد أن أكون قد تعلمت بعض كلماتها . وما أن ينتصف الليل حتى تذهب هدى الى النوم ، فأمكث ساعة أخرى مع ليلى نتحدث خلالها عن لبنان ونبيل ، عن الأفلام التي كنا قد شاهدناها وعن أغاني باري وايت واوليفيا نوتين التي كنا نستمع اليها في تلك الساعة وعندما تدق الساعة الواحدة ، كنت أنهض فألمس خدها بخدي ثم أقبل يدها كجنتلمان حقيقي وأتمنى لها ليلة سعيدة .

كنت أعود الى البيت مشياً على الأقدام ، وفي بعض الأحيان كنت أركض فرحاً . لا يهمني شيء ولا حتى أن يتطلع حارس ليلي إلي بدهشة . وما أن ادلف الى غرفتي حتى استلقي على سريري

وأنا أحلم انها جالسة على مقعدي الى جانب النافذة ، فصوتها يرن في أذني ، وصورتها ثابتة في عيني ورائحة عطرها ساكنة في رأسي .

أما في الصباح فانني كنت أستيقظ نشطاً ، اركض الى الباص ، اصعد الدرجات الى المكتب قفزاً ، أحيي الزملاء فرداً فرداً ، اشرب القهوة بلذة عارمة وأنا أدخن السيجارة الأولى . حتى انني كتبت خطاباً حماسياً والقيته مرة في مناسبة وطنية فنهض الحضور وهم يصفقون ويهتفون .

يا الهي .. يا الهي .. ماذا جرى لي ؟.

كانت أم كلثوم تتابع أغنية الآهات بصوت مجروح :

أشرب بايدي كاس يرويني .. اشرب بايدك كاس يكويني

رفعت جذعي ومسحت وجهي بيدي . كانت الغصة اياها تضغط على صدري ، أخذت نفساً عميقاً دون فائدة . كانت يدي القابضةعلى اللا شيء مركونة على فخذي ترعبني .

كان الوجوم مسيطراً على الركاب ، رغم صوت أم كلثوم . فقد تلبدت السماء بالغيوم ، واصبحت الأراضي اللبنانية مرئية ، وكانت الشاحنات العسكرية والحواجز تغطي الأرض والأفق .

أبقيت عينيّ مفتوحتين واسندت رأسي الى زجاج النافذة .

كنت قد قررت أن أقول لها شعوري فيها ، أن أقول ما أشعر نحوها . قررت أن أبثها عواطفي ، أن أقول لها ذلك الشيء الذي أشعر به يضغط على كياني كله والذي انقذني من كآبتي ونزقي وموتي البطيء .

كنت قد قررت أن أقول لها في تلك الليلة إنني أحبها .

كنا قد أكلنا وشربنا ، رقصنا وغنينا ، وكانت هدى قد ذهبت لتستلقي . كانت ليلى جالسة الى جواري ، قريبة مني ، كنا نتحدث في أمر نسيته تماماً ، لأن ما حدث بعد ذلك هو الذي لن أنساه في حياتي كلها .

أمسكت يدها في يدي فابقتها في حضني . قرّبت وجهي من وجهها فلم تبتعد ، عندها ، لثمت ثغرها . وما أن ابتعدتُ عنها حتى همستُ بصوتٍ صادر من عمق أعماقي وبكلمات لم أقل في حياتي كلها أوضح منها : ليلى ، أنا أحبك .

رفعت عينيّ اليها لأرى ردها . كنت أنتظر أن تفتح ذلك الثغر الذي قبلته قبل هنيهة وأن تقول ما أريد أن تقول فعلاً . ولكنها لم تقل شيئاً . تلألأت عيناها السوداوان قليلاً ثم نبعت دمعتان ارتجفتا قليلاً ثم تدحرجتا على الخدين ، ثم أخفت وجهها بيديها وراحت تبكي .

يا الهي .. ماذا فعلت ، ماذا حصل ، احتضنتها ، استسلمت لي ولكنها لم تتوقف عن البكاء . كانت تبكي بصوت مكتوم وينتفض جسدها بين يدي . كانت تبكي وتنتفض وتشرق أنفها دون أن تستجيب لتوسلاتي .

ماذا حصل ؟ سألتها عشر مرات ، مسحت لها دموعها بمنديل . قبلت يديها ثم قبلت عينيها

الباكيتين تذوقت السائل الدافىء المالح . ماذا حصل ؟.. كان علي أن أموت لا أن أجعل ليلى تبكي .
هدأت قليلاً . ابتعدت عن كتفي . حاولت الابتسام ولكن دموعها منعتها . كانت مُحرجة وحزينة ، تشعر بذنب ما لا أعرف كنهه . قالت لي بكلمات متقطعة دون أن تنظر في عيني :
ــ انظر ارجوك . انت بطل ، ولزاماً علي أن أعتني بك ، أن أحوطك بالعناية . انت بطل .. والابطال لا تقابلهم كل يوم ، ولا تستطيع التحدث معهم بسهولة ولمسهم ، انت بطل عزيز ، ولكنك فهمتني خطأ . تأكدت من صحة سماعي ما قالته . لقد فهمتها خطأ . كيف ذلك ؟ قلت لها مرة أخرى أنني أحبها . استدارت الى الطرف الآخر ومسحت عينيها من جديد سمعتها تقول وهي تنهض :
ــ أنت صديق عزيز ولكنني أحب شخصاً آخر . ارجوك افهمني أنا المخطئة ، الذنب ذنبي .
خرجت إلى المطبخ وتركتني انهار على الكنبة . كان عقلي ساكناً متلبداً . لا يريد أن يفهم ، لا يريد أن يعي ، لا يريد أن يقرر ماذا علي أن أفعل الآن ، أن أفعل غداً . ولكن التلبّد انحسر فجأة فأحسست بالدم يصعد الى رأسي وشعرت بحاجة للبكاء . كم أحسد ليلى لأنها تبكي بسهولة هكذا . نهضتُ ، ذهبت إليها . كانت واقفة أمام الغاز تصنع القهوة وتبكي . امسكت بها ، ماذا حدث ؟ لماذا فعلت بي هذا ؟ إنني أحبك ، أرجوك افهميني . لقد بنيتيني من جديد فلماذا تحطمينني ؟. قلت لها أشياء كثيرة أخرى . كانت تبكي وتقول : إنها تحب شخصاً آخر . نبيل هو الذي طلب منها أن تهتم بي لأنني كنت بحاجة إلى ذلك .
تركتها . دلفت الى الغرفة . حملت سترتي وعلبة سجائري وخرجت إلى الحديقة . صعدت الدرجات لا أعرف كيف ، خرجت إلى الشارع . سرت في العتمة وأنا أسمع صوتها وهي تبحث عني . أخذت سيارة أجرة أو ربما لا ، نسيت كيف وصلت الى بيتي وكيف بحثت عن فرشاة أسناني وكيف انتظرت حلول الساعة الخامسة والربع ، وكيف وصلت الى المحطة .
كان الباص يتابع سيره مجتازاً حاجزاً بعد الآخر . كان الجنود والمسلحون يصعدون إلى الباص يدققون في البطاقات ويتفرسون في الوجوه . عرفني بعضهم فرحب بي . ولما وصلنا إلى مدينة ب نزلت من الباص قرب مقهى «البير» حيث تناولت فنجاناً من قهوة «الاكسبريس» وبعد ذلك سرت باتجاه دوّار طريق الجنوب حيث التقطتني شاحنة عسكرية تابعة للسوريين فأوصلتني إلى المعسكر .

حلب ــ ١٩٨٨

●

ثقافة وأدب

الرجل الصغير

ديدار عبد القادر

ـ هيه يا لطيفة ، يا حمامتي ، ايتها الساقطة ، كيف سأعيش بدونك ، قتلتْك يداي ، وليكن : كان عليك أن تعرفي أن الشرف لا يحتمل المزاح ، هيه يا حمامتي الساقطة . . . . . .

كان العجوز يدور بلا هدف في زنزانته ، وحيدا ، يتمتم حينا ، ويصفق بيديْه أسفا حينا آخر ، بينما كان حي "قدور بك" يغلي بسبب الحادث ، والحي يعيش على الأحداث والاقاويل .

لقد نسيت الحكومة ان تعبد شوارعه ، وان تجهزه بأي شيء يرمز للحضارة ، أو أي مرفق يعين على تزجية أوقات الفراغ . وهاهو الخبر يجتاز الحي مخترقا جدران البيوت (لقد قتل حَسّو الأومري زوجته "لطيفة") .

ومثل هذا الخبر عادي في الحي ، فليس نادراً أن يقتل رجل زوجته لأتفه الاسباب أو اعظمها على السواء ، أما لماذا صعق هذا الخبر أهالي الحي ، وخلق كل هذه البلبلة فيه ، فقد اختلفت الاراء . تعلق العجوز الذكية خَجُه : تتو ، تتو ، ياللعجب «قطعة الرجل» الاومري يقتل زوجته ؟؟ .

والله لقد أصبح الثعلب أسداً هذه الايام .

ولم تكن خجه مخطئة حين نعتته «بقطعة الرجل» ، فقد كان هذا مجالا رحبا للتندّر عليه . فكل شيء فيه يوحي بالصَّغار ، جسمه الناحل القصير ، السروال المنتفخ على ساقيه المقوستين ، وعمامته التي تتهدّل على جبين مُبلل بالعرق دائما ، وكانت اللوحة تكتمل بأنفه الضخم على وجه نحيل مُغضّن فضلا عن صوته العالي الرفيع ، المصحوب بالقَهقَهات ونذف البصاق التي يتفها في وجه محدثه .

لم تكتف خجه بملاحظاتها بل أكملت : لو لم تكن لطيفة جملا لقلنا /رجل قتل زوجته/ ، ولكن لطيفة ، لطيفة التي لم يجرؤ الدرك والشرطة على النظر الى عينيها ، لطيفة التي دوخت شَرّو أكبر قبضايات الحي . والله لو قالوا إن حَسّو شرب كل ماء الخابور لصدقت اكثر من أن يقال أنه قتل زوجته .

لكن سرعان ما تناقصت دهشة وعجب خجة عندما وصلتها القصة الحقيقية :

الموضوع أن ابن الجوار «سُمو» الذي كان يحب ابنة لطيفة (حسينه) كان حاقداً على لطيفة التي زَوّجتْ حسينه خمس مرات ، وبالطبع طلّقَتْها خمس مرات ، ولطيفة تُجيد انتقاء العِرسان لابنتها . فهم من ذوي الطُقوم والكرافات الذين تمتلىء جيوبهم بمهَرِها الغالي ، وتعرف أن جمال حسينه كاف للالقاء بشِراكها حول رقبة أي رجل ، ويجري ذلك في ليلة تجمع فيها الأم ابنتها والعريس المنشود ، وتتركهما معا ، ولا يمكن لاحد ان يعرف ما يجري بينهما ، لكن من المعروف أن الشيخ يقدُم في اليوم التالي لعقد القران .

حسو الأومري لم يكن ليجرؤ على التفكير بمعارضة زوجته . وعلى أية حال عندما كان يحاول أن يتضرع إليها بشأن مستقبل الفتاة ، كانت القباقيب تطارده حتى باب الدار .

في الآونة الاخيرة ، صار سمو يجلس طويلا مع حَسو الأومري ، وكان يهمس في أذنه دون أن يعرف أحد بما يتحدث، لكن الجميع كانوا يخّمِنون عندما كانت الأحذية تطارِد حَسو الأومري بعد دقائق ، وصَوت لطيفة يقرع الحي وهي تصرخ في عقبه :

« يا قواد »

وبازدياد جلساته مع سمو ، صار حسو أكثر شرودا وعزلة ، وصار نادراًما نراه يهذر ويطلق ضحكاته المجلجلة ، أو أن يصرخ هنا وهناك دون سبب .

غالباً ما كُنا نجده جالِسا على المِصطبة أمام منزله مطرقا يفكر بعمق ، أو يدندن بموال مأساوي قديم مرتجلاً كلماته ، ويبقى على هذه الحال ساعاتٍ طوالا . هذا الوضع الجديد فسّرتْه النسوة أنّ حسو خجول من فكرة زواج حسينة السادس برجل عراقي غني .

لكن الموضوع كان أكثر من خجل ، بدليل صرخة لطيفة المدوية في الليل ، حيث خرج بعدها العراقي وحسينه وهي تولول . ولم تمض لحظات حتى خرجت لطيفة تمسك بطنها لتمنع أمعائها من الاندلاق نحو الخارج ، كانت تمشي بصعوبة حيث جرجرت نفسها إلى براكة حارس الحي الذي استيقظ ضَجِراً على الصراخ ، وعندما وصلت لطيفة الى باب البراكة ، لملمت آخر ما تبقى فيها من قوة واستوت مثل جبل شامخ وهي تقول : اخيرا احتجنا اليكم يا كلاب ، خبّر بالهاتف سيارة الاسعاف ، أعتقد أنني اموت .

ثم انهارت على الاض كومةً واحدةً وقد تدلت يداها الداميتان بينما لوثت امعاؤها التربة بمادة لزجة حمراء .

قضى حَسّو الاومري سنة واحدة في السجن لتساهل القانون فيما يسمى (جرائم الشرف) ، وعندما عاد متهاهلا الى بيته حاملا على رأسه بطانية مهترئة ووسادة وسخة كان الجميع ينظرون اليه متهيبين ، فما من شيء يجعل اهالي هذا الحي البائس يحبونك ويتهيبونك مثل الشجاعة ، وذروة الشجاعة عندهم هو القتل والتهريب من تركيا والعراق ، أما القتل بالخِنجر فهو الرجولة الحقة .

عاد حَسّو الاومري والأعين تحدق بوجل الى ساقيه المعوجّتين تتجرجران نحو المنزل ، بينما تمتمت إحدى النساء (والله رجل) .

لم يمض على ذلك يومان حتى وجده أهل الحي يركض من فناء المنزل وابنته تلاحقه بالقباقيب والأحذية وهي تصرخ في عقبه :

« يا يا قواد ، لو كنتَ رجلاً لما قتلْتها وهي نائمة » .

جنوب السودان:
سبل إيقاف الجرح النازف

الحزب الشيوعي السوداني يناضل من اجل انهاء الحرب الاهلية والوصول الى حل سلمي ديمقراطي لمشكلة الجنوب

علي احمد الطيب

ممثل الحزب الشيوعي السوداني في مجلة قضايا السلم والاشتراكية

في الثالث عشر من حزيران (يونيو) ١٩٨٧ اصدر الحزب الشيوعي السوداني مشروع مبادرة لانهاء الحرب الاهلية ولعقد المؤتمر القومي الدستوري الذي سيناقش الى جانب ضرورة انهاء الحرب الاهلية واتخاذ التدابير اللازمة في هذا الخصوص، سيناقش المؤتمر مسألة مستقبل نظام الحكم في السودان، التي اصبحت تشكل محوراً للصراع الدائر حول شكل وطبيعة النظام السياسي في السودان اليوم.

اكد مشروع المبادرة ان تواصل الحرب الاهلية ادى ولا زال يؤدي الى خسائر فادحة في الارواح والمنشآت، كما انه يشكل تهديداً كبيراً على الوحدة الوطنية.

بناء عليه فان الحزب يرى ان واجب كافة القوى الوطنية والمنظمات النقابية والاجتماعية والفئوية الممثلة في الاحزاب والكيانات السياسية والاتحادات، ان تجد مخرجاً من هذه الحرب المدمرة، مخرجاً يقود الى حل سلمي وديمقراطي للمشاكل والقضايا التي اثارتها.

والحزب عندما يطرح تلك المبادرة يضع في اعتباره الظروف التي قادت الى الحرب الراهنة والتطورات والاسباب التي ادت الى اندلاعها في آب (اغسطس)

عام ١٩٨٣. كما ان الحزب يدرك ان اندلاع الحرب في ظل نظام الدكتاتور جعفر محمد نميري كان احد اهم العوامل التي ادت الى خلخلة ذاك النظام والاسهام في الاطاحة به في نيسان (أبريل) ١٩٨٥ عندما اندلعت الانتفاضة الشعبية.

كان من الممكن ان يتم القضاء على الاسباب التي ادت الى نشوب الحرب لو اتيح «للحركة الشعبية لتحرير السودان» ان تشارك كقوة سياسية اساسية في بناء الحياة الجديدة بعد انتصار الانتفاضة الشعبية والاطاحة بالنظام الدكتاتوري. للاسف الشديد ان التقديرات السلبية لقيادة «الحركة الشعبية لتحرير السودان» لما حققته الانتفاضة الشعبية وخاصة انتزاع الديمقراطية. ثم التدابير المعوقة التي اتخذتها السلطة الانتقالية قد حالت دون التوصل الى اتفاق وبالتالي حالت دون القضاء على الاسباب التي ادت الى نشوب الحرب. وبالتالي استمرت الحرب الاهلية على الرغم من زوال النظام الدكتاتوري الذي كان قد شكل العامل الاساسي في اندلاعها.

الحزب الشيوعي السوداني كما جاء في مبادرته الحالية، يرى ان استمرار الحرب لمدة تزيد على العامين منذ انتفاضة نيسان (ابريل) ١٩٨٥ الشعبية، لا يعني سوى تكبيد البلاد المزيد من الخسائر البشرية وتدمير قدر هائل من المنشآت والموارد. كما ان استمرار القتال يحمل معه مخاطر التدخل الاجنبي ويفتح الباب للانقلابات العسكرية.

والمبادرة تلفت الانظار الى ان الصراع المسلح لاكثر من ثلاثين عاماً اي منذ اندلاع التمرد المسلح في عام ١٩٥٠ لم يؤد الى حل المشاكل التي يعاني منها السودان، بل ادى الى تفاقم وتكريس تلك المشاكل.

الى جانب كل ما سلف ذكره فقد تضمنت مبادرة الحزب قضية جوهرية تتعلق بوحدة البلاد الوطنية التي تعتبر الهدف المنشود لكل السودانيين. وفي هذا الخصوص يؤكد الحزب على ضرورة بقاء الجيش السوداني ككيان موحد متماسك ومتلاحم وقادر على حماية حدود الوطن وسيادته. لان الوحدة الوطنية لا يمكن ان تقوم بدون الامن. وانطلاقاً من ذلك فان الحزب يرى ان تدمير الجيش السوداني

يتنافى مع المصالح الوطنية السودانية ويعتبره جريمة لا تغتفر.

الى جانب كل ما سلف ذكره فان مبادرة الحزب تتضمن مبادىء عامة يمكن التوصل على اساسها الى انهاء الحرب. كما انها تقترح وقفاً فورياً للقتال ووضع الضمانات لتنفيذه واستمراره. وقبل الخوض في تفاصيل تلك المبادىء العامة والتعرض للاقتراح القاضي بالوقف الفوري للقتال نرى من الاهمية بمكان القاء الضوء ولو بصورة مقتضبة على جذور وتطورات الصراع الذى ادى الى اندلاع الحرب الاهلية وتفاقم الاوضاع بالصورة الخطيرة التي نشهدها اليوم.

في المقدمة يبدو مهماً ان نؤكد ان مشكلة الجنوب التي برزت الى سطح السياسة السودانية منذ اندلاع الحرب الاهلية الاولى في جنوب السودان عام ١٩٥٥، اخذت تحتل مكانة خاصة في اطار اوضاع السودان المتسمة بالتخلف الاقتصادي والاجتماعي والتمايز بين الاقاليم والتكوينات القومية. ذلك يعني ان مشكلة الجنوب تتسم بطابع قومي واجتماعي وحضاري خاص. يضاف الى ذلك ان قصور النظام السياسي في السودان قد اضر بصورة عامة بمصالح ومطامح الاقسام والجماعات الاكثر تخلفاً وفقراً والتي من بينها الاقليات القومية الجنوبية. وعلى ضوء ذلك يبدو انه ليس بالغريب ان «الحركة الشعبية لتحرير السودان» قد استطاعت ان تستقطب وتضم الى صفوفها العديد من ابناء القبائل والاقليات القومية التي عانت التخلف والفقر والاضطهاد على مدى ثلاثين عاماً. ومما تجدر الاشارة اليه ان العسكريين منهم الذين هجروا الجيش السوداني قد شكلوا نواة وقيادة تلك الحركة وجيشها المقاتل.

ان الجذور التاريخية لمشكلة الجنوب ترجع الى فترة دخول الاستعمار الى بلادنا واخضاعها لاهدافه ومصالحه. وكنتيجة منطقية لعملية استنزاف وتحطيم القوى المنتجة البشرية التي ادت اليها تجارة الرقيق التي مارسها الحكم التركي، ثارت القبائل في الجنوب ضد المستعمرين الاتراك.

وعلى عهد الحكم الثنائي البريطاني المصري كان يجري التخطيط الى فصل الجنوب تماماً عن الشمال وتحويله الى رصيد دائم للاستعمار. ولخدمة ذلك الغرض

اصدرت سلطات الحكم الثنائي في عام ١٩٣٠ قانوناً اطلقت عليه اسم قانون المناطق الممنوعة او المقفولة.

وفي اطار السياسة الاستعمارية لم يحظ الجنوب باي نوع من التطور الاقتصادي او الاجتماعي، بل ان الفقر وتفشي الامراض الفتاكة والاوبئة ثم انتشار الامية والخرافة اصبحت سمة مميزة للحياة في الجنوب.

وللاسف الشديد ان اوضاع الجنوب لم تتغير على عهد الحكومات الوطنية التي تعاقبت على السلطة منذ اعلان استقلال السودان عام ١٩٥٦، بل تفاقمت تلك الاوضاع، الامر الذي نتج عنه اندلاع الحرب الاهلية الاولى التي امتدت منذ عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٧٢. ثم ظهور حرب العصابات بعد ذلك وتكوين مجموعات «انيانيا» (تعني سم الثعبان)، الى ان اندلعت الحرب الاهلية الثانية عام ١٩٨٣ تحت قيادة «الحركة الشعبية لتحرير السودان» وجناحها العسكري «جيش تحرير شعب السودان».

لقد اهملت الحكومات الوطنية المتعاقبة قضية التنمية في الجنوب وتلبية الاحتياجات العاجلة للمواطنين. فالجنوب كان يفتقر لابسط المواد الغذائية ويعتمد في غذائه الرئيسي على الذرة المزروعة في المديريات الشمالية. والخدمات الاجتماعية من صحة وتعليم وغيره تركت للعون الآتي من المنظمات والهيئات العالمية لمكافحة السل الرئوي، هيئات مكافحة عمى الجور والكلازار ومرض النوم. كما ان قضية التعليم انفردت بها الارساليات التابعة للكنيسة الكاثوليكية.

وبدلاً من الصرف على الصحة والتعليم وغيرها من اوجه تحسين حياة الناس، كانت الحكومة تصرف على اجهزة القمع من سجون وبوليس وجيش وادارة اهلية وتفرض الضرائب الباهظة على المزارعين والرعاة.

وفي مقابل كل ذلك كانت البرجوازية الوطنية والاحتكارات الاستعمارية تفكر في اقامة مشاريع السلع النقدية كالبن والشاي وتعليب الفاكهة والتنقيب عن المعادن، الخ.

ولخدمة تلك الاغراض قام البنك الدولي والمعونة الامريكية اثناء فترة

الدكتاتورية العسكرية الاولى (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤) بتقديم معونات لتحسين الطرق والكباري وتشييد خط السكك الحديدية.

ان قمة الاهمال والخراب الاقتصادي والتدهور الاجتماعي التي عاشها الجنوب كانت على عهد الدكتاتورية العسكرية الثانية (١٩٦٩ ـ ١٩٨٥). وقد حدث ذلك على الرغم من الضجة الكبيرة المفتعلة التي اثارتها القوى الحاكمة آنذاك حول برامج التنمية الاقتصادية المزمع تنفيذها في الجنوب. والحصيلة الفعلية كانت فشل الحكومة في توفير المبالغ المرصودة للتنمية وصرف المبالغ التي تم توفيرها على الاجهزة الادارية ولشراء بضائع ومعدات رأسمالية خاصة بالوزارة - الاقليمية. ذلك يعني ان مجمل الصرف كان موجهاً لغير الانتاج. فجمدت بذلك التنمية لحساب الاجور والمرتبات. بالاضافة الى ذلك فرضت الحكومة الاقليمية ضريبة سمّتها ضريبة لتنمية الجنوب يتم تحصيلها من الموظفين والعمال. كما أهملت الحكومة الحركة التعاونية التي كان من الممكن ان تلعب دوراً مؤثراً في حل المشاكل الاقتصادية اليومية للمواطنين. كذلك أهملت الثروة الحيوانية التي تعتبر عماد حياة المواطنين الاقتصادية في الجنوب.

السياسات التي انتهجت في الجنوب على يد الحكم الاستعماري وفي ظل الحكومات الوطنية المتعاقبة، ادت الى جانب الخراب الاقتصادي والاجتماعي الى اشاعة جو من الارهاب والكبت وبذر الشقاق وعدم الثقة بين الشمال والجنوب. وقد ظلت الدعاية الاستعمارية تدق باستمرار على ذلك الوتر الحساس مصورة مشكلة الجنوب على انها مشكلة عرقية ودينية بين الشمال العربي المسلم والجنوب الزنجي المسيحي. دون شك فانها كانت تهدف من وراء ذلك الى طمس وتغطية الآثار المدمرة التي احدثتها يد المستعمر والقوى الاستغلالية السودانية التي سارت على نفس الطريق الاستعماري وانتهجت سياسته.

القوى الديمقراطية وفي طليعتها الحزب الشيوعي السوداني استشعرت منذ فجر الاستقلال المخاطر التي تشكلها مشكلة الجنوب على مجمل الاوضاع في السودان. ولذلك سعى الحزب وناضل بثبات من اجل توحيد قوى الحركة الوطنية

في السودان شماله وجنوبه لمجابهة مخططات المستعمرين والقوى الرجعية السودانية.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الاتحاد العام لنقابات عمال السودان لعب دوراً كبيراً في توحيد قوى الحركة الوطنية في السودان بطرحه ومطالبته بتوفير الحريات النقابية والحريات العامة في كل السودان وفي طرحه مطالب العمال والربط بين مطالب الحركة الوطنية في التحرر النهائي من الاستعمار.

ان تبلور الحركة الوطنية في الشمال في تيارين، احدهما رجعي والآخر وطني ترك انعكاساته على الحركة الوطنية في الجنوب والتي كانت تتكون ايضاً من تيارين احدهما يمثل امتداداً للتيار الرجعي في الشمال والثاني وثيق الارتباط بالتيار الوطني.

وعلى الرغم من ذلك التباين فان الحزب الشيوعي السوداني يعتبر الحركة السياسية في الجنوب وبصورة عامة جزءاً لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني في الشمال وامتداداً لها.

وفي اطار الصراع السياسي الدائر حول ايجاد حل لمشكلة الجنوب ترفع القوى الرجعية في الشمال والجنوب شعارات شوفينية وانفصالية، كما تبنّى جزء من القوى الرجعية الذي كان يحظى بمساندة جماعات المبشرين شعار «الفدريشن». وفي مجابهة تلك الشعارات ناضل الحزب الشيوعي والقوى الديمقراطية من اجل وضع المشكلة في الموضع السليم والعمل على فتح الطريق الثوري لحل مشكلة الجنوب على اساس حل سياسي ديمقراطي يضمن الحكم الذاتي الاقليمي في اطار السودان الموحد.

والحقيقة التي لا مناص من تأكيدها انه منذ ان نال السودان استقلاله السياسي في عام ١٩٥٦، ظلت الاحزاب الشمالية الحاكمة تناور بمطالب الجنوبيين وتتاجر بمشكلة الجنوب التي كانت تنتظر الحل.

لقد وجدت دعوة الحزب الشيوعي السوداني والقوى الديمقراطية صدى مؤثراً في مؤتمر المائدة المستديرة الذي انعقد بعد انتصار الثورة الشعبية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٤ والذي اشتركت فيه كل الاحزال السياسية الشمالية

والجنوبية بما فيها الحزب الشيوعي السوداني.

لقد اكد ذلك المؤتمر ضرورة العمل على حل مشكلة الجنوب حلاً ديمقرطياً في اطار السودان الموحد. ومن داخل ذلك المؤتمر هزمت الاتجاهات الانفصالية وتلك التي كانت تطالب بالفدريشن. ومن بين أهم نتائج ذلك المؤتمر ان الاحزاب السياسية البرجوازية الشمالية اعترفت علناً ولاول مرة بوجود مشكلة الجنوب وبضرورة العمل على حلها. لانها في السابق كانت تنكر وجود تلك المشكلة خاصة عندما يكون زمام السلطة بيدها.

الصراع السياسي والتنازع من اجل الاستيلاء على السلطة بعد ثورة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٤ من قبل احزاب اليمن البرجوازية وجنوح تلك الاحزاب نحو مصادرة الديمقراطية ومصادرة نشاط المنظمات والاحزاب التقدمية وفي المقدمة مصادرة نشاط الحزب الشيوعي السوداني، عصفت بكل الجهود التي بذلت في سبيل ايجاد حل ديمقراطي لمشكلة الجنوب، الامر الذي ادخل البلاد في دوامة وازمة سياسية ادت الى استيلاء العسكريين على السلطة في أيار (مايو) ١٩٦٩ واقامة دكتاتورية عسكرية امتدت لاكثر من ست عشرة سنة.

وكما هو معلوم فان النظام العسكري الدكتاتوري سعياً منه الى توطيد حكمه وازاحة كل العقبات التي من الممكن ان تحول دون تشديد قبضته على الحكم، اقدم على عقد اتفاقية اديس اباب في عام ١٩٧٢ والتي تم التوقيع عليها بين النظام الحاكم والقيادة السياسية لحركة التمرد الجنوبية: تلك الاتفاقية التي منح بموجبها الجنوب الحكم الذاتي الاقليمي. وكنتيجة لتلك الاتفاقية وقعت السلطة في الجنوب في ايدي السياسيين والاداريين والعسكريين الذين يمثلون شرائح البرجوازية النامية وقد شاركت تلك العناصر ايضاً في تقلد المناصب في اطار السلطة المركزية وبذلك اصبحت تشكل جزءاً هاماً من القوى الاجتماعية الحاكمة على صعيد الوطن كله.

استمرت التجربة منذ ابرام الاتفاقية عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٨٣ عندما اندلعت الحرب الاهلية الثانية.

حصيلة التجربة التي امتدت لأحد عشر عاماً، كانت فشل العناصر

الجنوبية في حل مشاكل الجنوب. وقد استغلت تلك العناصر وجودها في السلطة لخدمة مصالحها وللمحسوبية القبلية. وفي سبيل الوصول لاهدافها وتحقيق مصالحها الذاتية وتوطيد سيطرتها وضعت نفسها في خدمة سياسات النظام الدكتاتوري وخضعت لتدخلات رئيس الدولة في الشؤون الداخلية للسلطة الاقليمية، الامر الذي ادى الى نسف اتفاقية اديس ابابا وخاصة بعد ان اصدر جعفر نميري قراراً يقضي بتقسيم الجنوب الى ثلاثة اقاليم ثم قراره الخاص بتطبيق ما سمي بالشريعة الاسلامية وتكوين الدولة الاسلامية.

وفي مواجهة ذلك الوضع المتردي اتسعت حركة المعارضة وخاصة الحركة العسكرية. وبرزت قوى سياسية اجتماعية جديدة تختلف عن تلك التي كانت تسعى الى انتزاع مكاسب وتنازلات من الدولة المركزية.

الجماعات الجديدة شكلت «حركة تحرير شعب السودان» والجناح العسكري التابع لها «جيش تحرير شعب السودان» بقيادة العقيد جون قرنق.

يقيّم الحزب الشيوعي السوداني تلك الحركة بانها نتاج للتجربة الذاتية للاقسام المستنيرة من الشعب في الجنوب بعد فشل تطبيق اتفاقية اديس ابابا. وهي لما طرحته من برنامج واهداف جديدة تتجاوز الاهداف الاقليمية لمشكلة الجنوب الى اهداف عامة تؤدي الى اصلاح النظام السياسي الاجتماعي في السودان وبالتالي اصلاح الدولة المركزية كشرط لحل مشكلة كل اقاليم السودان وليس الجنوب فقط، قد ساهمت في هزيمة الاتجاهات الانفصالية كما سحبت البساط من تحت تعصب القومية العربية الاسلامية الحاكمة في الشمال. بالاضافة الى ذلك فان الحركة ترى ان مشكلة الجنوب لن تحل الا في اطار حل ديمقراطي عام لكل السودان، وان مقدمة الحل وشرطه هو اسقاط نظام نميري. وبذلك تكون اهداف الحركة قد التقت باهداف الحركة السياسية في الشمال ولكن على الرغم من ذلك التوجه السليم فان ظروف الحرب الاهلية منذ اندلاع الحرب في عام ١٩٥٥ وحتى تكوين «الحركة الشعبية لتحرير شعب السودان» في عام ١٩٨٣، حالت دون التقاء الحركة السياسية في الشمال والحركة السياسية في الجنوب. كما ان ظروف

الدكتاتورية العسكرية والارهاب الذي فرضته على نطاق الوطن وضع عقبات كبيرة امام فتح قنوات للصلة والتنسيق وتبادل وجهات النظر.

هذا الوضع ترك اثره على تكتيكات واساليب نضال الحركتين. ففي الوقت الذي تبنت فيه الحركة السياسية في الشمال شعار الاضراب السياسي والانتفاضة لاسقاط النظام العسكري الدكتاتوري، كانت «حركة تحرير شعب السودان» تتبنى تكتيكِ النضال المسلح كتكتيك وحيد لاسقاط نظام نميري. كما انها اخذت تدعو كل قوى المعارضة للانضمام لصفوف جيش التحرير.

بناء عليه فقد برز تناقض كبير بين «حركة تحرير شعب السودان» وبين الحركة الشعبية السياسية التي اطاحت بنظام نميري. ففي الوقت الذي كانت فيه قيادة الانتفاضة الشعبية المتمثلة في «التجمع الوطني لانقاذ البلاد»، تدعو قيادة «جيش التحرير» لبدء الحوار والانخراط المباشر في تجمع الانتفاضة كانت قيادة جيش التحرير تدعو الجماهير لمواصلة الانتفاضة واستلام السلطة من «المجلس العسكري الانتقالي» وتدعو «المجلس العسكري الانتقالي» لتسليم السلطة «للتجَمُّع الوطني لانقاذ البلاد» في ظرف اسبوع.

الحزب الشيوعي السوداني يرى ان قيادة «جيش التحرير» لم تقيم تقييماً سليماً عمق واتساع الانتفاضة، وان اسقاط نظام نميري لا يعني سوى استعادة الحرية السياسية كخطوة اولى ضرورية لمواصلة النضال مرة اخرى من اجل التحرر الاجتماعي والاقتصادي والقومي، أي اعادة تنظيم القوى وصياغة تكتيكات جديدة، الخ.

على الرغم من كل ما سلف ذكره وعلى الرغم من الوضع المعقد الذي تعيشه البلاد اليوم، فان الحزب الشيوعي السوداني والقوى الديمقراطية يريان ان التوصل الى اتفاق ترتضيه كل الاطراف بشأن انهاء الحرب وعقد المؤتمر الدستوري ممكن وذلك عن طريق الحوار والاتصالات وانه لا يوجد اي خيار آخر غير الخيار السلمي. والشيء الايجابي ان الحركة الشعبية قد اعلنت قبولها للخيار السلمي كما شاركت في اللقاء الذي انعقد بين الحركة و«التجمع الوطني لانقاذ البلاد» في اثيوبيا

والذي نتج عنه الاعلان الذي اطلق عليه اسم «اعلان كوكادام» الذي عبر عن اجماع القوى الموقعة عليه في ان يكون المؤتمر القومي الدستوري هو الوعاء الذي ينظم الحوار الوطني الذي سيقرر شكل الحكم في السودان. يضاف الى ذلك مبادرة السيد رئيس الوزراء وزعيم حزب الامة السيد الصادق المهدي في الاحتفالات التي نظمت في ٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٧ بمناسبة مرور عامين على الانتفاضة.

الحزب الشيوعي السوداني يؤكد في مبادرته ان التحرك في اتجاه وقف القتال وتهيئة المناخ لعقد المؤتمر الدستوري وتوفير الضمانات لنجاحه يتطلب اتخاذ التدابير الآتية:

١) الغاء قوانين ايلول (سبتمبر) ١٩٨٣ المسماة بقوانين الشريعة الاسلامية واعادة العمل بالقوانين التي كانت سائدة قبلها.

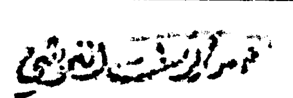
٢) الغاء اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر (بقانون) وكذلك سائر الاتفاقات المشابهة.

٣) عدم البت في اية قضية مما يتم تحت صلاحيات المؤتمر القومي الدستوري.

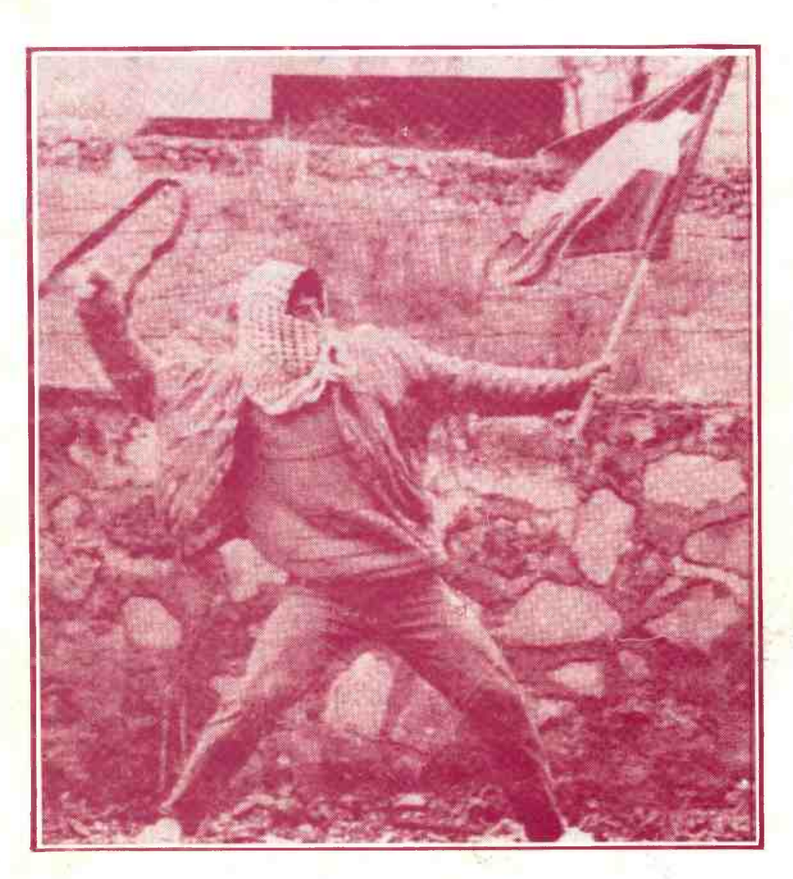
ومما لا شك فيه ان اتساع الحرب الاهلية في الجنوب اخذ يهدد الامن والسلام في كل المنطقة الافريقية المحيطة بالسودان وخاصة منطقة القرن الافريقي. كما انها ادت الى توتر العلاقات بين السودان والدول الافريقية المجاورة وخاصة الدولة الاثيوبية الفتية. يضاف الى ذلك ان القوى الرجعية في السودان وفي مقدمتها «الجبهة القومية الاسلامية» التي تلتقي اهدافها ومصالحها مع القوى الرجعية العربية والدوائر الامبريالية تسعى الى تدويل الحرب.

بناء عليه فان بذل جهود مكثفة متواصلة تقود الى انهاء الحرب والعمل على عقد المؤتمر القومي الدستوري تصبح قضية ملحة لا تهم الشعب السوداني وحده بل تهم كل شعوب المنطقة والقوى الوطنية الديمقراطية فيها، التي لا ترى في الحروب والنزاعات الاقليمية المسلحة حلاً لمشاكل القارة الافريقية وبلدانها.

●



DIRASSAT ICHTIRAKIA 2 1988



الانتفاضة مستمرة

السعر ١٥ ل. ل